

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190441

UNIVERSAL
LIBRARY



عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا



الجزء الثالث



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة الثامنة والستون

عوداً الى حكاية يعقوب

فقال يعقوب بعد ان دفع ذلك السائح ما دفعه وحصل التراضي بين سيدي وبينه بتنا تلك الليلة في البلد وبات يودعني من كنت اعرفه خصوصاً من كنت عنده وجميع اهل بيته فلما اصبح الصباح قمنا للسفر فركبنا قاصدين الساحل فلم نصله الا بعد عشرة ايام شاهدنا فيها من حر الطريق ووعره مشقات عظيمة لان جميع الطرق بهذه البلاد قد تخللتها الجبال والغابات والبرك والاحمام فكننا نبيت تارة في بعض القرى وتارة في محلات اخرى خالية عن القرى وكان مع السائح اوامر واعلامات من لدن الحكومة

ومأمورون من قبل الملك فكنا اذا مررنا بقرية او حلة حصل لنا من اهلها الاكرام والاحترام ولكن كان يخنف بنا اهلها يستغربون صورتنا ويتأملون في هياتنا فكان من معننا من المامورين بتوصيلنا بنحوهم عنا واذا احتجنا الى شي يادروا به ودفع السائح ثمنه من عنده وغير ذلك كان يعطي لمشايخ البلاد التي كنا ننزل بها بعض هدايا مما يجب في تلك الجهات مثل قطع من قماش وشي من الخرز واساور من زجاج وكانوا يهدون الينا بعض اشربة من الروم والبيذ ومازلنا سائرين حتي وصلنا مدينة (بوري) وهي محل اقامة الملك المتصرف في جهات (سياد البونا) (اعني نهر جبال السباع) وهي على بعد ثمانية فراسخ من مصب النهر المذكور في البحر وكان خبرنا وصل اليه قبل قدومنا عليه فارسل لاستقبال صاحبي السائح جماعة من امرائه وقواد عسكره فاستقبلونا بالبشر والطلاقة مع التوقير والاحترام ومزيد الاكرام وساروا بنا الى ان وصلنا اليه فوجدناه جائساً على حصير وحوله امراؤه وحشمه وعلى البعد منه بعض عساكره واهل بلاده فلما رأنا قام لنا وتلقانا ومد يده الى السائح فصافحه وهز يده واجلسه بجانبه ثم سأله عني فاخبره بقصتي وشرح له قضيتي وكيف خلصني ممن كنت معهم حتى صرت معه فهنأني الملك ببعض كلمات انكليزية وكان يعرف قليلاً من لغة الانكليز بسبب ان لم ياترب منه محلات للتجارة فيها حاكم انكليزي كان يزور الملك لبعض حاجاته ويزوره الملك في

بعض الاحيان فتعلم بعض هذه اللغة بسبب المخالطة

ثم اهدى اليه صاحبنا السائح زجاجات من نبيذ وبعض
اقمشة فكافأ عليها بعشرا واق من ذهب واربعة اعد ثم استأذنه
ومنا فبئنا تلك الليلة بمحل قد اعد هناك للضيافة

وفي اليوم الثاني توجهنا الى محل حكومة الانكليز بهذه البلاد
فوجدنا سفينة عنيد سفرها الى بلاد الانكليز الا انها في انتظار اتمام
حمولتها فافئنا يومين الى ان تم وستها فركبناها وحمدت المولى على
قرب مسافة الانتظار وتخلصي من اهل تلك الديار وكان ما عندي
من شدة الفرح بالعود الى الوطن والخروج من ارض الغربة
والتخلص من هذه الكربة وشدة شوقي الى بلدي قد جعل عليّ
مدة اليومين اللذين مضيا في الانتظار طويلة الى الغاية حتى كنت
اتخيل انها اطول من مدة اقامتي في هذه البلاد كلها وهي اربع سنين
فلم اكن في هذين اليومين يهدأ لي سر ولا يهنأ لي عيش حتى
انقضت ونزلنا في السفينة كما ذكرت وسارت بنا فداخلي من الفرح
والسرور ما لا اقدر على وصفه وعزمت على اني متى وصلت بلدي
اقت بها ورجعت الى صنعتي ورضيت منها بكل ما تبسر واقت
مع اختي الى ان يرزقها المولى بمن يتزوج بها ويغنيها عن الخدمة
وتعبها

وكان ذلك الرجل السائح الذي كنت بصحبته لحسن طاعتي

له رفياعي بخدمته احبني والفني وجعلني عنده بمنزلة ولده وهكذا كان دأبه معي برّاً وبجرّاً سفراً وحضراً حتى انه نفني كثيراً بعد وصولي الى بلدي واقامتي بوطني كما اذكره لحضرتكم وطالما افادني مدة صحبتي له في السفر اخباراً كثيرة مما شاهده في سياحته وعلمي اموراً كنت اجهلها ووصف لي كثيراً من خواص حيوانات الافريقية ونباتها واشكال طيرها وعجائب الخلائق البرية والبحرية بها ولا يخفى على حضرتكم ان ارض افريقية على العموم بها من جميع انواع الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية كالاسد والثور والفيل ما لا يوجد بغيرها وفي الجهات التي كنت بها كثير من هذه الحيوانات ما واهها الغابات والصحاري واشدها واقساها السبع وهو في جهات (السني غال) و (غمبيا) عظيم الجثة مهول الخلقة كثير الجراءة ذو قوة عظيمة وبأس شديد فهو اعظم ما يوجد من هذا النوع في سائر الجهات كخيال الاطلس مثلاً

ولما خرجنا من الجهة التي كنت بها قاصدين جهة الساحل وجدنا في طريقنا بعد مسيرة ثلاثة ايام من قرية (تابو) غابة واسعة فيها اشجار عظيمة قد انطبقت اعاليها وتلاقت فروعها فكنا نراها كالتبة فوق رؤسنا وقد حجبت عنا اشعة الشمس فلم نكن نراها الا قليلاً نادراً ولهذا السبب كان داخل هذه الغابة ابرد من خارجها وكنا في مدة سيرنا بها نسمع للسبع من جميع جهاتها اصواتاً مزعجة

حتى كنا نتخيل لشدة الخوف ان تحت كل شجرة سبعاً وكان من معنا من المحرس والخفراء يسرعون ويحثون على السرعة في السير خوفاً من اذالها ولكننا والحمد لله لم نر شيئاً منها وما زلنا نجد في السير حتى خرجنا من هذه الغابة قريب العصر وسرنا حتى امسينا على عين ماء هناك للمبيت فنزلنا عندها ومن عادتهم في تلك الجهة انهم اذا باتوا في الخلاء اوقدوا ناراً على البعد وتركوها للصباح لتنفير السباع والوحوش عنهم وكذلك فعل من كان معنا من الخفراء وبتنا على الخوف والخشية من الوحوش والسباع وكانت المسامرة تلك الليلة كلها في ذكرها فكان كل من الحاضرين يذكر ما سمعه او رآه من امرها وشرها



المسامرة التاسعة والستون

الساع

(من حكاية يعقوب)

فما جرى ذكره في تلك الليلة ما حدثنا به بعض الخفراء وقد رأينا باحدى فخذيه اثرًا غائرًا في لحمه فسألناه عنه فقال هذا موضع أكل السبع وذلك اني خرجت مرة مع بعض اصحابي لنصطاد فيلاً من بعض الغابات فلما دخلنا الشابة تفرقنا فبعدت عنهم فقصدني سبع فتجلدت ورميته بحربة كانت معي فاصابته ولكنها لم تذهب بقوته فهم عليّ بشدة وكان معي سكين ماضية فذبجنه بها بعد ان انشب محالبه في جهات من جسي واقتطع من فخذي هذا قطعة عظيمة من لحمي فوقعت على الارض ووقع بجاني ميتاً ثم حضر اصحابي فوجدوني جريحاً طريحاً على الارض والاسد بجاني غريق في دمه فاحملوني معهم وبقيت مدة من الزمن مريضاً الى

ان شفيت وقال اخر بينما انا سائر مرة في واد واذا باسد قد تعرض لي في الطريق وكنت وقتئذٍ لا سلاح معي فلما رأيته لصقت بالارض واشرت اليه اشارة المتذلل بين يديه فلما رأى مني ذلك اتى اليّ ودار مرة او مرتين حواليّ ثم تركني وانصرف

قال يعقوب وهكذا قضينا ليلتنا في امثال هذه الاحاديث والاختبار الى ان طلع علينا النهار فرحطنا وسرنا في طريقنا الى ان وصلنا الى الساحل كما ذكرنا وكان من جملة ما افادني ذلك السائح من خواص الحيوان ان لسان السبع غليظ خشن يعلو سطحه شوك دقيق كالسل الا انه صلب مادته تشبه مادة القرن مائل الى جهة الخلف نحو الحلق وقد يبلغ طول الشوكة قدر اربعة خطوط فاذا لمس انساناً او حيواناً تتجرح وسال دمه فتتحرك منه نهمة الاكل فيفترسه

قال ومن ذلك ان احد الفرنسيين كان اصطاد اسداً صغيراً فرباه حتى كبر عنده وكان لذلك الفرنسي خادم يلاعب الاسد وينام معه وتارة يعطيه بده فيلمسها فنهاه سيده عن ذلك ونصحه فلم يرجع ولم يقبل نصحه فبينما هم نائمون ليلة واذا بالشبل قد عمد الى الخادم وصار يلحس يده بلسانه على العادة فسال الدم فلما رآه لم يتمالك نفسه فهجم على ذلك الخادم واقتصره فتنبه سيده فراه كذلك ففر هارباً واستغاث بمن حوله واجتمعوا عليه واطلقوا الرصاص على الاسد فقتلوه وللأسد في كل فك من فكيه اربعة

عشر سنًا أربعة اماميه وأربعة من خلفها وستة اضراس في كل ناحية من شذقيه ثلاثة وعلى رقبة الذكر خاصة شعر ينتشر اذا هاج وهو لبدته ويقال ان الانثى من هذا النوع اقوى من ذكره وفي ارجله قصر بالنسبة لتركيب اعضائه وفي كل من الرجلين المتقدمين خمسة اظافر وفي كل من المؤخرتين أربعة وذنبه طويل وشعره خشن متلبد قصير وقد ضرب المثل بحجراته لانه لا يبالي بمجوان ولا يخشى من انسان قلّ او اكثر خصوصاً اذا اشتد به الجوع فاذا لم يرد الهجوم والافتراس مضى في طريقه من غير اكتراس ولا مبالاة وليس من طبعه الفرار من عدوه مها كان فان الحيء الى ذلك تهقر قليلاً قليلاً مع البطء والتأني حتى يصل الى ممكن يتزوي فيه ويقال انه مصاب بحمى دائمة وان سبب ذلك التهاب دائم في دمه وزعم كثير من الناس انه لا يفترس المرأة وقال بعضهم ان ذلك لا اصل له ولكنه شوهده مراراً كثيرة يعف عن وقع تحت قبضته وخضع له من الادميين بل ربما شارك في طعامه من عف عنه ابقاء على حياته

ومن طبعه انه يحتمل العطش ثلاثة ايام او أربعة فاذا وقع على الماء شرب كثيراً ومن طبعه ايضاً الخوف من الثعبان ويعلم ذلك منه العرب وسكان الصحراء فاذا وقع باحدهم جعل عمامته على صورة الثعبان ومدّها على الارض فاذا رأى ذلك الاسد تركه ومضى

ويقال ان خيل العرب مع ما لها من القوة وخفة الحركة وسرعة الجري اذا رأت الاسد استولى عليها الرعب وعدمت الحركة فتثبتت في مكانها ولا تقدر على السير فاذا رأى البدوي ذلك نظر الى جهة الاسد فان كان قريباً نزل عن فرسه ونام على بطنه وترك فرسه للاسد فيفترسها الاسد وينجو هو بنفسه وان كان بعيداً او قد ناراً فاذا رآها الاسد مضى لسبيله وتركه

وتلد انثى الاسود اربعة فاكتر وليس لها غير ثديين وقد اعتاد الاعراب اخذ اولادها وهي صغيرة لبيعوها للافرنج فاذا رأتهم الليرة هجمت عليهم فيرمون لها بواحد منها فتحمله الى موضعها وترجع اليهم لتلتهم وتأخذ بقية اولادها وفي هذه المدة يكونون قد نجوا بما معهم ومن طبع الاسد حفظه للود ووفاءه بالعهد فاذا صنع احد معه معروفاً لا ينساه ابداً

فمن ذلك ما اخبرني به بعض اصحابي . قال كان عند حاكم (سيار البونا) اسد ظهر على جسده بعض قروح اضرت بصحته واضعفت جسمه وكان هناك حكيم فأخذته الرأفة عليه والشفقة به فعالجه حتى برئ واندملت قروحه وتراجعت صحته وقوته فألفه واجبه وصار يطيعه ويتقاد له ويتبعه كما يتبع الكلب المعلم صاحبه

المسامرة السبعون

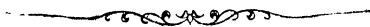
ابن آوي

(من حكاية يعقوب)

قال ثم ان ذلك الحكميم مرض مرضاً مات فيه فظهر على الاسد
الحزن حتى منعه من الطعام فمات ولم يعيش بعده الا قليلا وفي
جهات سواحل افريقيا غير ما ذكر كثير من الوحوش والفرادة
والطيور العجيبة ذات الالوان اللطيفة والانسكال الظريفة وانواع
الحوانات الغريبة فلا يكاد يمر الانسان من جهة الى غيرها الا
رأى من عجائب المخلوقات ما لم يكن رآه من قبل ومن جملة ما
بها من الحيوانات ابن آوي وهو حيوان مفترس في جرم الثعلب
وكأنما اصله من كلب وذئب لانه يشبهها خلقه وتركيبا ولونه اصفر
ناصع ولهذا سماه (فيتاوس) الكلب المذهب وبعضهم يسميه بالكلب
الوحشي وانيابه غليظة في طول اصبع قوي الاظفار ذو قسوة

شديدة يفترس كل ما قدر عليه من انسان وحيوان وكثيراً ما رأيته في البلاد التي كنت بها يقرب من مباني البلد ويدخل في بعض الدور وياخذ ما وقع به من الغنم والخنازير ودخل ذات ليلة بيت جارية فاخطف منه بنتاً لها وحملها على عاتقه وجرى بها وكان يسندھا باحدى قوائمه ويمشي على الثلاث مع السرعة والخفة فصاحت البنت فتنبهت الناس لصياحها فقاموا خلفه فرماها لم ولم يجدوا بها الا اثرًا صغيراً محل اظافره التي كان قابضاً بها عليها ويقال ان هذا الحيوان يهيم الصيد للاسد فيدور من جهة الى جهة ليبحث عن الصيد فتى عثر به صاح باعلى صوته فيسمعه الاسد ويجاوبه ويلحقه وقيل ان ذلك لم يصح وانما الصحيح انه اذا جرى وراء طريدته فادركه الاسد شاركه فيما اصاب

وقد يتألب من هذا الحيوان في بعض الاحيان اربعون او خمسون فتنبعث للصيد وتأخذ في عواء شديد جهير واذا اتحدت وهي على مثل هذه الحال كانت مكافئة للوحوش الضارية في اجامها وتعرضت لاقواها ويساعد بعضها بعضاً في الصيد ونش المتأبر وهي تستكن نهاراً مفردة في احجارها وتجمع عند المساء سرباً وتغير على القرى والاغنيال وبين ابن اوي والكلب من العداوة ما لا صلح معه فلا يلتقيان مرة الا سطا احدهما على الاخر



المسامرة المحادية والسبعون

النمر

(من حكاية بغنوب)

ومنها النمر وهو حيوان في جرم الكلب السلوقي ومنه ما يكبر
ويعظم جسمه حتى يصير كالعجل وشعره ناعم براق منقط بنقط سود
وراسه كراس الهر اصفر العينين حاد الاسنان خشن اللسان طويل
الارجل والذيل قصير الشعر حاد الاظافر الى الغاية عظيم الجرأة
يقدم على الفيل ويهجم عليه وهو كالهر في غالب صفاته وافعاله
وحركاته مع الشدة والشهامة كما انه يشبهه في شكل الجسم وان
كان اكبر من القط في الحجم واكثره قوة وجرأة ما يوجد بافريقيا
والنمر لبساته وزيادة قوته لا يصاد حياً الا نادراً لانه اذا وقع في
حباله قل ان يسلم منه صائده ولذلك يتخذون لصيده نبالا
مسمومة السنان وهو يعدو على الفيل فيمزق خرطوميه باظافره

وانيا به فيموت لان خرطوم الفيل بالنسبة له كيده يتناول بها
الغذاء وسلاحه الذي يدفع به عن نفسه الاعداء فاذا فقدت مات
من عدم الغذاء وتسلط الاعداء ومع جرأة النمر وشدة قوته قد
شاهد مرة من بعض الخنازير مقاومته بالكثرة فقد اتفق لبعض
السائحين وكان يقتني الخنازير انه اصطاد نمراً صغيراً ورباه فعمد
ذات يوم الى خنزير من تلك الخنازير ليفترسه ففر الخنزير منه الى
مكان ضيق بحيث لم يبق للمرسليل عليه الا من جهة واحدة
فتبعه النمر وضايقه فلما لم ير الخنزير الى الخلاص منه سبيلاً صاح
على اخوته باعلى صوته وكانت منتشرة في نواحي البيت فلما سمعت
هرعت اليه واحاطت بالنمر فلم ينبج منها الا بالفرار فولى وتركها
والنمر انواع متعددة يتميز بعضها عن بعض بالالوان والنقط وكبر
الجثة وهو يستحب لحم ما عداه من الحيوان على لحم الآدمي ثم لحم
السودان على لحم البيض والاروبيين لكنه اذا جاع لا يفرق بين
ادمي وغيره والسودان ياكلون لحمه كما ياكلون لحوم الفيلة
والاسود وغيرها وكثيرا ما يقتلون من يقصد الاتجار في جلده
ويقال ان فيه قابلية للتعليم الى ان يصير كالكلب المعلم الا انه لا
يوثق به لانه ربما يغلب عليه طبعه بعد حين ويقرب منه نوع
يسمى القط النمري وهو كالنمر في طبعه ولونه الا انه اقل منه جسماً
ويكون في ارتفاع القط المعتاد الا انه اغلظ منه حجماً وياكل
الفار وابن عرس وغيرها ومنه نوع يعرف بالقياس بوصف

بصفات الثمر الافريقي غير ان طوله قلما يجاوز ثلاث اقدام ونصفاً
 الا ان شعره اطول وكذا ذنبه بالنسبة الى جثته ولونه ما بين
 الصفرة والبياض ولكن بطنه اشد بياضاً من ظهره وتقطه كالنقط
 التي في الثمر وضعاً وتوشك ان تصير على مؤخره خطوطاً وهو
 من الحيوانات المفترسة الا انه لا يتعرض للادمي الا ان تعرض
 له ولم يمكنه الفرار منه فعند ذلك يثب عليه وينشب مخالبه في
 وجهه ويكرر ذلك مراراً حتى يقتله وبين هذا الحيوان والكلب
 عداوة شديدة فتى رآه بادرا الى الهجوم عليه ليفترسه وياكل من
 لحمه ولو مع اقتحام المخاوف والتعرض للتلف وقد يدرب في بعض
 الجبهات ويغرى بالصيد ولكنه ليس له قوة شم حادة كما للكلب
 ويقال ان بعضاً من هذا النوع ربي تربية حسنة حتى كان يؤخذ
 باليد ويحنضن



المسامرة الثانية والسبعون

الفرْدَة

(من حكاية يعقوب)

وهناك حيوانات غير ما ذكر متوحشة كالذئب والخنزير وغيرها وكلها تشبه في شكلها وتركيب صورتها ما يوجد منها في سائر البلاد إلا أن الموجود منها في افريقيا اعظم جسمًا واشد توحشًا وأكثر عددًا ويوجد في غاباتها من الحيوانات المتوحشة الجاموس والبقرة إلا أنها اقل وجودًا من غيرها وقد يكبر الجاموس عندهم حتى يصير كالفيلة وإن تعرض له احد بالاساة هجم عليه فان لحقه داسه بارجله واتلفه ومن طبعه انه يحب الماء حبًا زائدًا ولحمه مستطاب لذيد واما البقر فيهرب من الانسان ويسكن الغابات ويتناسل فيها فيكثر عدده الى الغاية فيأتي اهل تلك المحمة

وياخذون منه كثيراً ولولا ذلك لضاقت عنه الأرض وهناك من
نوع الظبا كثير وأكثر وجوده بجهة (امندا) والساحل وهو انواع
ومنه نوع يده اقصر من رجليه ويشابه الجمل في ذيله ورأسه
ووبره وحول اجفانه دائرة من الشعر سوداء كاعين الايل وصوته
كصوت المعز ويقبل الناليف والترية وما يكثر وجوده في تلك
الجهات الايل وله اوقات معلومة يخرج فيها للمرعى قطائع متجمعة
تسافر من شمال نهر (السينجال) الى جهة جنوبه في طلب المرعى
واهل تلك الجهة يعرفون اوقات رجوعها فيستعدون لاصطيادها
بان يضرمو النار في الحشيش من جميع الجهات ما عدا جهة
النهر ويقف جماعة منهم بشاطئ النهر فاذا رأت قطائع الايل النار
قد احاطت بها من كل جانب فرت الى جهة النهر فيقوم عليها
الذين كمنوا لها هناك فيقتلون منها ما يقتلونه وياخذون بالحيوة ما
ياخذونه وما يذبحونه يحففون لحمه في الشمس لياكلوه وجلده
ليبيعوه للاوربيين او غيرهم وقد اخبرني ذلك السائح الانكليزي
انه رأى هناك حيواناً صغير الجنة في قدر خنزير مضى عليه سنة
من عمره شعره ابيض قصير دقيق صلب ورأسه كراس الدب
وعينه ضيقة ذات لمعان وله اظافر حادة يصعد بها الشجر وياكل
من ثمارها ويقم بين اغصانها وهو يجري بري يعيش في الماء وفي
الهواء فلماذا يرى دائماً فوق اغصان الاشجار بالقرب من شواطئ

الانهار والسودان يصطادونه وياكلونه

وليس هناك اكثر من الفرقة عدداً وانواعاً ولا اعجب منها طباعاً وتسرح متجمعة قطائع عظيمة قد يبلغ عدد القطيع الواحد منها ثلاثة الاف فاكثرو ولا يمشي واحد منها الاً مع ابناء نوعه ويقال ان لكل قطيع منها رئيساً تطيعه وتنقاد له وحرسا يرتب من اعظمها جنة وقوة وانها اذا سارت يكون الرئيس امامها والحرس خلفها والانثى تحمل ولدها تحت ابطها فان كان لها اكثر من واحد حملت ما بقي على ظهرها وسارت بها

وفي هذا النوع من الحذق والخفة والقوة والجرأة ما يقضي منه العجب ولا يوجد في كثير من الحيوانات فقد رأيتها حين عودتنا مع السائح الانكليزي وهي فوق الشجرتنب من غصن الى غصن ومن شجرة الى شجرة كأنها فوق الارض ولها اصوات مختلفة منها الرفيع ومنها الغليظ وما بين ذلك ولكنها كانت تارة تصيح دفعة واحدة فيظن من لم يرها انه صوت واحد منها وقد يسمع لبعضها في جوف الليل صوت عال يعلو جميع اصواتها فتسكت جميعا برهة من الزمن ثم ترجع الى ما كانت فيه وكنت رأيت هناك بيوتا صغيرة كثيرة العدد مصنوعة من اغصان الشجر قليلة الارتفاع عن وجه الارض متجاورة فسالت عنها بعض الحرس الذين كانوا معنا فاخبرني انها بيوت للفرقة نثقي بها حر الشمس وضرر العوارض

وكل ما رأيته من القرّدة له ذيل ولكن اخبرني بعض السائحين ان منها ما لا ذيل له والقرّدة انواع فمنها نوع صغير الجثة غير مؤذ وصوته يشبه بكاء الاطفال ونوع اكبر منه خلقه وضرره كثير وفيه بعض فطنة وله حركات وإشارات تقرب ما للآدمي من ذلك فضلاً عن الايدي والارجل حتى ان السودان يعتقدون ان في امكانه النطق وإنما يمنعه من ذلك خوفه من ان يكلف الاعمال الشاقة كالآدمي وضرره على المزارع كثير ومن عادته انه اذا اراد الدخول في مزرعة من مزارع الارز او الذرة اجتمع منه نحو الاربعين والخمسين وصعد كبيرها على شجرة لينظر الى كل جهة والبقية تدخل في الزرع وتجمع ما شاءت فاذا لمح الذي على الشجرة صاحب الزرع او غيره مقبلاً الى جهتهم على بعد صاح صيحة مهولة فيأخذ كل واحد ما جمعه ويصعد به الى شجرة ولا يزال يشب من غصن الى اخر ومن شجرة الى غيرها واذا كان فيه انثى ذات اولاد اخذتها وصعدت بها كذلك وفعلت فعل البقية حتى يتخلص الجميع ولا يحصل صاحب الزرع الاّ على الاسف ولذلك كانت كراهة السودان لهذا النوع اشد منها لغيره

ونقل بعضهم عن اهل تلك الجهة ان القرّدة كثيرا ماتخطف بنات صغيرة في نحو تسع سنين من العمر وترفعها الى اعالي الاشجار وتبقيها عندها ويصطاد السودان من القرّدة في كل سنة عدداً

كثيراً وياكلون لحمها ومن طرفهم في اصطيادها من فوق الشجر
ان يחדشوا وجوهها بعصي او رماح طويلة فاذا فعلوا بها ذلك
تركت الاغصان التي هي متعلقة بها ووضعت يديها على محل الجرح
فتسقط على الارض فياخذونها وبالحيلة فاستيفاء الكلام على هذا
الحيوان على مثلي متعسر وتفصيل انواعه وافعاله وطباعه غير
متيسر وما من احد الا رأى كثيراً من افراده ويعلم هيأتها واشكالها
وبعض احوالها وانما اقول لحضرتكم ان الذي رأيته من عاداتها
اللازمة لها ان افراد كل جنس منها تكون مع بعضها ولا تختلط
بغيرها ومنها نوع يعيش في الغابات ولا يفارقها وهذا النوع اسود
الوجه ما عدا الخد فانه ابيض وفي ذقنه شعرات قليلة كاللحية ولون
جسده يضرب الى الزرقة او البياض او يكون منقطعاً بنقط زرق
او ببيض او حمرومنه ما يكون هائل المنظر والسودان ياكلون
لحمه فيجففونه ويدخلونه في طيخ الارز ويزعمون انه من احسن
الاطعمة وانت خير بان مجرد منظره كافٍ في تغير المعدة ومنه
جنس يوجد في بعض اعضائه نوع شبه لاعضاء الآدمي كالوجه
والاذان والذراع وقصبة الرجل والكعب وغير ذلك وكثيرا ما
يرى ماشياً على رجليه الخلفيتين منتصب القامة حاملاً لا تقال
عظيمة ويبلغ طول هذا النوع خمس اقدام وهو عبل الذراعين
ضخم الجثة قوي البنية الا انه قليل الاذى لين الجانب ياخذ بعض

الناس صغيراً فيعوده على بعض الخدمة والعمل فيحمل آنية الماء على راسه متصباً ويدير الرحي ويملاً الأواني من ماء الأبار والعيون والأنهار ويشوي اللحم الى غير ذلك من خدم يعود عليها ويعلمها فيعلم ويعود على ما يراد منه من صغره ولا يؤخذ للتربية إلا في صغره وهو في حال توحشه صعب الانتياد شديد القوة يغالب الرجل فيغلبه ويقلع عينيه ويفعل به افعالاً قبيحة تؤدي الى تلفه وكثيراً ما يقع بين الفرقة محاربات شديدة تؤدي الى قتل بعضها بعضاً



المسامرة الثالثة والسبعون

سنور الزباد

(من حكاية يعقوب)

وهناك من الحيوانات قط الزباد او سنور الزباد وقد يقال له قطة المسك ويوجد كثيراً بين جبل (الاطلس) و (السينجال) وفي ولاية (ناطيا) من ارض الحبش وولاية (كوجا) فوق (سياليونا) وقد اختلف الطبيعيون في صفة هذا الحيوان فزعم بعضهم انه نوع من الضباع وقال انه في شكل الضبع وقال اخرون انه في حجم الكلب وله خرطوم رقيق الطرف وفي عينيه واذنيه ضيق وله شوارب كشوارب القط وله ذيل غليظ يشبه ذيل الثعلب وعلى ارجله شعر طويل اسود وله في كل رجل خمسة اظافر سود مستقيمة حادة وهو من الحيوانات المفترسة وجرحه مضر

فاذا اراد الصيادون صيده حفروا له حفرةً في طريقه فيقع فيها
 فيأخذونه ويضعونه في اقفاص من خشب ونحوه ويطعمونه لحماً نيئاً
 قطعوه له قطعاً صغيرة ومادة الزباد من هذا الحيوان تجتمع تحت
 ذيله في غشاء كالكيس نحو ثلاث اصابع طولاً واصبعين ونصف
 عرضاً وداخله اغشية متعددة ومن داخلها تلك المادة ويوجد هذا
 الكيس في الذكر عند دبره وفي الانثى عند فرجها وفي الغالب
 يصاد هذا الحيوان في صغره فيؤخذ ويربى وتؤخذ منه تلك المادة
 وكيفية اخذها منه انهم بعد ان يصطادوه يضعونه في شي كالقفص
 ثم يأتون اليه كل يومين او ثلاثة فيزعجونه بعصي او نحوها حتى
 ينزوي في ركن من اركان القفص فيقبضون على ذيله ويسحبونه
 من بين عيذان القفص بعنف وشدة فيمسك الحيوان برجليه
 الخلفيتين في القفص بكل قوته فعند ذلك يوضع تحت بطنه شي
 يمنع الحركة وحينئذ يسهل اخذ المادة منه فيأتون بشيء كالملقعة
 فيدخلونها في ذلك الكيس ويأخذون ما تجمع من تلك المادة
 بالانكاء على غشاء الكيس وغاية ما يستخرج من تلك المادة كل
 مرة درهم ونصف او درهمان وهذه المادة تكون في اول امرها بيضاء
 مشوبة ببعض زرقه ثم تشتد بياضاً ورائحتها على البعد الطف
 منها على القرب لانها اذا كانت قريية كانت مصدعة لقوتها ولذلك
 كان تجار الاعطار يخلطون بهذه المادة غيرها فتعتدل رائحتها ومن
 هذا الحيوان في بلاد الفلنك كثير ولهذا السبب كان اكثر ما

يجلب من الزباد الى بلاد الانكليز والفرنسيس وغيرهم وارداً من
 الفلمنك وغالب قوت هذا الحيوان عند من يصطاده البيض
 واللبن ويقولون انه اي هذا القوت يصفي بياض المادة المستخرجة
 منه ولذا كان المجلوب من بلاد الفلمنك اشد بياضاً من المجلوب
 من افريقيا واسيا لان قوته في هاتين الجهتين اللحم خاصة ويوجد
 هذا الحيوان ايضاً بكثرة ببلاد الهند الا ان ما يؤخذ منه لا يساوي
 ما يؤخذ من حيوان جهات الفلمنك لان زياد هذا اعلى وثمنه
 اعلى والمشتغلون بتجارته يرسلونه الى البلاد البعيدة فيربحون فيه
 ارباحاً كثيرة ومن يقتني هذا الحيوان في تلك الجهات ينفق عليه
 نفقات كثيرة وذلك لانهم لا يطعمونه الا اللحم الدجاج والطير
 واوان اصطياده الصيف حين تكون اشجار الغابات كثيرة الاوراق
 ويبلغ ثمن الواحد منه نحو اثني عشر شلينا انكليزية وغذائه في حال
 صغره ثريد يعمل له من لحم طير او سمك مطبوخ مع ذرة ويستحب
 اقتناء الذكور من هذا الحيوان على الاناث لان زياد الذكور
 احسن واجود فانه في الانثى كثيراً ما يصل اليه بولها فيغيره

المسامرة الرابعة والسبعون الوصول الى باريس

قال ناقل الحديث فلما وصل يعقوب الى هذا الموضع من كلامه كانوا قد قربوا من مدينة باريس فقال الانكليزي انه يوجد في ارض افريقية وفي الجهات التي كان بها يعقوب غير ما ذكره حيوانات كثيرة هائلة الخلفة ومؤذية منها الافعى والتمساح وفرس البحر وانواع غيرها من الحيوان قد وصفها السائحون في كتبهم فمنها ما يسكن في البر ومنها ما يسكن في البحر ومنها ما يعيش فيها جميعا وفيها من الاعشاب والنباتات ما ليس في غيرها وكنا نحب ان نسمع منه بقية ما شاهده هناك ورآه وما سمعه من اجتماع عليهم من اهل تلك البلاد ولكن حيث اشرفنا على باريس فنكتفي منه الان بما سمعناه ونستوفي الكلام في وقت آخر

فقال الشيخ لقد قطعنا الطريق بهذه الحادثات اللطيفة بحيث لم نشعر بطول المسافة واستفدنا في ضمنها فوائد كثيرة من معرفة احوال تلك البلاد وما فيها من انواع المخلوقات وغرائب احوالها وبودي لو عرفت ما حصل لاخت يعقوب بعد غيبته عنها وكيف كانت حالتها ومعيشتها بعده

فقال يعقوب ان قصة اختي كقصتي بل اغرب وغصتها بعد فراقها لها كقصتي واصعب وسأشرح لكم ما قاسته بعدي من المشقات والمصائب وانواع المحن والشدائد حتى اضطرها الحال الى قطع النظر عما يستدعيه سنها من اللذات والشهوات الدنيوية فاعرضت عن الدنيا وما فيها ودخلت ديراً من ديور الراهبات وترهبت فيه الى ان ماتت ولم أرها وبينما هم في هذا الحديث واذا بالوابور وصل الى موقف سكة الحديد بباريس فنزلوا به وذهب يعقوب فاحضرهم عربة فركبوا جميعا وساروا الى لوكدنة قد سماها الانكليزي ليعقوب فاخبر بها العرجي فاوصلهم اليها بعد نصف ساعة فكان الشيخ مدة سير العربة ينظر الى ازدحام الناس في الطرقات وكثرة الدكاكين وحركة التجارة وهيئة المنازل وانتظامها ورونتها ونظافة الطرق وبهجتها ويتعجب في نفسه من حسن ذلك كله وكذلك ابنه كان لا يصرف نظره من شباك العربة حيث رأى بشوارع باريس احسن ما رآه سابقا بمدينة مرسليليا فلما وصلوا الى اللوكاندة نزل يعقوب من العربة واخذ بيد الشيخ فنزل وكذلك

نزل الانكليزي وبرهان الدين ودخلوا فقابلهم الخادم وذهب بهم الى حجرات لائقة بامثالهم فلما اطأوا في مجالسهم امر الانكليزي باحضار الطعام فاكلوا وشربوا القهوة وجلسوا برهة لطيفة في محادثات خفيفة وكان ذلك قبيل الظهر فقام كل الى محله المخصص به ليزيل عنه اثر السفر ويخلع ما عليه من الثياب ويلبس ثيابا اخرى وبالجملة قام الشيخ الى حجراته فاستراح وركد برهة ثم قام فتوضأ وصلى وغير ثياب السفر وكذلك فعل ابنه واختار برهان الدين احسن ثيابه وقعد في انتظار يعقوب ليخرج للتفرج في المدينة فلما علم والده منه ذلك قال له يا بني ان خرجت الان بهذه الهيئة حدى الناس اليك بابصارهم واحاط بك كل من مررت به من رجالهم ونسائهم واطفالهم وربما كان ذلك لأدبك مانعا لك عن بلوغ اربك فالاولى ان تصبر حتى نعرف رأي صاحبنا فهذه بلاده وهو ادرى باحوالها ونحن فيها اغراب فقال برهان الدين الراي ما تراه وسكت ثم حضر عندهما يعقوب وهماها بالسلامة وقال لهما ان الانكليزي امره ان ينظر الشيخ هل قام من النوم وهل يشط لملاقاته فيأتي اليه ويسلم عليه ام يؤخر ذلك برهة فشكره الشيخ واثنى على اخلاقه وذكر معروفه وقال له انه يحب ان يراه فليحضر على الرحب والسعة ان احب فرجع يعقوب الى الانكليزي واخبره بما قال له الشيخ فقام الانكليزي وحضر الى الشيخ فتلقاه بالترحاب واخذا يتجاذبان اطراف الحديث من بعيد ومن قريب فقال

الانكليزي ان هذه المدينة من احسن مدن الدنيا واعظمها لحسن نظامها وكثرة ما فيها من المباني اللطيفة والاشياء الظريفة فان استحسن الشيخ جعلنا لنا في كل يوم وقتا للتفرج عليها والوقوف على كل شي على حدته واريد ان احصل رخصة للدخول في المحلات الشهيرة التي لا يباح الدخول فيها الاّ بالاذن فقال الشيخ انت ادري ببلادك وانا على رايك ومرادك فما وافق اتيناه وما لم يوافق ابيناه ولا ترى منا الاّ طاعة الرفيق الموافق للخل الصادق وعندنا من الشوق الى معرفة احوال هذه المدينة العظيمة والوقوف على احوال اهلها وتعرّف ما بها من الآثار الباهرة وروائع الصنائع الزاهرة ما تشد به حاجتنا الى استطلاع ما عندك واتباع رايك والوقوف عند اشارتك لا سيما وقد رأينا من معروفك ومحاسن اخلاقك واستفدنا من فوائدك ما تقدر قدره ولا ننسى اثره ولا نهمل ذكره ونسال الله ان يتولى هدايتنا جميعا الى طرق الرشاد ويكافئك على حسن هذا الصنيع فهو القادر على ما اراد

فقال الانكليزي اني ارى من الواجب عليّ وجوب الفروض اللازمة ان ابذل اقصى جهدي و غاية ما عندي في استجلاب رضاكم وادخال السرور عليكم حيث كنت السبب في تغربكم الى هذه البلاد ومفارقة الاهل والوطن والاولاد وتحمل متاعب السفر فلا هم لي سوى الاشتغال بما يخفف عليكم مشقة الغربة وصعوبة الفراق بالاطلاع على ما تحبون الاطلاع عليه من احوال هذه البلاد

وتحصيل ما يتعلق به اغراضكم ومقاصدكم وما يكون فيه سروركم
وتشرح به صدوركم فارجوك الا تتحاشى من طلب شي تريده
فذلك غاية مرادي وبغية فوادي وحيث كانت هذه بلادنا وانت
فيها غريب فان رأيت فيها شيئاً تحبون الوقوف على حقيقته فاسئلوا
عنه فان كان عندي فيه علم ابديته لحضرتكم والا سألت عنه من
يعرفه واخبرتكم به ونحن نحتاج الى الاقامة في هذه الحاضرة مدة
من الزمان لقضاء بعض اغراض تلزمني فنصرف اوقات الفراغ من
هذه المدة في التفسح في ميادين المدينة ومنزهاتها والتفرج على مبانيها
وعماراتها الشهيرة والمسامرة في احوالها وتواريخها وحوادثها القديمة
والحديثة

فقال الشيخ لا عدمت معروفك وغاية مرادي ان اقضي هذه
المدة في استفادة ما عساه يكون فيه منفعة اوطاننا وفي نيتي ان
اكتب مجموعاً اضمنه كل ما اراه واستحسنه في هذه السياحة في
كتاب ليكون تذكرة لي اذا عدت الى سكني وطرفة مجلوبة الى
اهل وطني

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرتكم ما حصل من اهل
مرسيليا حين كنا بها من تجمعهم عليكم واحاطتهم بكم حين رأوكم في
الهيئة المصرية فان كنتم تنصرون من ذلك فلا بأس بالنزلي
نزي هذه البلاد مدة الاقامة بها لتشبهوا باهلها وتخلطوا بهم
فقال الشيخ لا ضرر علي من تجمعهم بل ربما كان فيه فائدة

زائدة وذلك لاني اتمكن حينئذ من رؤيتهم والتأمل في ذاتهم
وهياتهم والوقوف على احوالهم وعاداتهم على ان بقائي بهذه الهيئة ربما
كان سبباً في الرعاية والتوفير اذ من العادة التجارية كثرة احترام
الغريب وتوفيره والتجاوز عما عساه يحصل من تقصيره فالأوفق بنا
البقاء على ما نحن فيه لاسيما ونحن اذا غيرنا هذه الملابس التي
اعندنا عليها من صغرنا ولم نعرف غيرها في عمرنا احتجنا الى مدة
من الزمن للتعود على تلك الهيئة الجديدة واتقانها

قال الانكليزي ذلك اليك ونعم ما رأيت وما عرضت
عليك هذا الامر الا لاني خطريالي ان ذلك ربما يكون من
اغراضك فاسعى في تحصيله واذ لم ترد ذلك لنفسك فهل تأذن
فيه لبرهان الدين

قال الشيخ امر برهان الدين اليه ففسأله عما يريد لنفسه وان
كان بقاءه على هيئته الاصلية احب اليّ فاني كلما رأيته تذكرت
الوطن واهله وصرت كاني لم افارق وطني

فقال برهان انا ايضا احب ان ابقى على هذه الهيئة ولا ضرورة
لتغيرها اذ لسنا على نية التوطن بهذه البلاد ودوام الاقامة بها
وانما نقيم فيها مدة يسيرة لاحتجوج الى ذلك ولو غيرنا ملابس بلادنا
في هذه المحاضرة للتخلص من تزاحم الناس علينا لزمنا لهذا الغرض
ان نغيرها في كل جهة انتقلنا اليها فان الملابس والهيئات تختلف
باختلاف الجهات

فقال الانكليزي الامر اليكم واخبركم اني قد اكرتت عربية وجعلتها تحت امركم وخاصة بكم فتى اردتم الخروج الى شوارع البلد او ظاهرها فمروا يعقوب ان يحضرها لكم فان لم اكن معكم لبعض موانع قد تعوقني عن الانتظام في سلك صحبتكم في بعض الاحيان فهو يلزامكم ويقوم بكل ما يلزم لكم ثم استأذن وانصرف الى حجرته وكذلك انصرف يعقوب الى محله وبقي الشيخ وابنه وكان الشيخ قد اعتراه بعض تعب من ارتجاج العربية وطول القعود بها فاحب ان يريح بدنه فقال لولده اذا جاء الانكليزي وسأل عني فاخبره انني لا رغبة لي في الخروج في هذه الليلة ثم تحول الى فراشه لينام فقام ولده واغلق عليه الباب وذهب الى حجرته الخاصة به فلم يجد له صبراً على المكث بها وحده خصوصاً وقد كان مغرمًا بسماع بقية حكاية يعقوب وبالتفرج على شوارع المدينة وما فيها فخرج من حجرته وذهب الى محل يعقوب وقال له ان الوالد كان وعد بالخروج في هذه الليلة ثم اثر الاستراحة بسبب ما وجد في نفسه من مشقة السفر فهل ترى ان نخرج وحدنا او نقيم الليلة فقال يعقوب لا ينبغي ان نخرج الا باذن فالصواب ان نصبر الى اخر النهار ثم نستأذن بعد الطعام وتوجه اما الى التياتر واما الى البالو

فقال برهان الدين اما التياتر فقد رأيته وعرفته حين كنا بمرسيليا واما البالو فلا اعرفه فما هو

فقال يعقوب البالو محل يجتمع فيه كثير من الرجال والنساء

يلبسون فيه احسن ملابسهم ويرقصون مع بعضهم على نغم الآلات الموسيقية فقال برهان الدين لا بأس برؤية هذا المحل ولكن احب في هذه الليلة الاقتصار على المرور في البلد ورؤية شوارعها ومبانيها وفيما بعد اذا وجدنا فرصة حملنا الحواجا على الذهاب اليه وتوجهنا معه فاتفقا على ذلك وانتظرا تحصيل الرخصة وانتهاز الفرصة ثم ان برهان الدين قام من عند يعقوب ورجع الى مخدعه واخذ كراسه وصار يكتب ما علق بذهنه مما حكاه يعقوب في اثناء الطريق وضم الى ذلك ما حضره مما كان يشاهده بنفسه عند المرور ببعض الجهات واستمر على ذلك الى قبيل الغروب ثم قام وتوجه الى محل والده فوجده قائما يصلي فصلى خلفه فلما تمت الصلاة وما يتبعها حكي له ما اتفق عليه مع يعقوب وطلب الاذن فأذن له واوصاه ان يعود عاجلا ليرجى بدنه كذلك من تعب السفر وقال له الايام بيننا وما لم نره في هذه الليلة سنراه فيما بعدها فقابل قول والده بالسمع والطاعة وعزم على الرجوع سريعا بقدر الاستطاعة وحضر الطعام فاكلوا وبعد ذلك خرج مع يعقوب الى شوارع البلد ونواحيها



المسامرة الخامسة والسبعون

لمحة

في باريس

فمجب من حسن نظامها وكثرة العالم بها وسعة شوارعها وتنظيمها وحركة التجارة بها ومن زخرفة محلات التجار ونظافتها وحسن بهجتها وكان يتقل من مكان الى مكان ومن دكان الى دكان ويقف عند بعض المحلات فيسرح فيها طرفه وينظر لما فيها من انواع البضائع النفيسة ويشرح له يعقوب كل ما سأل عنه من هذه البضائع ويذكر له اسمه ونوعه وجنسه والجهة التي يجلب منها وكانا كلما وقفا على دكان او خان احناط بهما كثير من الناس من نساء ورجال ينظرون لهيئة برهان الدين وملبسه وكان هو ايضا ينظر اليهم وإلى هيئاتهم وملابسهم ويقارن ما رآه هناك بما

كان يراه وهو بمصر فلم يجد بينهما نسبة وما زالا يتقلان من دكان الى دكان ومن خان الى خان الى ان مضى عليهما من غروب الشمس نحو اربع ساعات ومع ذلك كان يرى العربات متوالية مع السرعة والكثرة بحيث كانا اذا ارادا الانتقال من محل الى غيره مكننا زماناً طويلاً ينتظران فرجة يمرون منها ورأى ضوء المصابيح الغازية المنتشرة في الطرقات قائماً مقام نور القمر او ضوء الشمس بحيث يمكن فيه قراءة الخط الدقيق وقد الدراهم بغير عسر ولا صعوبة وكذلك رأى ضوء المصابيح الغازية في الازقة والحارات يزداد بما يصل اليها من ضوء مصابيح الدكاكين وغيرها لانه ما من دكان او محل قهوة او خان الا كان امامه عدة من المصابيح نحو الخمسة او الستة او اكثر فكانت اشعتها تنبعث امامها وتزيد البضائع الموضوعة خلف الزجاج حسناً ورونقاً وكذلك كانت اشعتها تنعكس في المرايا المركوزة في الطرق كما ان هذه المرايا كان ينعكس فيها ايضاً صور كل ما قابلها او مر امامها من الناس والعربات وغيرها فيرى فيها الرائي صوراً مختلفة واشكالاً متنوعة ففى على برهان الدين الزمن من غير ان يشعر وذلك لاشتغال حواسه بما كان يراه من الاشكال المتنوعة والصور المتجددة واستغراق خاطره في التأمل والاستغراب والاستحسان لما يراه من حسن اللونق وانتظام المنظر بحيث يتخيل الرائي ان المدينة في زينة مرتبة الخصوص لامر عظيم او موسم حاضرو كان كلما قطع مسافة رأى

فما بعدها شيئاً لم يكن رآه وكان يتأمل في الدكاكين وحواصل
التجار ويعجب من حسن انتظامها وسعتها فيجد النسبة بينها وبين
ما كان يراه في القاهرة منقطعة والمقارنة ممتعة لانه رأى الدكان
في باريس عبارة عن محل عظيم يشتمل على عدة محال بعضها من
داخل البعض منها ما هو مفروش بالرخام ومنها ما هو مفروش
بالسبط النفيسة ومنها ما بعضه من هذا وبعضه من هذا وابوابها
محكمة التركيب مليحة الوضع مصنوعة من الخشب الثمين كخشب
الجوز والبلوط والفرعاج ونحو ذلك مدهونة بالوان تسر الناظرين
وتجذب قلوب المارين مقسمة بالواح الزجاج او البلور حتى لا
يجب شي ما بداخلها عن بصر كل من يمر بها والبضائع فيها مرتبة
حسن ترتيب مصفوفة على الرفوف مع كمال الانتساق وحسن
الوضع بحيث تستدعي لشرائها كل من يمر بazarها وفي كل دكان
نساء حسان الوجوه متجهلات باحسن الملابس والطف الهيئات
مستعدات لعرض ما يلزم عرضه او بيع ما يلزم بيعه فترى الشارع
لا يضطر للوقوف في الطريق امام الدكان وإطالة الكلام بغية
ظائل بل يدخل ويطلب ما اراد من البضاعة مع اللطف
والادب وعدم رفع الصوت فاذا وقع الاتفاق على الثمن آداه واخذ
ما اشتراه في ورقة او ربطة لطيفة نلفه فيها احدى النساء اللائ
في الدكان فان بداله عدم اخذه معه واراد ارساله الى منزله فليس
عليه الا ان يعرف البائع غرة الدار وغرة المحل الذي هو مقيم .

ثم يذهب الى سبيله ويصل ما اشتراه الى محله وفي هذه الحالة لا مانع من دفع الثمن في الحال او ابقائه الى ان يرسله صحبة من يذهب بالبضاعة لان ذلك امر جارٍ بينهم ومعتاد لهم وما زال برهان يسير مع يعقوب ويتفرج وهو مبتهج بما يراه مشغول الخاطر بالتأمل فيه ويعقوب يشرح له ويوضح الى ان وصلا الى باب كبير فرأى امامه مصابيح كثيرة منورة بالغاز ومن داخل الباب زقاق مستطيل اسفله مفروش بالرخام واعلاه مستور بالزجاج وفي جانبيه دواليب مدهونة باحسن الالوان فيها نقوش لطيفة وصور ظريفة ورأى في كل جانب خلقاً كثيراً من رجال ونساء كلهم مشغولون بترتيب بضائع متنوعة يضعونها في صناديق وعلب كثيرة وكان المحل يضيء بمصابيح الغاز المنتشرة في جميع ارجائه فمالت نفس ابن الشيخ الى دخوله فدخله هو ويعقوب فوجداه ابهج من جميع ما رآه والطف وفي داخله طرق نافذة بعضها الى بعض فسلكا في في احداها فوجد كل منهما صورته منطبعة امامه في مرآة مستوعبة لجميع عرض الحائط وارتفاعه حتى يظن السالك انها نافذة وان هذه الصور اشخاص تسير الى جهته فرجعا واخذوا في مسلك اخر ومنه الى غيره وكان في كل جهة دخلاها من هذا المحل جملة من الناس يشتغلون بتصنيف البضائع وتنظيمها ووضعها في الصناديق والعلب وكان كل من هؤلاء الناس ينظر اليها مع السكون والوقار من غير ان يفارق محله او يترك شغله ولم يريا هناك بيعاً

ولا شراء ولا اخذا ولا اعطاء فتعجبا من عظم هذا المحل وسعته وحسن زخرفته وارادا الرجوع من حيث دخلا فاخطأ الطريق وصارا يترددان من جهة الى جهة ومن طريق الى طريق ولا يعارضهما احد الى ان ظهر عليهما انها اخطأا الطريق فتقدم اليهما فتى قصير القامة فحياهما باحسن تحية وكلمها باللغة العربية وسألها عما يريدان فقال له يعقوب ليس لنا غرض سوى التفرج وقد ضللنا الطريق ولا ندرى كيف نخرج وقد تحيرت افكارنا لما شاهدناه في هذا المكان من كثرة اصناف التجارة فانما ما سلكناه في جهة من جهاته الاّ وجدنا فيها جماعة يشتغلون بترتيب اشياء من اصناف التجارة غير ما كنا رايناه من قبل فاي محل تجارة هذا

فقال الرجل هذا المحل قد بني في عهد قريب وهو خاص باثنين اخوين بني من مالهما فلما اكتملا بناءه سمياه باسم مدينة باريس وجميع ما فيه من البضائع انما هو من مالهما خاصة لا يشاركها فيه احد من الناس وفيه من جميع اصناف التجارة جليلها وحثيرها فلا يكاد يسأل الطالب عن شيء الاّ وجده فيه فمن ذلك الكشميري الثمين من شغل الهند واقمشة الحرير من عمل اهل الصين والهند والفرنسيس وغيرهم واقمشة الكتان والقطن على تعدد اشكالها وانواعها والبسط العجمية على تنوع اوضاعها وانية الفضة والذهب وحلي الجواهر الى غير ذلك وهذه الانواع منها ما يباع على تجار البلد للبيع في داخل المدينة ومنها ما يرسل الى بلاد المشرق وبلاد

المغرب والترك واسيا الصغرى والكبرى وبلاد الغرب والافطار
الحجازية وبلاد الانكليز وغيرها فما من جهة من هذه الجهات الا
ويرد لها من هذه الاصناف وكذلك هذه الجهات ترسل كثيرا من
مصنوعاتها واصناف تجارتها الى هذا المحل وجميع من تراه هنا من
رجال ونساء انما هم خدام بمراتب شهرية تصرف لهم من لدن
هذين الاخوين وعددهم مائة وخمسة وعشرون شخصا وانا من
جملتهم وقد راى احد الاخوين فارسني اليكما لالازمكما واكون في
خدمتكما حتى تقضيا غرضكما وها هو قريب منا فان اردتما ان تجبعا
عليه ذهبت بكما اليه فعجب برهان الدين من مقاله واثني عليه
وعلى صاحبه الذي ارسله واظهر علائم الشكر والابتهاج بصنيعه ثم
مشيا مع الفتى الى صاحب المحل فقام لها واكرمها واجلسها عنده
فشكرها واثنيا عليه وامر بالتهوة فشربوا ثم قال لها لولا ضيق الوقت
اقتمت معكما وطفيت بكما على جميع مخازن الخان واريتكما ما فيها وقد
حضر وقت انصرافنا واغلاق المحل ولكن لا مانع الآن من ان
نريكما ما فيه من صنف الكشميري على حسب الامكان واذا
حضرتما في غد اريتكما باقي مخازنه وما فيها فاعاداه الشكر والثناء
فقام معهما وتوجه بهما الى محل عالي البنيان متظم الشكل مزخرف
الاركان في سقفه صور متنوعة ورسوم مختلفة وفي مداره من اعلاه
الى اسفله دواليب متقنة الصنعة كلها من خشب الجوز وارضه
مفروشة بالبسط النفيسة وفي وسطه مائدة (طرايزه) كبيرة

مستديرة معلق فوقها نجفة من البلور الصافي النفيس موقدة بالشمع
الابيض النقي الطيب الرائحة ثم طاف بهما الرجل على جميع ارجاء
الحل وصار يفتح الادراج ويريهما ما فيها من قماش الكشمير
الخفيف الوزن الغالي الثمن فرايا كل واحد منها موضوعا على
حدثه في ظرف محكم لحفظه ولكل نوع منها دواليب خاصة به على
حسب قيمته وجهة وروده وقد رأيا منها ما ثمنه قدر مائتي كيس
فاكثر فاستغرب بن الشيخ من هذا الثمن وقال في نفسه اذا كان
ثن الواحد من هذا النوع هكذا فما يكون ثمن الجميع ثم ماذا يكون
ثن البضائع الموجودة في هذا المكان وبعد ذلك فما يكون قيمة
البضائع الموجودة في غيره من محلات هذه المدينة ثم ماذا يكون
قدر اموال اهلهما وما صرفوه في زخرفتها وبنائها ثم بعد ان اطلعتهما
الرجل على جملة كثيرة من ذلك اعذر لهما بضيق الوقت ووعدهما
بان يطلعهما على سائر ما في الحل ان حضرا بعد ذلك في سعة
من الوقت فاستأذناه للانصراف فشيعهما خطوات وضم اليه من
مشى معهما الى باب الحل حيث دخلا فخرجوا وركبا العربية ورجعا
وكان قد مضى نصف الليل فوجد برهان الدين والده قد اغلق
عليه باب مخدعه ونام فدخل هو كذلك حجرتة ونام فيها الى
الصباح فقام وادى ما وجب عليه ثم ذهب الى والده ليقبل يده
فما استقر به المقام حتى اتى يعقوب وحضر الطعام فاكلوا ما تيسر
وجلسوا يتحدثون وحكى برهان الدين لايه ما رآه في هذه المدينة

من فرط الانتظام والزينة وما يلوح عليها من علائم الفخار ومزيد
الثروة واليسار وما حمله على العجب والاستغراب مما لم يكن له قبل
في حساب فسر الشيخ بمقاتته ورغب في ان يعلم طرفا من اخبار
هذه المدينة وكيف كانت حالتها وتقلباتها في الازمان الماضية وما
الاسباب التي اوصلتها الى هذه الدرجة من العز والرفعة والغنى
والثروة

فقال يعقوب ان معلوماتي في هذا الامر قاصرة والاولى ان
يؤخذ علم ذلك من الخواجا لاتساع دائرة معلوماته وكثرة اطلاعه
على كتب التواريخ والسير

فقال ابن الشيخ قد توجهت الى محله لاسلم عليه فوجدته
مشغولاً بشخص عنده فلما اردت الانصراف من عنده قال لي بلغ
حضرة الاستاذ الوالد بان عندي شغلا ربما امتد الى وقت الزوال
فاقرأ عليه السلام مني واعذر له عني

فقال الشيخ عذره مقبول فان كان قد بقي عند يعقوب شي
من خبره وما حصل له بعد فراقه لآخذه فليحدثنا به لتقطع الزمن
الى ان يقضي صاحبنا شغله وينتهي عذره ويأتي فنخرج جميعاً وتفرج
في شوارع المدينة

المسامرة السادسة والسبعون

المحبوان العجيب

(من حكاية يعقوب)

فقال يعقوب قد اخبرت حضرتكم اني لشدة شوقي الى اختي
وما حصل لي من المشاق في البلاد التي وقعت بها كنت دائماً
اترقب فرصة الخروج من تلك الارض واخاف ان يطرأ حادث
يعوقني عن رجوعي الى وطني الى ان نزلنا في السفينة وخرجنا وقد
تألفت برجالها والفوني وكنت اساعدهم في اشغالهم بما عندي من
المعرفة في صناعتهم فحصل لي منهم غاية الاكرام وكنت اخبرتهم
بقصتي وما جرى لي ايام كنت صغيراً الى ان صرت في يد هؤلاء
القوم اسيراً فعطفت قلوبهم عليّ وغمروني باحسنهم فكنت بينهم
كواحد منهم كذلك مالت اليّ قلوب ضباط السفينة لما سمعوا

بما جرى لي لاني كنت تارة اقص ذلك على بعض الضباط وتارة
 على الاحاد فلانت لي قلوب الجميع وساعدوني باموالهم من غير ان
 يلزموني بشي من اعمالهم حتى ان القبطان الكبير لما علم بقصتي كتب
 ورقة وصدرها باسمه ومن بعده جميع من كان بالسفينة من الضباط
 وغيرهم ثم وضع امام اسمه ثلاثة جنهات وكذلك جميع الضباط
 والاحاد كل على حسبه فاجتمع لي من ذلك خمسة وثمانون جنياً
 انكليزياً وبعض ثياب فلما رأى ذلك السائح الذي كنت بصحبته
 هذه الورقة وما فيها اخذها واكملها من عنده مائة ووعدي انه
 عند وصولنا يوصلني الى بلدي على نفقته وان يكتب الى احد
 روساء بلدي بالوصية عليّ لينظر لي طريقة اتعيش منها انا واختي
 فشكرت الجميع على صنيعهم واقت مكرماً بينهم لا اجبر على عمل
 ولا ازعج من محل الى محل ولكن كنت في بعض الاوقات اذا رأيتهم
 في ازدحام اقوم من نفسي واساعدهم ثم لجنهم فيحكي كل منا ما عنده
 من غرائب الاخبار فبقينا كذلك ثلاثة ايام وكان الهواء فيها مساعداً
 لنا وكان سير المركب مع سرعتها في غاية الانتظام الى ظهر اليوم
 الرابع فما نشعر الا واحد الملاحين قد اتى الى القبطان وكان
 جالساً في ممرته واخبره ان احد روساء المركب رأى شيئاً على وجه
 الماء من بعد فقام بسرعة واخذ نظارته لينظر بنفسه ومنا نحن جميعاً
 ننظر الى ذلك الشي فرأيناه يلوح من بُعد ولكننا اختلفنا في تعيينه
 فمننا من كان يقول انه زورق ومننا من كان يقول انه رمة حيوان

ومنا من كان يزعم انه حشيش جمعه الموج والقبطان ناظر اليه
بنظارته لا يتكلم بشي وبعد ذلك التفت الينا وقال انه حيوان
بحري له ارجل يحركها ولكن لم اتحقق ما هو وكان ذلك السائح
الذي كنت بصحبته قد بلغه الخبر فحضر ونظر بظارته مثل ما نظرنا
ثم قال ان الشي الذي ترونه حيوان عجيب الشكل مهول الخلقة
وقد بالغ في وصفه جميع الملاحين والمؤرخين والسياحين ولغرابته
وعجيب خلقة كان بعض اهل التاريخ الطبيعي ينكره ويقول ان
جميع ما قيل فيه اوهام لا اصل لها فلما سمع القبطان منه ذلك قال
لعله ذو الثانية الارجل الذي تخافه الملاحون فقال نعم هو ذاك
وعند ذلك امر القبطان رجاله بتوجيه السفينة نحوه وحضهم على
الاستعداد له بالسلاح والمزاريق والكلاليب والاهواق (الخيَّات)
فاعد كل منهم ما عنده من هذه العدة فما استعدوا الا وقد خرج
الريج واختلف وتموج البحر وعلا موجه ومع ذلك لم نزل نرى
ذلك الحيوان يسبح على وجه الماء وكأنه يريد الفرار منا لاننا كلما
قربنا منه نراه قد بعد عنا ولكن مع البطئ والتأني فلما تمكنوا منه
ضربوه بالبارود فاصابه نحو عشرين رصاصة فلم يظهر فيه اثر ولم
يتحول من مكانه وكانها لم تصبه ثم رموا عليه الكلاليب والاهواق
فتعلق بعضها بجسمه فارادوا ان يزيديا في عددها ليمكنوا من
ضبطه فتعلبت السفينة من شدة الموج فانفلت وغاص في جوف
البحر ولم يظفروا منه الا قطعة من ذنبه بقيت في وهق (خية)

من الاوهاق التي القوها عليه فعزم الملاحون على القاء الزوارق في البحر ليحيطوا به ويصطادوه فنهاهم القبطان عن ذلك خوفاً عليهم وهذا الحيوان على حسب ما شاهدته يبلغ طول جسمه قريباً من ستة امتار وكذلك كل رجل من ارجله الثان ولونه احمر كلون الآجرو جثته منتفخة من جهة وسطه وله عينان كالطبق مستويتان لا يظهر فيهما تحديب ولا حركة ويظهر لهما لمعان يرى من بعيد وكان في اثناء اشتغالهم بصيده يقذف من جوفه دماً ورغوة ومواد تشم منها رائحة مسكية وبعد ان انفلت منهم صار يغطس بجانب السفينة من جهة ويظهر من جهة غيرها فيحصل للسفينة تموج اشبه بما يحصل من اشتداد الريح ولم ينقطع ذلك الا بعد ان بعدت عنه السفينة بقدر ميل في البحر وقد وزنوا القطعة التي وصلت اليهم من ذنبه فكانت اربع عشرة اقة فاعبروا بنسبتها جميع هذا الحيوان فقدره بنحو ستين قنطاراً وقد وصفه السائح الذي كنت بصحبته فقال انه حيوان كالقربة المملوءة ويتشكل في صور متعددة فتارة يكون في هيئة البيضة وتارة يكون كروي الشكل وتارة يكون مستطيلاً وله راس غليظ وعيناه متسعتان في استواء يرى في اعلى راسه شي صلب محجوف كالقرن هو فمه وله على سطح لسانه شبه الشوك وفكاه راسيان وله ارجل ثمان او عشر اصولها منضمة الى بعضها حول فمه في هيئة الناج وفي ظاهر كل منها صفتان من الصمامات متوازيان كل صمامة كالنفجان اسفلها يتحرك باختيار

الحيوان فاذا اراد ان يقبض على شي الصق رجله او بعضها به فلا يتخلص منه وذلك لان تلك الصمامات اذا باشرت شيئاً من حيوان او غيره كان الغشا الذي في اسفلها اولاً قريباً من الحرف الاعلى ثم يسقط الى اسفل فيتكون من ذلك فراغ خال من الهواء كما يحصل في قرن الحجامة فتعلق بذلك الشي وتلصق به وتمسكه فاذا كان عدد الصمامات الماسية للشي كثيرة كانت قوة الالتصاق والتعلق به وامساكه عظيمة بحيث لا يتأتى فصل ذلك الشي عنها وبهذه الكيفية يحصل على غذائه من الحيوانات البحرية فيأخذها برجليه ويوصلها للقرن الذي في اعلى راسه وهو فمه كما ذكر فيقطعها به ثم ياكلها وكأن هذه الارجل لم تكن الا آلة للتخويف وللقبض بها واما كيفية تنفسه وحصوله على الهواء اللازم له فهو ان يدخل قدراً من الماء في خياشيمه فتنبض الخياشيم فيدخل الماء في مجرى موجود في راس الحيوان بين العينين وبعد ذلك تعود الخياشيم الى ما كانت عليه فيخرج الماء ثم يأخذ قدراً جديداً من الماء ويفعل به كذلك وهكذا وبهذه الكيفية يحصل له استنشاق الهواء وهذا الماء الخارج يسقط بقوة فيدفع الماء الراكد حوله فيندفع الحيوان الى جهة امامه وهي الجهة المقابلة لاتجاه الماء المقذوف فيسهل عليه بهذه الطريقة قطع المسافات البعيدة ولذلك لما رأى المتقدمون شكل هذا الحيوان وعلموا سبب اندفاعه الى جهة الامام ارادوا محاكاة ذلك في سير السفن فعملوا في بعض السفن مجاري محجوفة متسعة

يمجى فيها الماء فيألفها وسلطوا عليها طلبة تجذب هذا الماء وتقفه الى خلف فتندفع السفينة الى الامام الا انهم لما رأوا كثرة المصاريف في ذلك تركوا هذه الطريقة وهجروها وما يشاهد من هذا النوع بسواحل اوروبا وان تعددت اشكاله ليس شيئاً بالنسبة لما يشاهد في البحور العميقة على ما نقله السائحون والملاحون وقد ذكر هذا الحيوان بعض الاقدمين (كارسطو وبلين) وغيرها ووصفه بصفات هائلة كان المتأخرون ينكرونها الى ان عثر به الملاحون في زمنا هذا فاصطادوه ونقلوه من جهة الى جهة فصار امراً مشهوراً معدوداً من انواع المخلوقات بعد ان كان يعد الكلام فيه من الخرافات وحكى (تريبوس) في بعض كتبه ان حيواناً من هذا الجنس كان يخرج من البحر في جزيرة (كارثافيا) جميع ما اصطاده الصيادون في يومهم فانهم كانوا يضعون كل ما اصطادوه في مناسر جهة البحر فيخرج هذا الحيوان كل ليلة فيأكله ويعود الى البحر وهكذا كان دأبه معهم كل ليلة حتى احرمهم ثمره تعبهم فلما اشتد ضررهم منه نصبوا حول هذه المناسر خشباً احاطوها بها فلم تغد شيئاً لانه كان يصعد على شجرة قريبة من المناسر ثم ينزل بها فاقام ذلك الحيوان معهم على ذلك الامر مدة الى ان اطلعت عليه الكلاب ليلة فهجمت عليه ومنعته من العود الى البحر وجاء الحرس فضربوه وصار هو يدافع عن نفسه ويضرب بارجله فما زالوا به الى ان مات ففاح منه رائحة كريهة فعيبوا من خلقته وغريب صفته لانهم كانوا لم يروه

قبل ذلك ثم انهم بعد قتله حزوا رأسه فكانت في حجم البرميل الكبير وقاسوا رجليه فوجدوا طول كل رجل ثلاثين قدماً وغلظها بقدر ما ميلاً حضن الرجل ووزنوا ما بقي من جثته فكان سبع مائة افة وهذا النوع قد يعثره في البحار الكثيرة الصخور والاحجار ما يعوقه عن الحركة ويسوقه الى التهلكة وذلك ان تدخل رجل من ارجله بين الصخور فتعلق بها ولا يمكنه ان يستخلصها وكلما حاول تخليص رجل علقته غيرها فيقف عن السير ويبقى على هذه الحالة الى ان يموت ويتنن وعند ذلك تفوح له روائح كريهة يشمها اهل تلك الجهة من عدة فراسخ فاذا شموها خافوا على انفسهم من الوباء لشدة نتن تلك الرائحة ولكنها لا تطول مدتها فان الامواج تقطع الحيوان وتنذف بقطعه الى جهات بعيدة حتى لا يبقى لرائحته اثر وهذا النوع وان كان يوجد في كثير من الجهات الا ان اكثر وجوده بالارض الجديدة وهناك يصطادون منه كل سنة شيئاً كثيراً يدخلونه في ماكلهم واهل الجهات الشمالية جميعاً يقولون ان الصيادين عندهم اذا خرجوا للصيد في ايام الحر وبعدوا عن شاطئ البحر بعض اميال يرون في بعض الاحيان نقصان عمق الماء من تحت زوارقهم بغتة حتى ينزل الى نحو ثلاثين باعاً بعد ان كان ثمانين فاكثر فيستدلون بذلك على وجود هذا الحيوان ويحققون انه بين الزورق وبين قاع البحر ويكون ذلك علامة عندهم على وجود كثير من السمك في ذلك المحل فعند ذلك

يلتقون سنائيرهم وآلة صيدهم ويغتمون منه مغنماً عظيماً فاذا اخذ
الارتفاع في النقص علموا ان هذا الحيوان يريد ان يظهر على وجه
الماء لاجل ان يستنشق الهواء فيأخذون في الفرار منه بغاية السرعة
فاذا بعدوا عنه ونظروا رأوه قد ظهر على سطح الماء وغطى مقداراً
من البحر يقرب من ميل ونصف ميل ويرون كثيراً من السمك
يتواثب على ظهر الماء وهو في هياج عظيم واضطراب كثير ويرون
ارجله قائمة مثل اعواد الشراعات وهو في غاية الصلابة والقوة حتى
انه يقدر ان يخضع السفينة بين رجلين من ارجله ويقلبها في قاع
البحر فاذا اراد ان ينزل كان للبحر عند نزوله دوامات وامواج
عظيمة حتى انها لو صادفت سفينة لاغرقتها وقد ذكروا في هذا
الحيوان كثيراً من الغرائب والعجائب وان كان اكثرها لا يخلو
عن بعض الغلو حتى قال بعضهم ان الواحد منه قد يكبر حتى
يكون كالجزيرة

فقال القبطان قد حكى لي قبطان امريكاني حكاية غريبة
تعلق بهذا الحيوان فقال كنت ذات يوم في بعض سياحاتي في
جهات الهند قريباً من سواحل افريقيا عند جزيرة (سنت هيلينة)
فسكن الهواء سكواً تاماً فلم يمكن المسير فاقمنا هناك ثلاثة ايام ننتظر
هبوب الريح وكان قد مضى على المركب مدة ونحن في غفلة عن
تنظيفها فلما طالت اقامتنا في ذلك المكان نصبنا السقايل على
جوانبها ونزل العمال عليها لاجل تنظيفها واذا بصياح من ناحية

من نواحي المركب فذهبت لاعلم الخبر فوجدت هذا الحيوان قد
 اخنطف رجلين من فوق السقالة باحدى ارجله وانزلها الى قاع
 البحر ومد الاخرى لياخذ بها ثالثاً كان قد صعد الى الشراعات
 فاصابته رجل الحيوان عند وصوله الى اول القماش ولكنها تكلبت
 في حبال الشراعات فلم يتأت للحيوان تخليصها وبقي الرجل معلّقاً
 بها وهو يصيح ويستغيث من شدة الالم فقام من في السفينة الى
 السلاح والسنانير والفؤس والحبال وآلات الصيد وبادر بعضهم
 الى قطع رجل الحيوان المتعلقة بالرجل فسقطت ووقع الرجل
 مغشياً عليه فلم يمكث الا قليلاً ومات ثم حمل باقي الجماعة على
 الحيوان بالسلاح والمحارب والسنار فاصابه كثير منها وكانوا كلما
 رأوه ينزل الى قاع البحر يطاولون له الحبال ثم يجذبونه الى اعلى
 واستمروا على ذلك مدة ثم هبط الحيوان دفعة واحدة فانفلت من
 ايديهم وانقطع منه قطعة عظيمة بقيت في الحبال وقد قاسوا ما
 قطع من رجله فبلغ طوله خمساً وعشرين قدماً في غلط نصف متر
 ونسب ما بقي من رجله الى ما قطع فقدرت على هذه النسبة رجله
 باربعين قدماً تقريباً في غلط متر عند راسها

قال يعقوب فاعتزاني ما شاهدته وسمعت به ما لا مزيد عليه
 من الفلق وبقيت طول النهار في وجل فكنت كلما رأيت موجة
 على بعد ظننتها حيواناً من هذا النوع وانه يجري خلفنا ليدركنا
 فاشتد خوفاً وفزعياً وكان الملاحون يضحكون مني ويسخرون بي

لكثرة اعنيادهم على احوال البحر وعجائبه وقلة معرفتي بذلك فكنت
 اتخيل انه ليس في المخلوقات اعجب من هذا الحيوان وصورته
 وكانت صورته مرسومة دائماً في مخيلتي لا تفارقني في ليل ولا نهار
 وربما كنت اراه في النوم فاقوم من نومي فزعماً مرعوباً فلما رأى ذلك
 السائح ما بي من الكآبة رثى لي واخذنه الشفقة بحالي واخذني
 بجانبه وصار يسليني ويذكر لي نوادر وحكايات لبزبل بها ما في
 وهي الى ان قال لي الا تعلم ان عجائب البحر اعظم من عجائب البر
 واكثر وما نظرت له او سمعت به ليس شيئاً بالنسبة لما لم تره ولم
 تسمع به



المسامرة السابعة والسبعون

حياة البحر والهائشة

(من حكاية يعقوب)

ومن اعجب حيوان البحر وحيتانه (البال) المعروف بالهائشة
واعجب منه حية البحر وكل ما في البر والبحر من حيوان ليس
باعجب من نوع الانسان حيث كان بتدييره وقوة عقله لا يغلبه
شي من ذلك كله مع صغر جثته وضعف بنينه فتراه يجنال على
اعظم حيوان حتى يقع في قبضته ويدخل تحت تصرفه فيفعل فيه
ما شاء متى شاء فقلت له ما هذا الهائشة وما حية البحر فقال اما
حية البحر فقد كثر كلام الناس فيها قديما وحديثا ولغرابتها وبساعة
صورتها كان منهم من يقول بوجودها ومنهم من ينكرها مع انها
مذكورة في كتب كثيرة قديمة وحديثة وقد ذكر لها حكايات غريبة

ونوادير كثيرة واقدم ذلك ما ذكر في التوراة من ان (ليفا طان)
وهو الشعبان البحري له اسنان مفزعة وعلى ظهره قشور كبيرة كالدرق
بعضها فوق بعض وعينه برأقتان كأنها يرميان بالشرر وإذا فتح
فيه خرج منه هب وكذلك انفه اذا تنفس ظهر منه شرر لم تكن
تؤثر فيه الاسلحة التي كانت مستعملة في الازمان القديمة كالسيف
والمقلع والنشاب وعند ظهوره يحدث للماء دوامات وتموج عظيم
ويرى الماء كأنه يتلهب وقد وصف هذا الحيوان بعض المؤلفين
بانه يقدر على ان يتلع الفيل وأكثر وجوده في بحر الهند ويبلغ طوله
عشرين ذراعاً ويعبر بحر الهند ساجاً وإذا مر في بعض سياحه على
بعض الجزائر فزع اهله منه وخافوا خوفاً شديداً ولم تشتهر معرفته
والعلم بوجوده الا في سنة ١٧٥٢ للميلاد الموافقة لسنة ١١٦٦ للهجرة
بناء على ما نقله السائحون والملاحون عن اهل البلاد الشمالية
كسكان (السكنديناوة) وغيرهم وقد قالوا انه نوعان احدهما لا
يعيش الا في البحر والاخر يعيش في البر والبحر وهذا الاخير يبقى
في البر الى ان يكبر ويعظم جسمه فتعسر عليه الحركة خارج الماء
لثقل جثته فاذا رأى من نفسه ذلك تحول الى البحر ليقيم فيه وعند
ذلك يسمع لمشييه بين الاشجار والغابات صوت من مسافة بعيدة
فيدك كثيراً من الشجر والمباني التي يمر عليها في طريقه الى البحر
وزعم بعض السائحين ان هذا الحيوان يخرج بالليل الى السواحل
الصخرية ويأخذ ما يصادفه من السفن كل ما قدر عليه وحكي

بعض الملاحين انه رأى بقرب بعض الجزائر ثعبانا من هذا الجنس يسبح فوق الماء كما يزحف الثعبان البري على الارض ويغير ثوبه مثله وان طوله خمسون قدما وجميع ما قيل في هذا الحيوان يدل على ان راسه كراس الفرس وانه يقذف من انفه ماء فيرتفع الى الجو ارتفاعا عظيما ولا يرى هذا الحيوان في الغالب الا اذا كان الهواء ساكنا والجو معتدلاً واهل (نرويج) يقولون ان هذا الحيوان قد يهجم على السفن فيغرقها بثقل جسمه ثم يلتقط رمم الغرقى من الماء وبعضهم يقول انه اذا قرب من السفينة يرفع راسه من الماء الى اعلى السفينة ويلتقم بفمه من اراد من يراه على ظهرها وانه يفر من راحة المسك ولذلك يضعون فوق مراكبهم شيئا منه فلا يقربها وفي شهر اغسطس سنة ١٨١٧ للميلاد وسنة ١٢٣٣ الهجرة وصل الخبر للمجلس العلمي بجهة (ايتازوبي) من جهات امريكا بظهور حيوان بحري عظيم الخلقة بشع المنظر يشبه الثعبان في شكله وحرركته ظهر عندهم على بعد ثلاثين ميلا من ناحية (بوستون) فانتدب من الجمعية بعض اعضائها لمشاهدة ذلك الحيوان والوقوف على حقيقته وشرح ذلك في تقرير يعرض على المجلس فتوجهوا الى تلك الناحية وكتبوا تقريراً بما شاهدوه يتضمن انهم رأوا هذا الحيوان فوجدوا طوله مائة قدم وقطره عشر اقدام وحرركته سريعة وانه تارة يسير على استقامة وتارة يسير بانعطاف ويكون راسه في الغالب مرتفعا عن الماء بقدر قدمين وانه يخاف من الآدمي ولم

يعد منه اذى لاحد ولا ياتي الى البر الا لخلع ثوبه فاذا خلعه عاد
سريعا الى لجة الماء وفي الجهات الحارة كثير من حيات الماء غير
هذا الثعبان الهائل وكلها شكله مستدير وله اذيال مفترشة يستعملها
في سباحته كالمجذاف واما (البال) المعروف بالهائشة فهو اكبر
الحيوانات على الاطلاق برّيه وبجريها وحشيتها وانسيها وهو انواع
منها ما جلده املس وما ليس كذلك ومنها ما له اجنحة وما ليس
له ورأس الجميع كبير مستطيل وفمه كحل متسع مفتوح من الامام
منطبق من جهة الخلف وفي ناحيتي الفم من اعلاه مكان الاسنان
صفان من صفائح فوق بعضها قرنية المادة سوداء اللون تفصل عن
بعضها وتباع لاغراض مختلفة وطرفها الداخل ملتصق بمادة خيطية
موجودة داخل الفم واما فكه الاسفل فمجرد من الاسنان والصفائح
وله شفة عريضة سريعة الحركة عرضها بقدر تلك الصفائح فاذا
كان الفم منطبقا غطت المسافة التي بين الصفيين فاذا تدلت ظهر
عند ذلك فتحة كبيرة فيدخل فيها جزء عظيم من الماء ومعه بعض
حيوانات صغيرة ثم يخرج الماء من بين هذين الصفيين وتبقى جميع
الحيوانات التي كانت بالماء عند دخوله كالسماك الصغيرة والحجار
فيكون منها غذاؤه واما الحيوانات الكبيرة فانها اذا رأت تموج الماء
الداخل في فمه هربت وبعدت عنه وانفذه في اعلى راسه وفيه خروقي
فاذا اراد استنشاق الهواء دخل معه من تلك الخروقي مقدار من
الماء فيجتمع في محل مخصوص من جهة الخلف وحين يكون في

جوف الماء تضيق مجاري حلقه فلا يصل الماء الى رئته فاذا اراد اخراج الهواء الفاسد ضغط على مخزن الماء فيخرج ما فيه من الهواء ومعه بعض ابخرة مائية ولهذا يرى دائماً من جانب راسه خيطان من الماء مرتفعان الى الجوّ كالعمودين ولكون غذائه لا يكون الا من حيوانات صغيرة اقدضت الحكمة ان يكون حلقه ضيقاً بخلاف فمه فانه واسع جداً ومن هذا يعلم انه لاصحة لما قيل من ان هذا الحيوان قد يتلع الرجل ولكن لا يخفون عادة الناس لانهم لا يسمعون المستغربات فكثيرا ما يمزجون المبالغة والكذب بالحقيقة ويخلطون بعضها ببعض ويصفون الشيء الغريب باغرب مما هو عليه وان كان لا اصل له وتارة يجعلون له مقادير فاحشة تزيد غرابته على غرابته وتمحه من الشناعة والفظاعة فوق ما يستحقه باصل خلقه اغراقاً في الوصف واغراباً في القول فان كان المتكلم من يوثق به اخذ الناس قوله بالقبول من غير مناقشة ولا بحث فيجري على اللسان حتى يملأ الارض ويتقل من جيل الى جيل فمن ذلك هذا (البال) فانه لما كان اكبر الحيوانات جعل له اغرب الصور واكبر المقادير فتارة جعلوا طوله تسعمائة قدم وتارة جعلوه اكبر من ذلك حتى قال بعضهم ان سفينة قد سارت بجانبه ثلاثة ايام ما بين راسه الى ذنبه وقال بعضهم ان الدنيا كلها على ظهر هائشة تتحرك بحركتها وتسكن بسكونها وجعل ذلك سبباً لوجود الزلازل التي تحدث فيها وبعضهم يزعم ان الشيطان كان لامها على تحملها هذا

الحمل الثقيل فهمت بالقاء الدنيا من فوق ظهرها فامرها المولى
 باستمرارها على ما هي عليه ومن مبالغة الصينيين في شأنها قولهم انها
 اذا تحركت في البحر ظهرت حركتها في اربعائة وثلاثة وثلاثين فرسخا
 بحريا وانها اذا انتهت في الكبر وتقدمت في العمر صارت كالجبال
 العظيمة الشاهقة وقال بعضهم انها تحب من انواع السمك الطوبار
 والبوري والبقرا البحري فتنبعها في سيرها فتقع بين تلال الرمال
 عند نزول البحر فلا يمكنها التخلص فاذا تحركت فرقت الرمل وجعلته
 في جنبها كالجبال فيشعربها اهل تلك الجهة فياتون اليها فيقطعونها
 وزعم بعضهم انها تقصد السفن فتشتمها بين فكها وتاكل ما بها
 الى غير ذلك مما لا يعول عليه ولا يصغى اليه وكذلك قول بعضهم
 انها قد تقف في جهة من البحر مدة فيتراكم فوق ظهرها كثير من
 الطين والرمل وزبد البحر حتى تكون كالجزيرة فتسرو عليها المراكب
 ويقيم اهلها على ظهرها اياما وليالي وهم لا يشعرون بها والصحيح من
 ذلك كله ان طولها خمسة وثلاثون مترا ولها اجنحة فوق ظهرها تعوم
 بها ورأسها عظيم جدا وعيناها بالنسبة لرأسها صغيرتان جدا واذنها
 لا ترى الا قليلا وفي فكها الاعلى من خمسمائة صفيحة الى ستائة
 وجلدها صلب املس ليس به قشر وتحنه دهن في سمك قدم فاكثر
 ويعمل من صفائح الفك الاعلى عمد الشمسيات والصدور التي
 تلبسها نساء الافرنج

قال الشيخ ما ذكرت من ان طولها يكون خمسة وثلاثين مترا

على الصحيح يقرب مما قاله الدميري في حياة الحيوان فقد قال ان طولها يبلغ خمسين ذراعاً وقد قرأت في بعض الكتب المترجمة من اللغة الانكليزية ان طولها في البحر الشمالي يبلغ نحو تسعين قدماً وهناك يعتادها الصيادون كل سنة ويصطادونها فاما في المحال التي تعيش مطمئة تامة الحجم فينصف على مائة وخمسين وان رأسها عبارة عن ثلث طولها وعيناها في جرم عين الثور ولكنها في قفاها فتمكن لها رؤية الاشياء من الخلف والامام وذنبها هلالي فاما لونها فليس على نمط واحد ففيه اختلاف عظيم ربما كان سببه السم او غيره ومن طبع هذا الحيوان ان لا يطعم لغير زوجه ولا تمنعه مخالطته ومجانسته مع الغير عن الاقتصار عليها ثم انه وان يكن اكر جميع الحيوانات الا انه اودعها واهدأها جاشاً وبسالته انما هي في الدفاع عن نفسه وعن ذويه وله اعداء كثيرة تتعرض له وتقصده فقد يلتصق به نوع من السمك صغير له جلد صدي فيرتفع في شحمه واخر يسمى السمك السائف وهو ايضا اعظم داهية عليه بعد الانسان وربما سلم من مكر خصائه المائتة باعمال القوة او بالهرب فاما من ابن آدم المسلط على جميع المخلوقات فهيات له ذلك فانه يتبعه بحيلة وتصرف ناجح يستخنه على ذلك طمع التجارة فيه او سد خلة المعيشة وقد علم بالتحقيق انه يتأهب في كل سنة عدة سفن لصيد هذا الحيوان في شطوط (كرتيلاند) وفي البحر الجنوبي فينشبون فيه نحو كلاب مربوط فيه حبل فاذا احس بالبحر جري

مسافة طويلة فيتركونه ريثما يتنفس ما شاء ثم يرمونه بكلاب اخر الى ان يكل ويبلغ منه الالم ويسج منه الدم فيؤخذ حينئذ ويقطع منه دهنه ويوضع في براميل ثم يذاب ويجعل زيتاً يدخل في عمل الشمع واجزاء الدباغة وصناعة بعض الثياب والظاهر ان له مدخلا عظيماً في التجارة

فقال يعقوب كانت التجارة فيه واسعة فيما سبق لكثرة وجوده اذ ذاك ثم لم يزل يتناقص ويغلو ثمنه شيئاً فشيئاً الى الآن وكان المتحصل من هذا الزيت سنة ١٨٥٩ للميلاد وهي سنة ١٢٧٦ للهجرة الفين وثمانية وصبعين برميلا وفي التي بعدها الفا وتسعمائة وفي التي بعدها الفا وسبعائة فترتب على هذا النقص افلاس شركات كومبانيات عديدة كانت مقتصرة على التجارة في هذا النوع وهذا النقص انما حصل من قلة وجود هذا الصنف فقد علم من الاخبار المحفوظة ان الذي اصطاده الصيادون منه في سنة ١٦٩٧ من الميلاد نحو الف وتسعمائة وسبعة وخمسين والذي اصطيد من سنة ١٧١٩ الى سنة ١٧٧٨ منه نحو ستة الاف وتسعمائة وستة وثمانين ومن سنة ١٧٨٤ الى سنة ٢٨٤٠ نحو ثلاثة الاف واربعائة ومن هذا التاريخ الى سنة ١٨٥٦ للميلاد وهي سنة ١٢٧٣ للهجرة لم يضبط الا ثلاثة الاف فقط ومن هذا يعلم السبب في تناقص كمية هذا الزيت في كل سنة عن السنة التي قبلها وهو السبب في غلو سعره ففي سنة ١٨٢٠ كانت اقة الزيت منه تباع بستين سنتيماً

واقعة صفائح الاسنان اذا كانت على حالها الاصلي بثلاثة من صنف
 الافرنك ونصف واذا كانت مقطعة قطعاً بعشرة منه وبلغت افة
 الزيت في سنة ١٨٦٢ افرنكا واحداً وثمانية عشر سنتياً وثمان الصفائح
 غير مقطعة ثلاثة عشر فرنكا والمقطعة مثلها ومقدار ما دخل في
 سنة ١٨٦٢ من صفائح الاسنان تبلغ قيمته مليونين من الافرنك
 تقريباً ولحمه يوكل بل هو مرغوب جداً عند بعض سكان الجهات
 الشمالية وبينه وبين لحم البقر قرب في الطعم والعادة ان ينضجوه
 في الماء بعد تقطيعه وجميع اهل اوروبا ياكلونه ولكن على حسب
 ما اعتادوا في ذلك فثمهم من يضيف له الحمص او غيره حين الطبخ
 ومنهم من يقلبه في الزيت

قال يعقوب وحين كنا نخوض في حديث (البال) كان بالقرب
 من ارجل من ضباط المركب عمره يقرب من اربعين سنة وله علم
 باحوال البحر والصيد كان يسمع حديث الساج بتمامه فلما فرغ
 الساج من كلامه دنا منا وقال ان اصطياد الهوائش من البحر
 اصعب شي ويحتاج الى عدد واحتراسات وقوة وجرأة وصبر على
 احوال البحر وشدائده وكان يسافر في الزمن السالف لصيد الهوائش
 مراكب عديدة من جميع جهات اوروبا ويجتمع منها في الجهات
 الشمالية المتجمدة اساطيل عظيمة وقيل وجود السفن البخارية لم
 يكن الاسفن الشراع فكانت مدة الصيد ذهاباً واياباً تبلغ اربعة
 اشهر واكثر اذا كانت سليمة العاقبة وكان كثير من السفن يفقد

بين الصخور الثلجية فيموت ملاحوها وكل من فيها ولا يصل خبرهم
لبلادهم إلاّ بالاشاعة واما الان فصار السفر على سفن البخار اسهل
واسرع ولكن لا يسافر لصيد هذا النوع الاّ سفن قليلة من فرنسا
والانكليز وامريكا وهولاندة وغيرها لعدم وجوده بكثرة كالاول
وكانت آلات الصيد رماحاً طوالاً وحرا با كبيرة وصغيرة كل واحدة
منها عبارة عن قطعة حديد احد طرفيها مركب في نصاب من
الخشب والطرف الاخر على شكل رقم الثمانية من الارقام الهندية
هكذا (٨) وقد جعلت على هذه الصورة لتنشب في جسم الحيوان
فاذا دخلت فيه فلا يكاد يتخلص منها ويستصحبون مع هذه الآلات
حبالاً طويلة يبلغ طول الواحد منها ثمانين قامة فاكثر الى مائة
قامة وفضلاً عن هذه الآلات لا بد من وجود ستة زوارق او
اكثر ويكون في كل سفينة نحو اربعين رجلاً غير القبطان
والضباط والطبيب وهم منقسمون الى قسمين قسم يمسك الرماح
والحرا با لاجل طعن الهوائش بها حين رؤيتها وقسم هم الملاحون
فيستعملون مدة السفر في خدمة السفينة وعند الصيد في اعمال
المجاديف لاجل تتبع الهائشة واقتفاء اثرها حين ترى في موضع من
البحر فاذا وصلت السفينة محل الصيد ووجدت الهائشة تلقي
الزوارق في البحر وتفرق الرجال بحيث يكون كل ستة او سبعة
منهم في زورق ويسيرون باستعمال المجاديف الى ان يكونوا قريباً
من الهائشة وعند ذلك تقوم الرجال التي بايديها الرماح والحرا با

مربوطا بها الحبال فيمسك الرجل المزراق بكفتي يديه ويهزه هزاً
موزوناً حتى اذا رضى به رعى به الهائشة فيدخل في جسمها على حسب
قوة الراعي وحذقه فاذا احست السمكة بالجرح غاصت في جوف
البحر وقد قبض على طرف الحبل المربوط في المزراق رجل من
الملاحين فيراخي لها فيه فان لم يكف ربط فيه غيره ولا يزال
يطاؤها الى ان تظهر على وجه الماء في جهة من البحر وللصيادين
من الحنكة والتدرب ما يعرفون به اين تظهر السمكة من الماء
بعد ان تغطس ويستدلون على ذلك باتجاه ذنبها حين تنزل
فيسيرون الى قرب الحبل الذي يتعين عندهم انها تظهر منه فتمت
ظهرت من الماء حملوا عليها بالمزاريق والحرايا فلا يزالون يضربونها
الى ان تزهر روحها ولا يخفى ان الهائشة من وقت طعنها الى
ازهاق روحها يحصل منها حركات عنيفة قد توجب احيانا غرق
الزورق ومن فيه خصوصاً اذا كان المسك للحبل غير مستعد
لمطاولتها واطلاق الحبل لها بالتدرج الذي يترتب عليه ان تكون
حركاتها هينة وكثيراً ما تضرب الزوارق او من فيها بذنبها فانها
عند مكابدة طلوع الروح يكثر اضطرابها وهياجها ويكثر ضربها
الماء بذنبها ويخرج منها دم كثير يتغير به لون الماء الذي حول
الزوارق ويبقى متغير اللون بعد موتها مدة من الزمن فاذا ماتت
الهائشة بادروا الى قطع ذنبها ثم يربطونها بحبل الى زورق
ويربطون باقي الزوارق به ويسحبونها في الماء الى ان يصلوا بها الى

السفينة وترفعها الرجال بالبكرات، والحبال ثم يقطعونها ويخلصون
الدهن من اللحم ويذبيونه على النار لاستخلاص الزيت ولم في ذلك
طرق مختلفة

وقد اخترع في أمريكا لصيد (البال) الهائشة جلة ترمى
بالآلات النارية فتدخل في جسمها فتمزق في داخل الجسد فيموت
الحيوان في الحال واخترع اخرون جلة ادخلوا فيها مع البارود
بعض مواد سمية فتى دخلت الجلة جسم الحيوان وتصدعت ينتشر
فيه السم ويفعل افاعيله فيموت الحيوان في مدة اربع دقائق او
خمس. قال وحضرت الصيد بنفسي وسني خمس وعشرون سنة
فما رأيت في عمري هولاً اكبر منه وينبغي لارباب هذه الصنعة ان
لا يكون للخوف سلطان عليهم بل يكونون بمكانة من الجرأة والقسوة
وقوة القلب بحيث لا يهابون الموت ولا يخشون الاخطار ولا تنزعجهم
الاهوال ويلزم ان يكون قائد الزورق مع ذلك حديد البصر
ماضي العزم وان يكون عنده مزبد تبصرو تدرو معرفة بما يلزم في
هذه الاحوال بحيث متى نظر الهائشة بادر بمن معه الى اجراء
جميع ما يستدعيه الحال من الحركات والاعمال لحصول الغرض
المقصود بغير اخلال بشي من ذلك فان الهائشة لا يكفي لموتها
حرقة واحدة او اثنتان بل كثيراً ما يلزم ضربها عشرين او ثلاثين
مرة بخاطر في كل منها بنفسه ورجاله فانها متى احست بالجرح
والالم هاجت واضطربت فان لم يكن جرحها بليغاً وفي الموضع

الموجب لموتها بالسرعة تاخذ في الطرق المخلصة لها فتغوص في البحر بقوة عنيقة يدفع بها الزورق بسرعة عظيمة تفوق سرعة النبل وقد يتكرر منها هذا الصنع مراراً عديدة فتظهر على وجه الماء ثم تغطس فيه وتعود وهكذا وتجه اتجاهات مختلفة وتقطع في ذلك مسافات بعيدة فان لم يكن الصياد متبصراً كل التبصر متدبراً كل التدبر فربما انقطع الحبل فلا يتحصل عليها او غرق الزورق فانها قد تمر بمواضع فيها صخور من الثلج ومحال جرد ماوها فاذا مر الزورق بهذه الاماكن متبعاً لها فربما وقع في خطر يؤدي الى تلف جميع الملاحين او ضياع ثرات تعبهم وتخلف مقصودهم وفي اثناء هذه الاحوال تسمع اصوات مزعجة بعضها من الهائشة وبعضها من ضرب الماء بذنبها مضافاً ذلك الى اضطراب الماء وعدم استقرار الزورق فيكون الهول عظيماً والنخطب جسيماً فلا بد للرئيس ان يكون في هذه الاحوال ساكن الجاش غير مكترث بما يراه من تلك الاهوال ولا يشغل باله الا بقتل الهائشة ويحتاج ان يكون رجاله متقادين له مطيعين لقوله متبعين لاسارته مبادرين الى تنفيذ امره على غاية من السكون والهدوء وكل منهم يشغل بما وكل له من الاعمال مقبلاً عليه بكلية لا يشغله عنه شاغل سواء وكلما بدت لهم فرصة لضرب الحيوان انتهزوها ولا يزالون كذلك حتى يرووا شؤبوبي الماء المقدوفين من خياشيمها قد تغير لونها من البياض الى لون الدم الاحمر فيعلمون بذلك ان الهائشة اشرفت على الهلاك

وان علمهم قرب على الانتهاء فيعجبون عليها ويزيدون في جراحها حتى ترفع راسها الى السماء وتنظر اخر نظرة الى الشمس نظرة من يؤس من البقاء ويخرج النفس الاخير ويدركها المات وتقطع منها الحياة

ثم ان كثيراً من محلات صيد هذا الحيوان في فصل الصيف والخريف يرى لون الماء فيه احمر كلون الدم وسببه ظهور سمك صغير احمر اللون ينتشر في الماء بحيث يملأ فضاء تسير فيه السفن يوماً فاكثرت طول الواحدة منه نحو ميليتين اثنتين وغلظها نصف ذلك ويتكوّن من هذا السمك طبقات كثيرة يبلغ طولها مسافات مختلفة فتارة عشرة اميال ومرة عشرين او ثلاثين ميلا وسمكها يبلغ ثلاثة امتار او اربعة والهائشة تحب هذا النوع اكثر من غيره فتمت وصلت احدى هذه الطبقات تسير الهوينا وتاخذ في صيده فتراها تفتح فاها وتنزل فكها الاسفل فيحنّذ يدخل فيه ماء وسمك بقدر انساع الفم وقدره سبعة امتار مكعبة وكلما سارت جهة امامها يدخل ماء جديد بما فيه من السمك والماء القديم يخرج من خلال الاسنان وتستمر سائرة هكذا الى ان تقطع نحواً من اربعين او خمسين متراً ثم ترفع راسها وتحرك لسانها لضم السمك الصغير وهي تنفث الماء فيخرج ويبقى السمك على شكل كرة قدر النارنجة فتبتلعها وتبتدئ في العمل كالاول

وهذا الحيوان مع كبر جثته وعظم خلقه في غاية من الجبن

والخور فلا يعتمد في طلب النجاة غالباً إلا على الهرب والفرار
والهزيمة امام العدو

وفي اول فصل الخريف يرى الذكر منه منفرداً عن الانثى
غالباً فيظن انه يبحث عنها وتراه كثيراً في حركات غريبة وتقلبات
عجيبة فتارة يتمرغ ويظهر في الماء صدره ورأسه وتارة يرفع فوق الماء
قريباً من ثلثه فيتموج البحر من هذه الحركات ويضطرب ويرغي
ويزبد وهذه الامور علامة على نداء غيره من جنسه واستدعاء ذوي
نوعه فيجتمع كثير منها ويستمر الجميع على هذه الحركات واللعب
زمناً طويلاً اذا لم يقطعها عن ذلك ظهور مراكب الصيد ومتى
حصل بين الذكر والانثى ائتلاف في هذه الجمعية انفردا عن البقية
وسارا مع بعضهما فان اصاب الانثى طعنة من الصيادين ترى
الذكر يحوم حولها ويحاول خلاصها ويكثر منه ذلك حتى انه ربما
حل به ما اراد ان يخلصها منه فيصير كالباحث عن حشفه بظلفه
وهذا كله في ابتداء الصلبة وحدثة المحبة فاذا تقادمت المودة
ومضت عليهما في الصلبة مدة ضعفت علائق الحب والوفاق وصار
ادنى الاسباب موجبا للفراق وهذا النوع يحجب الذراري اكثر من
الازواج فترى للام حنواً شديداً على ولدها وتحافظ عليه اكثر
من محافظتها على نفسها ولهذا كان من عادة الصيادين اذا رأوا مع
الانثى ولدها ان يبادروا لصيده اولاً لعلمهم بانها لا تفارقه فيسهل
عليهم بهذه الوسيلة صيدها ايضاً فتراها في اثناء مناوشة الصيادين

لابنها تبذل في مساعدته جهدها وتأتي باقضى ما عندها فتارة تدفعه
 باجنحتها وتارة تدفعه بصدرها فان لم تجد فيه قوة على الهرب حملته
 على عاتقها وغاصت به في الماء فان لم يتبعها لما اصابه من الجراح لا
 تتركه بل تستمر على محاولة انقاذه باقضى وسعها وغاية ما عندها
 فتارة تجذبه ومرة تدفعه وتارة تحوم حوله وتحنه على الفرار والهرب
 ويرى عليها في اثناء ذلك من اثار الكآبة والحزن ويسمع لها من
 شدة النفس والصوت ما يدل على شدة تألمها وهول مصابها وتنسى
 نفسها في اثناء هذه الاحوال بالمرّة حتى يكون ذلك سبباً لهلاكها
 وتقع فيما كانت تخلص منه لولا فرط حبها لولدها وانها كما على
 مساعدته وتخليصه وتبلغ زنة الواحدة من هذا النوع مائة وخمسين
 قنطاراً تقريباً ان كان طولها عشرين متراً فان كان ثلاثين متراً
 كان الوزن على حسبه وطول راسها ثلث طولها كما ذكرت
 ويختلف عرض فكها من اربعة امتار الى سبعة وطول سننها
 يختلف من متر الى خمسة امتار بالنسبة لفمها وقوتها عظيمة
 جداً بحيث يمكنها قذف الزورق بن فيه في الجوى الى غاية عظيمة
 ويوجد على جلدها بعض محار وحيوانات مائية صغار وتلد عادة
 فرادى ومثنى وولدها حين الوضع يبلغ طوله ستة امتار تقريباً ومن
 حين الولادة تنصب عليه رواق الحنو والشفقة فترضعه وتحضنه
 وتعلمه السباحة

المسامرة الثامنة والسبعون

كاشالو او العنبر

(من حكاية يعقوب)

وفي الحيوانات الجرية نوع هائل يسمى بالافرنجية (كاشالو) وهو العنبر يقرب من الهائشة في الصورة الآن بينهما في بعض الاعضاء اخلافاً لان هذا الحيوان يوجد في فكه من الجانيين انياب اسطوانية او مخروطية وفي الفك الاعلى انياب غيرها صغيرة جداً لا تكاد ترى من اللثة فاذا اطبق الحيوان فمه دخلت انياب فكه الاسفل في تجاويف مقابلة لها في الفك الاعلى وطول راسه قريب من نصف طول جسده وارتفاعه يبلغ مترين تقريباً

ويستخرج منه مادة بيضاء زيتية تجهد اذا بردت وهذه المادة في اوعية براسه متصلة باخرى في البدن متوزعة فيه فيستخرج ما في

سائر جسده أكثر مما تخنويه الاوعية التي في الراس وقدر ما يستخرج من الحيوان الواحد نحو من اربعة وعشرين برميلا من الزيت وكل برميل يسع مائة واربعاً وعشرين (نبادية) والنبادية مكيال كانت الفرنسيس تستعمله في كيل المائعات ومقداره مائتان واربعون درهما مصريا تقريباً وهذا الحيوان يقيم على سطح الماء أكثر من الهائشة وفي جوف الماء مدة طويلة كذلك ويستخرج منه ما عدا المادة الزيتية المذكورة دهن يذاب ويستخرج منه زيت مثل زيت الهائشة ولكنه قليل وإذا كان هذا الحيوان مريضاً يخرج منه الطيب المشهور بالعنبر فليس هو إلاّ من ابرازات يخرجها عند مرضه فتكون فوق الماء او على الساحل قطعاً تقرب القطعة من خمس عشرة اقة والصيادون يعرفون مواضعه فيخرجونه منها بمذاري طوال معدة لذلك وقد اخبرني رجل من الامريكانين ان بعض الصيادين عثر بقطعة من العنبر بلغ وزنها خمسا وستين اقة وليس في ذلك مبالغة منه لان هذا الحيوان يبلغ طوله خمسة وثلاثين متراً ويتغذى هذا الحيوان بالحيوانات الصدفية والحيوان ذي الثمانية الارجل وفيه من الجرأة والبطش ما ليس في غيره فلا يهرب شيئاً من حيوانات البحر الكبيرة ضعيفة او قوية ولا يترك شيئاً يصادفه في طريقه سواء كان انساناً او حيواناً فاذا احس بحركة الصيد في بدنه قصد الزورق مع كمال الشهامة والسرعة ويرفع راسه اليه ويحمل عليه فان لم يتحيل الصيادون في خلاص انفسهم في الحين

هشم القارب ومن فيه من الملاحين بين انيابه الخمسين ولهذا كان
اصعب حيوان يتقرب منه الصيادون وكل من يروم صيده يلزمه
استعمال كثير من الحيل والتدابير للسلامة من خطره ولهذا
الحيوان في السير سرعة عظيمة بحيث يقطع في الساعة الواحدة اثني
عشر ميلا واكثر ونفخه متتابع بين كل نفخين ثانية من دقيقة وعدد
النفخ خارج الماء يختلف فتارة ينفخ خمس عشرة مرة وتارة عشرين
واخرى ثلاثين ثم ينزل في الماء



المسامرة التاسعة والسبعون

تنمة قصة يعقوب

ثم قال يعقوب فهذا ما حضرني الآن مما سمعت في هذه الحيوانات واعود لاثمام حديثي في السياحة حسب اقتراح سيدي الاستاذ فاقول قد اقمنا في السفينة التي قدمنا ذكرها عائدتين الى بلادنا ثلاثين يوماً لم يكن لنا فيها شغل سوى اشغال المركب وحديث بعضنا مع بعض والنظر الى الماء والجو وكنت اميل كل الميل لسماع ما يقال حولي من الاحاديث واذا سمعت شيئاً كتبته وحفظته عندي خوفاً عليه من الضياع وقد جمعت من ذلك شيئاً كثيراً في كراريس عديدة وهي الآن عندي مصونة عندها من خير الذخائر اذكر بها ما مر عليّ من الحوادث ومن اجتمعت بهم من الناس واذكر بها من احسن اليّ ومن اساء عليّ فهي بالنسبة

لي احسن ثمر اجنبيه واثن متاع اقتنيه لان طول هذه المدة لم يساعدني الدهر فاكون من ارباب المناصب العالية ولا اكتسبت مالا يقيني نكبات الايام العادية وقد بلغت خمسا واربعين سنة من العمر وانا لا املك شيئا غير ما تراه علي من الثياب وثلاثين جنيها انكليزيا اجرة ثلاثة اشهر كانت لي عند القونانية اخذتها حين لحقت بمحضرتكم وكل ما اكتسبته في الايام السابقة ضاع وذهب سدى فمنه جزء ضاع في مصر وجزء عظيم كنت اودعنه عند واحد من الناس فادعى انه سلمه الي بالزور والبهتان واقمت بيني وبينه قضية كانت له علي فيها الغلبة لمعرفته بكثير من الناس امكن له بواسطتهم غش المأمورين بالتحقيق فحكموا له علي فتخلص وضاع المال علي ومع ذلك فانا احمد الله على هذه القسمة ولست متأسفا على ما فات ولا متكدرا بما صرت اليه من الحال في هذه الاوقات ولا نبالي اذا ارواحنا سلمت * بما فقدناه من مال ومن نسب فلما انتقضت مدة هذا السفر ودخلنا سواحل بلاد الانكليز احاط بجميع من في السفينة مزيد الفرح والسرور والانس والحبور لان كلا منهم كان يترقب الاجتماع باخوته وقرانه واهله واجبته وصار كل يعانق صاحبه ويهته بالسلامة ويعدده بالاجتماع في اماكن معينة وعلى ذلك وصلنا مينا لوندرة فلبس كل واحد افخر ما عنده من اللباس وتهيا للخروج وانا كذلك في جملة الناس تهيات للخروج فاحضرت خرجي واحملته على عاتقي وارتدت ان

اخرج واذا بصاحبنا السائح الذي كنت معه حضر لديّ وقال لي
 ماذا تصنع فقلت اريد الخروج الى المدينة فقال انت رجل فقير
 ولا تعرف الناس ولك اخت فقيرة محتاجة كل الاحياج واخشى
 ان تستهلك ما عندك من الدراهم في الصرف على نفسك وتبقى
 صفر الكف فقلت له وما الرأي فقال الراي عندي ان استحسنه
 ان تكون معي في منزلي فهو خير لك فشكرت صنيعه وحمدت الله
 سبحانه حيث جعل لهذا الرجل العظيم الحنو والشفقة عليّ ثم اكرتني
 عربية وضعنا بها ما لنا من المتاع وركبنا معاً وتوجهنا سائرين وبعد
 توطني اخذت اسأل حتى عرفت محل اقامة زوجة القبطان المتوفي
 التي كنت جعلت عندها مائتي جنيه فسرت اليها فلما رأتني قابلتني
 بمزيد البشر والفرح والطلاقة وقالت لي بعد برهة يسيرة اني لما
 وجدت غيابك قد طال ولم يصلني من اخبارك ما يوقفني على
 حقيقة الحال جعلت وديعتك التي استودعنيها في احيوت
 الصيارفة لاجل النمو لتجد اذا حضرت اكثر مما تركت ثم قامت
 وفتحت خزانة عندها واخرجت منها سند الاستلام وحسبت الرجب
 فوجدته يبلغ مائة جنيه تقريباً ففرحت بذلك وشكرتها على معروفها
 وحسن تدبيرها ودعوت لها ولما اردت الانصراف ابت الا ان
 اتغذى معها فاجبت دعوتها وصرنا نتحدث معاً قريباً من ساعتين
 سألتني فيها عن سبب طول الغيبة فانابها بقصتي وبما صار لي
 ولن كان معي وكيف نجوت من الغرق ووقعت في يد سكان

افريقية فبكت على ما نابني من المصائب والمصاعب وقالت هكذا حال الدهر ثم انها قامت واخذت بيدي وتوجهنا الى الصيرفي وظهرنا له السند فقال الدراهم عندي حاضرة ان شئت اخذتها وان شئت اقبيتها للريح فشاورتها في ذلك واخبرتها ان لي اخنا يتيمة فقيرة تركتها في خدمة خاتون بمدينة (بورك) ومن حين انفصالنا لم يصلني من اخبارها ولا وصلها من اخباري شي ولست اعلم امانت ام هي في الحياة واريد ان امضي اليها لانظرها فان وجدتها ارسلت لحضرتك خطاباً اعلمك فيه بما يظهر لي في شان الدراهم فاستحسننت رايي وقالت انت عندي في مقام ولدي فلا تتأخر عن طلب ما يعرض لك من حاجة فستجد مني المساعدة الى اعانتك بكل ما قدرت عليه اكراما للمرحوم فعند ذلك قبلت يدها وغيرت السند باسي وتركت الدراهم عند الصيرفي وصرت معها حتى وصلت لمنزلها ثم توجهت الى السائح واخبرته بقصة الدراهم واستشرته في الذهاب الى (بورك) لاعلم حقيقة خبر اختي وعرفته رغبتني في السفر اليها فوافقتني على ذلك وقال لي ان طاب لك المقام ولم ترد ان تعود الى لندرة فاعلم اني لك صديق محب على البعد والقرب فسلني عن كل ما بدالك ولا تقطع عني اخبارك وان اردت الرجوع الى هذه الجهة فاناً على ما تحب فشكرته على ذلك وبقنا ليلتنا فلما اصبح الصباح تأهبنا للسفر فذهب معي الى

موقف سكة الحديد وبقي معي حتى ركبت العربّة ثم ودعني
وانفصلنا

المسامرة الثمانون سوق في باريس

قال ناقل الحديث فبينما هم كذلك حضر الانكليزي وقرع
الباب فقام يعقوب وقال في وقت اخر اتم لك سياق الحكاية ودخل
الانكليزي فتلقاء الشيخ وولده بالتحية والاکرام واخذ يعتذر لهم عن
تاخره ويشرح لهم الاسباب التي عاقته ثم سألم عن حالهم وصحتهم
فشكروا الله واثنوا عليه ثم قال الشيخ انا قضينا هذه المدة مع يعقوب
في حديث ما جرى له وما رآه في البحر من حين سفره الى عوده

لبلاده فقطعنا الوقت في لذة الحديث واخبره بما رآه برهان الدين بالامس وقال له انا سألتنا يعقوب عن تاريخ باريس وطلبنا منه ان يقص علينا اخبارها فاحال عليك واعذر بقلة ما عنده في ذلك فقال الخواجا حبا وكرامة وسنجعل مسامرتنا بعد العود من الفسحة في ذلك لاني احب ان تقضوا ايام الاقامة بهذه المدينة في لذة وطيب خاطر واريد ان اكون دليلكم في الذهاب والعود لاطلعم على بعض ما لهذه المحاضرة من المآثر الفاخرة والان وقت الطعام فان شئت نطلبه فقال الشيخ لا بأس ثم امر الانكليزي باحضار الطعام في مكانه المعد له وقاموا فاكلوا وركبوا عربة وداروا في نواحي المدينة يتفرجون فاعجب الشيخ بانتظام طرقها وسعتها ونظافتها وحسن اشكال ما فيها من البيوت وما لها من اتقان الصنعة وتناسب الاوضاع واختلاف الصور وزيادة ارتفاع الاماكن وصار كلما ابصر شيئا واعجبه سأل عنه الانكليزي فيصفه له ويذكر ما حضره من خبر يتعلق به او نادرة تؤثر عنه ويبين له ما طرأ عليه من صروف الحداث وتقلبات الازمان وتنقلاته من حال الى حال الى ان آل امره الى ما آل ولم يزلوا على ذلك حتى انتهوا الى مكان واسع فيه خلق كثير من نساء ورجال في ازدحام واشتغال ورأوا سقايف من حديد مرفوعة على اعمدة منه وكلها في ازدحام عظيم من كثرة الناس الواردين من المدينة من كل جهة والمصرفين بعد قضاء اغراضهم فكان الشيخ يرى الناس

في كثرة حركاتهم^١ واختلاف تنقلاتهم^٢ وتقاطع مسالكهم اشبه شي
بتيارات مياه مختلفة الاتجاه فاعجبه هذا الموضع زيادة عن غيره
فاحب معرفة امره وسأل الانكليزي عنه وعن الغرض منه فقال
له قبل ان ندخل في شرح هذا المحل لنجلس برهة في احد مواضع
القهوة لنستريح ونزل الانكليزي ومعه الشيخ وولده ويعقوب فدخل
بهم الى قهوة لطيفة الشكل واسعة الارضاء كثيرة الزينة والزخرفة
في جميع جهاتها مبليطة بالمرمر وهي تشتمل على عدة اماكن يوصل
بعضها للآخر وفي كل مكان منها موائد (تراييزات) بعضها من
الحديد وبعضها من الرخام وحول كل واحدة منها جماعة من
نساء ورجال بعضهم يقرأ اوراق الاخبار وبعضهم يلعب باوراق
التمار وبعضهم يلعب النرد وغير ذلك من آلات اللعب وبعضهم
يشرب قهوة وبعضهم يشرب غيرها من انواع المشروبات فاخذ
الخوفا مكانًا خاليًا في احد الاركان وجلسوا فيه جميعًا ثم بعد ان
جلس كل منهم في مكانه واحضر خادم القهوة جميع ما طلبوه
قال الانكليزي ان هذه السقائف العالية والابنية الخالية معدة
لبيع جميع انواع المأكولات والاسماك واللحوم والفواكه والخضراوات
ولم تكن قبل هذه الايام على ما هي عليه الان من الحسن والانتظام
الذي تراه بل كانت في غاية الضيق والوخامة من عدم التفات
الحكام وارباب الزعامة فكانت من كثرة العالم الذين يشترون
ويبيعون بها يقع ازدحام يضر بالمارين لضيق دروبها وكانت احوالها

ليست مضبوطة وامور الصحة بها مهملة غير مربوطة فكانت تتراكم
بها القاذورات وتتعفن منها الطرقات وربما اضرّت بصحة اهل
الازقة والحارات المجاورين لها فكثرت الشكاى من سكان تلك
الاماكن حتى من اصحاب البضائع ومأموري الضبط والصحة لعدم
تكمهم من اجراء ما تقتضيه المصلحة فلورايته وهو على ما كان اولاً
عليه لانفت نفسك من النظر اليه ولكن لما كانت هذه المدينة
بسبب كثرة توارد الناس اليها آخذة في اتساع البناء تكلم ارباب
المجالس في هذا الشأن فاستقر رأيهم على ازالة ذلك الضرر ثم
عرضوا ذلك على ارباب الحكومة فصدقوا عليه وصدر الامر
للمهندسين بامضائه وعمل رسم بما يقتضيه التنظيم فرسموه وكتبوا
معه ما يلزم لمصلحة البلد وصحة اهلها في الحال والاستقبال وقدموه
ولكن لم يظهر لذلك اثر الا في عهد قريب لانه لم يبدأ في اساسها
الا في سنة ١٨٥١ للميلاد مع ان الشكاى والامر بازالة الضرر كانا
قبل ذلك بنحو اربعين سنة وقد تم في سنة ١٨٥٦ وهذا الميدان
كله عبارة عن عشر سقائف مغطاة بالواح من التوتيا مرفوعة
على عمد من الحديد ومساحتها بما فيها من الخانات والطرقات تبلغ
ستين الف متر مسطح عبارة عن اربعة عشر فدانا مصريا ونصف
فدان تقريباً وتحت كل سقيفة من هذه السقائف ثلثائة وخمسون
دكانا وهي كما رأيت منقسمة الى قسمين كبير وصغير يفصل بينهما
شارع عرضه ثلاثون متراً فالقسم الكبير تبلغ ارضه عشرين الف

متر والصغير عشرة الاف والباقي وهو ثلاثون الف متر مساحة
الطرق والميدان والمجنية التي رأيتها فبسبب هذا الاتساع صار
هذا المحل من احسن ما يرى والطفه فهو وان كان معداً لبيع هذه
الاصناف الا أنه صار معدوداً من المحلات التي تهرع اليها الناس
وتجتمع بها للتفسيح والاستئناس وتحت هذه السقف جميعها دور من
البناء كله مخازن في اعلا كل مخزن فتحة للاستضاءة ودخول الهواء
وبين تلك المخازن وبعضها طرق عليها قضبان من الحديد
موصلة الى السكة العمومية فترى العربات تسير في باطن الارض
بانواع البضاعة ولا يشعر بها احد ممن هناك من الباعة فبهذه
الوسائل كثر ورود جميع اصناف المأكولات من غير ان يترتب
على ذلك ادنى ازدحام ولا نوع ايلام وصار اهل المدينة على ثقة
من وجود ما يحتاجون اليه لوروده في وقت معين من جمع
الجهات وكذلك اهل البضائع صاروا في امن على بضائعهم من
العوارض التي كانت تعرض لها قبل ذلك هذا خلاصة ما يتعلق
بذات المكان قديماً وحديثاً واما ما يباع فيه في كل سنة من البقول
ونحوها فشيء كثير وقد احصي ما بيع فيه سنة ١٨٥٦ من الميلاد
فكان مقدار ما بيع من صنف سمك البحر خاصة ٢٢٠ ١٧٨٥
كيلو جرام والكيلو جرام عبارة عن اربعة اخماس اوقية مصرية اعني
ثلاثمائة وعشرين درهماً ومن سمك الماء العذب ٩٠٨٢١٢ كيلو
جرام ومن الزبد ١٧٦٠٢٢٢١ كيلو جرام ومن صنف البيض ما

بلغ ثمنه ٨٦٠٨٦٧١ من الافرنك ومن اصناف الخضراوات ما بلغ ثمنه اربعين مليوناً من الافرنك ومن اللحم ٢٨١٣٦٤٧٢ كيلوجرام ومن النبيذ المباع في براميله على اختلاف اجناسه مليونين من اللترات والتمر رطل أنكليزي فبلغ ثمنه نحو خمسين مليوناً من الافرنك وما من سنة الا وتزيد على ما قبلها

فقال الشيخ كذلك يجب ان تكون المدن التي وضعها على ان تكون مسكونة باهل الصناعات واصناف التجارات يرد اليها القرويون والغرباء بانواع الحيوانات الموقرة بالبضائع المختلفة وهذا من الامور المعقولة التي تضطر اليها طبيعة الاجتماع البشري فكلما مست الحاجة لسعة الطرق لزم ان توسع حتى تندفع الحاجة ويأمن الناس من الاصطدام والاصطكاك ويسلموا من اذى الازدحام فعند ذلك نظر الى الشيخ صاحبه كانه يذكره امر مصر فقال سألت بعض المعمرين بمصر عن الاسباب التي دعت اهلها لتضييق الطرق فقال حدثني بعض اسلافنا بما عاينت طرفاً منه وهو ان مصر كانت مسكونة بام مختلفة الطبائع متباينة الاخلاق لا تزال العداوة بينهم قائمة والشروع بمخدمة فكان من عرف نفسه بالقوة متسلطاً على الضعفاء بالنهب والسلب مجاهرة بجوسون خلال الديار ويتسورونها فرأى الناس مدافعة تلك الشرور بتضييق الطرق حيث لا يمكن للكثير ان يبروا بها جملة واحدة واذا دخلوا اوزاعاً تمكن الناس ان يحذفوهم بالاحجار فقل النهب من داخل البلد وبقيت كثيرة

في الاطراف وبذلك السبب كان المصريون يتخذون ابواب الدروب صغيرة مستورة الوجه بالمسامير المفرطة الروس لتكون لها بمنزلة الدروع فلما هدت الفتن وعم الامن وغلبت السلامة اخذت مصر في محاسن الاحوال ولطائف الاشكال من طرق بالغة في السعة وانية متراصفة متناسقة تؤمن فيها غوائل المرور ويطيب الهواء وتصلح للاقامة وذلك من حسنات الدولة القائمة بامرها حرسها الله وكان لها رداء معيناً وركناً حصيناً فانها لم تنزل ناظرة في اسباب العمران واتساع دائرة الامن والرفاهية وحسن تعاون طوائف الناس بعضهم لبعض وشواهد الاحوال ناطقة بان ذلك لا يزال على احسن غاياته فالناس مقبلون على تعلم الالسة وقرآه الكتب واجناء ثمرات العلوم ومن العادة ان الانسان اذا ترك حالة الى احسن منها بذل جهده في تغيير ما لا يرضاه فاين مصر الآن ما كانت عليه ولوبعد بقايا كثيرة من ضيق الطرق واختلاف الابنية بالدخول والخروج وسوء الوضع الموجب لوخامة الاهوية واضطراب الامزجة وتزاحم الناس واستغلالهم بما يقل نفعه ويكثر خسارته ثم ما احسن اتخاذ مثل هذا الميدان فانه ربما كان سبباً لكثير من المرافق كسرعة عود ذوي الاستغال الفلاحية الى اشغالهم بعد فراغهم من شان منقولاتهم وكضبط الاسعار وقلة التغايب فان الفلاح يبيع بضاعته جملة ثم اهل التجارة فيها يوزعونها حسب طلب الجهات بخلاف ما اذا كان الفلاح يتولى توزيعها بنفسه

عطلته زمناً طويلاً وربما بارت عليه وبالجمله فاتخاذ الطرق
 لتسهيل المعاملات بحسب الامكنة والازمنة امر لا شبهة في حسنه
 فقال الانكليزي هو كما قلتم لا سيما اذا كانت الامة مراعية
 للشركة العامة والمصالح الشاملة غير مهملة لها وقتاً ما ثم قاموا
 سائرين وهم يتحدثون فيما يرون عليه الى ان وصلوا محلهم فاجتمعوا
 جميعاً في غرفة الشيخ فطلب برهان الاذن من والده بالتوجه مع
 يعقوب الى البالو فاذن له وبقي الخواجا مع حضرة الشيخ

المسامرة الحادية والثمانون

باريس

فقال الخوaja قد طلبتم مني ملخص تاريخ هذه المدينة واصل
 وضعها فقال له الشيخ نعم فقال لا يخفى ان حالها الآن ليس كحالها
 في غابر الازمان بل لا نسبة بين الحالين لان جميع ما تراه من
 لابنية الحسنة والشوارع الواسعة المستحسنة وان كان كله من
 نتيجة افكار المتقدمين الا انها لا يوجد بها الآن اثر من الآثار
 الاولى لان كل جيل اتى يغير من اثار قبله فبتداول الازمان على
 هذه المدينة وصلت الى هذه الدرجة التي صارت بها منفردة بين
 المدن وبلغت من افخر الغاية ومن الشهرة النهاية حتى شهد لها
 غيرها من سائر المدن انها فازت بجميع انواع اللطائف وحازت
 اصناف الزخارف ومع ذلك فلم تزل كل يوم تتقل من حال

الى احسن وتجدد بها من انواع الحسن في كل يوم ما لا يتجدد
 بغيرها في زمن فهي في الثروة ليس لها مثل وما تبلغه في زمن قليل
 لا يصل اليه غيرها في زمن طويل وهلم جرا وكل من رآها في
 سنة ثم رآها في اخرى قال انها تغيرت الى شكل احسن مما كان
 وليس في الامكان حصر ما بها من الغرائب ولا ضبط ما يحدث
 فيها من العجائب فان الانسان ولو اطال بها المقام واتخذها وطنًا
 مدة من الاعوام لا يمكنه حصر بعض ذلك ولا الوقوف على ما
 يحدث فيها كل يوم من البناء والمسالك ومع ذلك فاني اذكر
 لحضرتكم ما يحضرني من تاريخها فاقول لا يخفى ان بين كل مملكة
 وكرسیها ارتباطا كارتباط الجزئيات بالكلیات لان كرسي كل
 مملكة اصل في حوادث مملكته وحوادث كل مملكة راجعة الى
 كرسيها سواء كانت الحوادث دينية او دنيوية فن اراد التكلم على
 احداها اضطر الى التكلم على الاخرى وشرح الكلام في هذا يطول
 فلا نذكر الا ما هو ضروري فنقول

من المعلوم ان الجزء اصل للكل وان الفردية سابقة على
 الزوجية وان العدم سابق على الوجود وان اصل الاعداد الواحد
 فاذا تمهد ذلك فلا مانع من ان يكون اصل كل مدينة او قبيلة
 ناس قليلون ثم يتزايدون شيئًا فشيئًا اما من نسلهم او من ياتي
 اليهم طمعا في ارزاقهم او احتمائه بهم فهذا هو اصل اتساع المدن
 والقبائل وكثرة اهلها

فقال الشيخ هذا كله مقبول ومعقول وقد اصابوا فيما فعلوا
 حيث تخيروا هذا الموضع وجعلوه مقر لهم فقد وجد فيه ما ذكروه
 في اتخاذ المدن حيث قالوا يجب في كل موضع اريد اتخاذه مدينة
 ان يكون مشتملا على ما بقي من المضار وتسهل به المناء - والمرافق
 فاما ما بقي من المضار فبان يدار حولها سياج الاسوار وان يكون
 وضعها في ممتنع من الارض اما على جبل ليصعب على العدو
 صعوده واما ان يحيط بها بحر ليصعب عليه عبوره وكذلك مراعاة
 الوقاية من العوارض الجوية بان تكون طيبة الهواء لان الهواء اذا
 كان خبيثا بان كان ساكنا او مجاورا لمياه فاسدة او لمناقع متعفنة
 اضر بما حوله من انسان وحيوان كما هو مشاهد واما ما تسهل به
 المنافع والمرافق فامور منها وجود الماء العذب والمرعى وقرب المزارع
 والاشجار منها للاخطاب والبناء لان قرب ذلك يسهل على
 الساكن مرافقه ومنها قربها من البحر لتسهيل الحاجة القاصية من
 البلاد النائية فاذا لم تراعى هذه الامور في المدينة قبل اخطاطها
 اسرع اليها الخراب كما وقع في بعض مدن العرب التي اخططوها
 بالعراق وافريقية والكوفة والبصرة والقيروان حيث لم يراعوا فيها
 الاّ الأهم عندهم من مرعى الابل وما يلزم لهم من الشجر ولم يراعوا
 الماء العذب ولا المزارع ونصوا ايضا انه يجب في المدن الساحلية
 ان تكون في جبل او بين امة موفورة العدد والعدد للاستنصار
 بها اذا دهم العدو لان المدينة اذا لم يكن بقربها عمران ولا طريقها

وعراً كانت طعمة لكل من ارادها واظن ان هذه الامور جميعها كانت متوفرة فيها حين وضعها

فقال الانكليزي لاشك ان معظم هذه الامور متوفرة في هذا الموضع لان النهر موجود فيه وكذلك هواؤه خالص تقي والحجر عندهم كثير للبناء به بدل الخشب فهذا هو السبب في اختيار هذه البقعة والاقامة بها وكان ابتداء وضعها حين كانت الارض كلها سائلة ونفرك الخلق عن سطحها وعذرهم في عدم استيفائهم بجميع شروط الاختطاط ما ذكره المؤرجون من ان هذه البقعة وغيرها قبل ان تسكن لم يكن بها الا اكام وصحارى مملوءة بمياه ملحة واستدلوا على ذلك بوجود اجزاء حيوانات بحرية واسداف عثروا بها خلال احزاء الاحجار والظاهر ان محل باريز قبل ذلك وبعده بزمان طويل كان مغموراً بالماء وفي صورة خليج وان كان مدن (منت . ودروه . وفوتنبيلو . ونومور . ومونترو) وغيرها كانت على شواطئه وكان وسط الماء اماكن مرتفعة كالجزائر وكانت سراحله خالية من النبات والمخلوقات ليس بها الا الصدف وميتة السمك ونحوه من الحيوانات البحرية وبعد انقضاء تلك الايام صار الماء ينحسر والارض تحمد شيئاً فشيئاً فكان كلما انحسر الماء عن موضع كسي بالنبات والشجر حتى كثر ذلك فاوجد الله بين تلك الاشجار انواعاً من الحيوانات فظيعة المنظر مهولة الخلقة فصارت تناسل وتتشرف في جميع البقاع وبقيت هذه البقعة على حالها الى ان

جاء طوفان بوح عليه السلام وكان خروجه من الجهة الجنوبية الشرقية قلع الاشجار والنبات وغرق أكثر ما على وجه الارض من الحيوانات ولم ينج منها الا القليل فاخطلط بعضه ببعض وتناسل حتى ملأ الارض فلما قضى الله ما اراد من الخراب وسكنت الارض بعد الاضطراب وعمرت بما بقي من نوع الانسان تفرق الخلق في ارجائها وعملوا نواحيها فكان منهم طائفة وهم على ما حققه المورخون قوم من اهل الصين ذهبوا الى تلك الجهة وكان مأواهم حين نزولهم بهذا الموضع الخيام كعرب البادية فلما سكنوا بها وعمرها سموا جال اي زراع الارض وكانوا قبائل وعشائر ولكل طائفة رئيس يحكم فيها وينظر في دعاويها ويقودها في الحرب وكانوا يصدقون بوجود الخالق ويسمونه هوذا ومعناه الخالق الاكبر المؤثر في الكون ولكنهم كانوا يعتقدون ان معه الهة اخرى وان كل اله موكل بقوة من القوى المؤثرة في تدبير الكون وهذا الاعتقاد يشبه اعتقاد اليونان فانهم يقولون بتعدد الالهة وان منها ما هو موكل بنار الدنيا وما هو موكل بالرعد وما هو موكل بالانهر والخلجان الى غير ذلك وكانوا يزعمون ان ديانتهم مأخوذة عن توت اي ادريس عليه السلام وانه الاصل في جميع الفنون والصنائع والمزارع وكانت اعيادهم وقت دخول الفصول في بعضها فيكثرون فيها من شرب المسكر وتعاطي المنكر ويقربون من الادميين لاهتهم قربانا ولم يزالوا كذلك الى قبيل ظهور الديانة المسيحية بنحو سبعمائة سنة فهاجر من

جهة أسيا الى حدود البحر الاسود عدة قبائل فوجدوا هناك قومًا
يسمون كيرميس فازعجهم من مساكنهم وسكنوا مكاينهم فرحل
الكيرميس الى جهات نهري الطونه والرين واقاموا بارض الجول
التي هي الان فرنسا فتدينوا بديانتهم ورفضوا الديانة القديمة ثم
انتشروا في بلاد الانكليز وهولانده وسكان بلاد الجول اي فرنسا
الى الان يتكلمون بلغة الكيرماسيين فلما ارتحل الكيرماسيون الى
ارض الجول تخيروا منها موضعاً وبنوا به مدينة سموها (دروه)
وجعلوها مركزاً لاهل ديانتهم كمدينة رومة الموجودة الآن لاهل
الديانة المسيحية وكانت تسمى هذه البقعة بالارض الوسطى ومركز
الديانة العامة ومقر العلماء والمحبين لازميس وما قدمناه في شانهم
من الاعتقاد انما هو معتقد كهنتهم ومن تبعهم

واما عوامهم فكان اعتقادهم مجرد اوهام وتلبسات تلقيا اليهم
كهنتهم فكانوا يكتهمون عنهم عقائدهم التي يعتقدونها ليمتازوا بها
عنهم ومن جعلتها اعتقاد وحدة الاله وانه الذي لا نهاية لعلمه وان
كل ما اراده في الكون من خير او شر لا بد ان يكون وانه الخالق
لكل شي الذي يهيء كل ما خلق لما خلق له فيرفع اهل السعادة
الى الدرجات العلى وهي دار النعيم ويخفض اهل الشقاء الى الدرك
الاسفل وهو محل العذاب المقيم والدرك الاسفل عندهم عبارة عن
الفراغ المطلق والدرجات العليا عبارة عن المحل الذي تقيم فيه
الارواح المنعمة وان الانسان اذا ارتكب خطيئة او ذنباً ثم مات

نزل الى الدرك الاسفل اعني الفراغ الذي خرج منه وان كان
جاريا في عمله على مقتضى علمه لا يرجو به حصول ثواب ولا فراراً
من عقاب كان مآله النعيم المقيم وان كل من فترت عن الطاعة
قواه اهبط الى الدرك الاسفل وكان قرينه الشيطان الذي اضل
واغواه واقام في دار الشقاء والندامة وحرّم من انواع اللذة والكرامات
واما من صعدت روحه الى ارواح الاررار فانه لا يجد ما يؤمله في
تلك الدار بل يكون دائماً في عز وصيانة آمناً من الوقوع في الذل
والاهانة متخلياً بحميل الصفات كالراحة الدائمة وحسن الافعال
ونور الذات متخلياً عن سائر الرذائل اقلها المذلة والخوف من القلة
ومن الكبر ماسيين قبيلة تسمى البليج ومعناها في الاصل المحاربون ثم
اطلقت على سكان مملكة البليجا وتسمى عند مؤرخي العرب بالفلنك
تحولوا من شاطئ نهر الرين الى جهة الجولانيين وهم القاطنون
بشواطئ نهر الوان فاذنوا لهم في المقام معهم واختلطوا بهم ومن ذلك
الوقت سموا بالباريزيين اي سكان الوان هذا ما يحضرنى الان
من خبر هذا الموضع وسكانه واما طباعهم فكانت وقت ذاك وحشية
واجسامهم عارية وعوراتهم بادية وكانوا يسمون اجسامهم ويتركون
شعر رؤسهم حتى يصل الى اكتافهم وكانت القبائل التي حولهم
تشهد لهم بالقوة وتخشى باسهم وكانوا اذا خرجوا للحرب وقتلوا احدا
علقوا راسه في عنق الخيل للفخر وجعلوها آنية يشربون بها الماء
والخمر وكانت الارض التي نزلوا بها اذ ذاك ضيقة لان الجوليين

محيطون بها من كل جانب فلما استقروا فيها اخذوا يرتادون محلا
 يجعلونه مركزاً لحكومتهم فاخاروا موضعاً جهة نهر السين كان به
 سبع جزائر يقرب بعضها من بعض فبنوا فيه مدينة جعلوها مقر
 التخت وسموها لوتيس وكان ذلك قبل هجوم الرومانيين على ارض
 الجول واستيلائهم عليها بمدة كبيرة فهذه المدينة التي تراها ويعجبك
 ما فيها من المباني الفاخرة وزيادة ثروة اهلها قد عوضت لوتيس
 القديمة بعد استيلاء الرومانيين عليها وكان بناء لوتيس من خشب
 واغصان شجر ومساكنها ضيقة منخفضة ليس بها منافذ ولبرودة ارضها
 كانوا يستعملون تنانير كاهل ريف مصر وكانت خالية من المعابد
 فاذا ارادوا ان يجتمعوا وقت الاعياد والمواسم خرجوا الى صحراء
 قريبة منهم فيجتمعون بها وكانت معائشهم من الزروع وكانوا
 يزرعون فيدخرون مؤنتهم ويتجرون فيما فضل عنها ولخصوبة
 الارض وحسن منبتها كانوا في ثروة وطيب عيش ثم حصل لهم بعد
 ذلك اضطراب فتضعع حالهم وآل امرهم الى الخراب وسبب ذلك
 ما قرأته في بعض الكتب وهوان الرومانيين في تلك المدة بعد
 تخريبهم لبلادهم واستيلائهم على لوتيس مقر تختهم كما قدمنا كان
 تحت قبضتهم قبائل من الجبال خرجوا عن طاعتهم ورفعوا لواء
 العصيان عليهم فلما رأى الروم ذلك وكانت عساكرهم متفرقة في
 الحرب الى جهات متعددة وليس فيهم كفاية لمقاومة الجميع دبر
 قبصرهم في اتباع الفتنة بين تلك القبائل وقال لاهل مشورته انا

لا تتمكن منهم الا اذا وقع الخلف بينهم فارسل اولاً اليهم يطلب منهم مددا فابوا جميعاً فطلب منهم خيلاً فمنهم من اجاب ومنهم من امتنع ووقع الخلف بينهم فتمت حيلته وتوجه بعسكره اليهم فحرب مدينتهم لوتيس مع جزائرها السبع وقتل من قتل وأسر من أسرو ومن ذلك الوقت غيروا اسم لوتيس بباريز واشتهرت بهذا الاسم الى الان وهذه الحادثة كانت قبل ظهور المسيح بخمسين عاماً ومن ذلك الوقت اخلط الرومانيون بالباريزيين وصارت ديانتهم واحدة ومكث الباريزيون واهل فراسا تحت حكم الرومانيين نحو الف سنة فكان القياصرة يتوارثونها قبصراً عن قيصر ولم ينازعهم احد منهم في ديانتهم فبنوا بالمدينة معابد وهياكل واعلوا بنيتها ونظموا شوارعها ووسعوا اسباب متاجرها ومزارعها وما زالوا كذلك الى سنة ٢٤٥ ثم لما ظهرت بها الديانة العيسوية كان كلما كثراهلها تقهر حالهم ولكن بقيت اهل الديانة العيسوية الى القرن الثامن من غير رئيس ومع ذلك فكانت الديانة العيسوية هي الغالبة فلما حصل القول بباريز بربوبية عيسى عليه السلام حدثت الكنائس ورتبت القسس فنفرقوا في مواضع كثيرة فكان العيسويون بشاطيء نهر السين ووان واما المتمسكون بالديانة القديمة فكانوا متفرقين في مواضع كثيرة ولكل طائفة رئيس منها يسوسها ويحكم فيها الا ان طائفة الفرنج وان كانت قليلة العدد كانت تميل الى السلب والنهب فكانت الحرب بينها وبين من جاورها من الباريزيين وغيرهم لا تنقطع

وكانت جميع القبائل تحسب حسابها وتهاب حربها وذلك لانها
التقت مرة مع جيش الرومانيين فهزمتهم وكانت لا تبلغ اربعة الاف
وجيش الرومانيين اكثر من ذلك باضعاف فمن ذلك توهوا
شجاعتها وهابوا سطوتها الا ان الباريزيين عرفوا كيف يتخلصون
من شرها ويامنون من ضررها وذلك انهم استمالوا قلوب الفرنج
حتى ادخلوهم في ديارهم وزوجوا اميرهم بتا من بنات ساداتهم
وملكوه عليهم فعدل فيهم واحسن سياستهم وذب عنهم من ناولهم
حتى خلصهم من ذل الفرنج وقبضة الرومانيين وحكمهم عليهم وكان
ذلك سنة ٤٧٥ من الميلااد فامنوا على انفسهم واموالهم وزادت
ثروتهم وحسنت عيشتهم وملأت المعورة شهرتهم ولجل تأكيد
الائتلاف والائتلاف ودفع توهم العود الى ما كانوا عليه من الخلاف
بنى ذلك الملك كنيسة باسم الحواريين اي انصار عيسى وهم بولس
وبطرس واوصى ان يدفن فيها اذا مات ففعلوا وكان اسم من
زوجوه بنتهم كلوفس وهو الذي قتل جميع اقاربه وكانوا ملوكا
فاستحوذ على ممالكهم وخلف من الذكور اربعة فلما مات قسموا
المملكة بينهم فملك اقدمهم على باريز والثاني على ستير والثالث على
سواسون والرابع دليان ثم مات ملك دليان وخلف ثلاثة من
الاولاد فاتفق ملك باريز وملك سواسون على قتلهم وقسمة مملكة
ابهم بينها فارسلا الى والدتهم رسولا يخبرها بان ترسل الاولاد الى
عمامهم ليبروهم ويعلموهم السياسة الملوكية لانهم سيصيرون ملوكا

فتوجه اليها الرسول واخبرها بما قالوه فصدقته وارسلت الاولاد الى اعمامهم ثم ارسلوا اليها رسولا ومعه سيف ومقص وقالوا له مرها ان تختار ايها شأت وبخبرها انها اذا اخذت المقص فلا حق لاولادها في الملك واذا اخذت السيف فلا بد من قتلهم فلما وصل اليها واخبرها بما قالوه قالت اخذ السيف وقتلهم اسهل عندي من بقاءهم محرومين من حقوقهم فرجع الرسول واخبر اعمام الاولاد بما قاله امهم فقام احد اعمامهم وضرب احد الاولاد بمخبر فخر ميتا والتجأ الثاني الى عمه الثاني فلم يمكنه حمايته من اخيه وخلي بينه وبينه فقتله واما الولد الثالث ففر من بينهم ولم يوقف له على خبر ويقال انه دخل ديراً ولم يخرج منه حتى مات وفي ايامهم حسنت حال اهل هذه المدينة وتقدمت الملة العيسوية الا ان ملكهم مات ولم يعقب الا ولداً واحداً فتملك بعده ولم تطل مدته بل مات ايضاً ولم يخلف سوى بنتين فاتفق عماء على ان يقتسما ملكة باريز وان لا يجعلها مقراً وان لا يدخلها احدها الا ومعه الاخر فمضى الامر على ذلك وهجرت باريز ولم يبق فيها الا اهلها ولما كانت سنة ٥٨٤ من الميلاد خطب ملك الاندلس لابنه ابنة ملك سواسون فاجابه وجهزها له وارسلها في موكب عظيم جمع فيه اولاد امراء باريز واعيانها وامران يبروا بالموكب من وسط المدينة ففعلوا ومات اكثرهم في الطريق لبعده المسافة الا انه لم تطل ايامه بل عجل له حمامه ولم يعقب الا زوجة وولداً رضيعاً وكانت

امه مالات قوما واغرثهم على قتل ملك ميتز فلما لم يتم ذلك خافت على نفسها منه فاخذت ابنها وذهبت به الى باريز وكان رئيس الديانة بها يومئذ رجل من ذوي المروءة والفتوة المشهورين بالاشجاعة والقوة واجتمعت به فانزلها عنده واكرم نزلها وكانت الحرب في ذلك الوقت قائمة وعيون الفتن مستيقظة غير نائمة والفرنج منقسمة قسمين كل قسم منعزل بموضع والعدوان من بينهم لا يتقطع لكن كان القسم الغربي يميل الى السلم ويغلب عليه طبع الحلم لما عنده من عوائد التمدنين حتى كان يعد من الرومانيين واما القسم الشرقي فكان يغلب عليه طبع الخشونة والتوحش ثم ان تلك المرأة بعد ذلك ذهبت بابنها الى ملك البرجون واستغاثت به في ابقاء ابنها في ملك ابيه فشمر ذلك الملك عن ساعد الجدد وشد منها العضد واخذها وذهب بها الى باريز فصادف دخوله يوم الاحد وهم مجتمعون للصلاة فدخل الكنيسة وتلا عليهم مقالة حتم فيها على ان يساعده على ملك ميتز وان يمنعه عن باريز اذا قصدها فاجابوه الى ذلك فلما جهز ملك ميتز جيوشه واتى بها الى باريز لم يتأخر من اهلها احد بل قاموا جميعا عليه وقتلوه حتى ارتد بجيوشه خائباً وصار مطلوباً بعد ان كان طالبا وامنت باريز من ذلك الوقت من طروق الحوادث ولم تمتد اليها يد عادٍ ولا عابث الى سنة ٨٢١ انما كان يحصل بها احيانا بعض حوادث كقحط ووباء ومرض وغلاء ومع ذلك كان اهلها يتزايدون الى ان كانت سنة ٨٤٥ للميلاد فاغار

الجرمانيون عليها وهي اول غارة اغاروها على فرنسا فقتلوا رجالها ونهبوا اموالها واستولوا على ارضها وكان ملكها وقتئذ شارل الاصغر فلما عجز عن مقاومتهم ويئس من الخلاص من يدهم طلب الصلح معهم فصالحوه على ان يدفع لهم ٧٠٠٠ ليبرا فاعطاها لهم فاخذوها ورجعوا الى بلادهم ثم بعد عشر سنين رجعوا ثانيا فاعطاهم كذلك فلما علم الجرمانيون ضعف الفرنسيين وعدم مقاومتهم لهم لم يقنعوا بالمال بل طمعوا فيهم فصاروا ياتون كل عام لنهب اموالهم وسي ذرارهم وقتل رجالهم وهدم معابدهم وهتك حرمة مقدسيهم ولكن لمحافظة الفرنسيين على حرمة مقدسيهم كانوا اذا استشعروا بقدوم الجرمانيين يقدمون موارد المقدسين على محافظتهم لانفسهم وفي سنة ٨٨٥ اغاروا على المدينة غارة كبيرة فدافع عنها اهلها مدة ثم حاصرها الجرمانيون وضيقوا على اهلها وقتلوا من عثروا به في ضواحيها من ساء ورجال واطفال والقوا رمهم في الخنادق وطال المحصار فحصل لاهل البلد ما لا مزيد عليه من الكرب لقلة الزاد وتعذر وصول الميرة اليها فجاء الملك شارل ودخلها بعد محاربة جرت بينه وبين الجرمانيين ولكنه رأى من الصواب ان يصطلح معهم على ان يدفع لهم مبلغا فاخذوه وانصرفوا ولكن كان النهب في البلاد الاخرى لم يزل واقعا واذا سالوهم عن فوائد الصلح يقولون لهم ان ما اخذناه وجرى عليه الصلح انما هو عن باريز خاصة فزاد كرب الاهالي من هذه الافعال الشنيعة التي هي من اثار توحشهم

وخشونتهم وقسوة قلوبهم ولما رأى اهل باريس ان ذرية مينار وهم
ابناء ملك مينار قد غلب الجبن على طباعهم ونزلوا في المهمة الملوكية
عن اوضاعهم وتغير شعارهم وكادت ان تخرب من القتل والسلب
ديارهم وان استمرار الجرمانين على هذه الحال مما يزيد في امرهم
الاختلاف اجمعوا امرهم على ان يجعلوا لها ملكا وان تعود باريز الى
ما كانت عليه من الاستقلال فولوا عليهم رجلا يسمى اود ورضوا
حكمه فعمل لهم قوانين مشوا عليها ثم ان القرال الاكبر المسمى اشيل
وكان مقره اذ ذاك مدينة ايكس انكر على الباريزيين امراً حصل
منهم فخرج اليهم بجيوشه وقتل رجالهم ونهب اموالهم وتغلب على مملكة
باريز ولكن لم تطل مدته ولم يوجد من يقوم مقامه في مملكته من
ذريته واهل دولته فولوا مكانه رجلا اسمه هوج كاي فصار فيهم
احسن سير ودبر لهم كل ما فيه خير وجدد لهم مصانع ومعالم ظهوروا
بها بعد خمولهم بين العالم وقويت في ايامه شوكة الدولة الفرنسية
وصار لها شهرة بين الامم وشهد لها جميع الدول التي حولها من
انكليز وعجم وجدد بها مدارس وورد اليها من اصناف التجارة ما
لم يرد في ايام من قبله وضم اليه من اهل المعارف من ساعده
وقوى في تدبير المملكة ساعده وكانت بيوتهم دوراً واحداً من
خشب فلما اتسعت عليهم الارزاق وانتمت التجارة من سائر الافاق
بنوها بانواع الاحجار وجعلوها ثلاثة ادوار الدور الاول معقود
كالقبة والذي فوقه مسطح ومرصص بالحزف واللبن وفتحوا في

الثالث شبابيك ووجد بالمدينة كل ما يلزم لاهلها من سلاح وملبس وطعام وكثرت بها العمارات والحوانيت في تلك الايام وثارت في ايامه فتنة بينه وبين الامراء القاطنين بالارياض وكان من حزب الملك الاشراف فحسم امرها واطفأ شررها وكانت احكام الديانة في ايامه تؤخذ بالتقليد المحض والنقل المجت سواء كان المنقول صحيحاً او غير صحيح ومعقولاً او مخالفاً للعقل

واستمروا على ذلك الى ان بنى بطرس ابياروهو احد اغنياء الامراء اذ ذاك مدرسته مجبل المتدسة ودرست فيها الفنون فانطلقت السنتم واتسعت دائرة معارفهم وكان اهل هذه المدينة في ذلك الوقت يبيعون ماكولاتهم في اماكن متعددة غير منتظمة ولم يكن بها معرض عمومي كالذي رايته وكانت عرضة للحوادث السماوية كما طرأ الشمس الى ان كانت ايام الملك فيليب او غست فامر بعمل سقائف وعين لكل سقيفة نوعاً يباع تحتها ويستظل اهلها بها وهو الذي بنى سراية اللوفر وفرش شوارع المدينة بالحجر واول من بنى خانات للفقراء وابناء السبيل وعمل اسواراً حول المقابر وتقدمت في مدته الفنون والصنائع فكانت ايامه كلها منافع لكن كانت ادارة البلاد محالة على مشائخها فظلموا اهلها وامتدت ايديهم الى اخذ الرشوة في الحكم وكانت المناصب تباع وتشترى ولا يولى فيها الا من بذل لاجلها المال او كان من اقارب شيخ البلد او اهله فحصل لاهلها من الذل والاهانة ما لم يسمع بمثله وخربت البلاد وتفرق

اهلها الى ان هلك فيليب وتملك بعده سنلويز وكان يميل لاهل
الديانة والانصاف ومحب عمارة البلاد وينفر عن الظلم واهله فشر
عليهم الوية عدله وامر بابطال ما فيه شائبة ظلم من اصله ورتب
للمأموري الاحكام مرتبات من طرف الدولة وانتخب من اهل كل
بلد رجلاً معروفاً بالصدقة ولاء عليها فعمرت البلاد وتراجع اهلها
وزادت عدتهم ورجحت في ايامه تجارتهم وعمل قوانين ونشرها في
مملكته فيها بيان ما يجب على المحترفين في حرفهم جزاء ارباب
الحمايات ومن احكامها ان يكون اداني الناس واسافلهم في جهة
مخصوصة وقد كانوا منتشرين في البلد لا يتميز ذو الشرف من
الوضيع ولا الدعي من ذي النسب الرفيع ورتب مجلساً للنظر في
تنظيم البلد وجعل على ارباب المحرف اموالا تصرف في ذلك
وقدر للباريزيين اوقاتهم بضرب الدفوف فكانت تضرب وقت
الفجر لا يقاطهم من نومهم ووقت الزوال لغذائهم واستراحاتهم من
اعمالهم وجعل في الكنائس نواقيس تضرب وقت العشاء فاذا ضربت
امتنع عليهم الخروج من منازلهم الا من كان معه اذن من ضابط
البلد او شيخها ووضع على ابواب الدروب سلاسل باقفال فكانوا
اذا جاء الليل قفلوها فلا تفتح الى طلوع الفجر ورتب على ارباب
الصنائع خفراً يدور بالليل حول البلد وداخلها وعليهم مفتشون
فاذا حدث امر كتبوه وعرضوه على الملك والمأمورين واصدر امره
ان لا يعافى من الخروج الى الخفر الا ارباب الديانة وذووا

العاهات والزمانة وطائفة المعمار والضربخانه وروساء الحرف وجعل على كل من لزمه الخفرو لم يخرج له مائة وخمسين فرنكاً في كل سنة إلا أن بعض الناس كان يحنى ببعض الامراء فيتخلص بهم من اداء ما يجب عليه وربما وزعوها على غيرهم فاشتكت الفقراء ذلك اليه فصرفها عنهم والزم بها اهل الحرف خاصة وقتئذٍ وكان عدد اهالي باريز ٨٦١، ٢١٥ نفساً وعدد كنائسها ٣٦ لكن لم يبق الآن منها واحدة على حالها بل منها ما هدم وبني ثانياً ومنها ما ازيل بالكلية وفي زمن فيليب اشتدت رغبة الناس في سكنى باريز فاشتراط انه اذا اراد احد درج اسمه ضمن عدادها لا يجاب الى ذلك إلا اذا توجه الى شيخ البلد واشترى قطعة من ارضها وان يتم بناءها في سنة وان لا يتقص قيمته عن ثلاثمائة فرنك ويشهد عليه بذلك شاهدين ويشترط عليه ايضاً ان يحضر اوقات الاجتماع كالمواسم والاعياد ومن ذلك الوقت صار اهلها درجات الاولى اهل الديانة وهي التي لها الكلمة على اهل الملة ورئيسهم

منهم

الثانية الامراء ووجوه الناس والاغنياء

الثالثة اصحاب الاملاك والمتوسطون من الاغنياء ورئيس

هاتين الدرجتين الملك

الرابعة الاغراب

الخامسة رعاة الناس واحادهم ودرجة هاتين الطائفتين

كدرجة الارقاء فلا يخرجون من يد الأّ وقعوا في اخرى وحدث في ذلك العهد شقاق بين الملك والبابا في شان ارض فرنسا لان البابا كان يقول ان جميعها من حقوق الكيسة والملك يمنع ذلك فاجتمع ارباب الحكومة واجمعوا على حسم هذه المادة واتفقوا على عقد مجلس مشتمل على ثلاثة عشر من الاشراف ومثلهم من رؤساء الديانة ومثلهم من اعضاء مجلس المدينة وسموا ذلك المجلس مجلس النواب لان كل صنف من رجاله نائب عن طائفة وعينوا لهم موضعاً يجتمعون فيه ووضعوها على باب صورة اسد رافع راسه الى اعلى وباسط ذراعيه اشارة الى انه يلزم كل من يريد الدخول في هذا المكان الاذعان للحق كيف كان وكان عقد هذا المجلس في سنة ١٢٠٢ والذي انحط عليه رأيهم هو ان الارض وما عليها لله سبحانه وتعالى وان الخليفة عنه فيها ملكها وان لا حق للبابا فيما يدعيه فلما اعلنوا ذلك كثرت المنازعات الدينية واخل امر الحكومة ودخل بين رجالها الغش والنقص فيما يتعاملون به من النقود حتى ضجر الاهالي وشكوا فلم يسمع منهم فقاموا على رجال الحكومة ووقع بين الطائفتين قتال شديد مات فيه كثير منها واسرت العساكر بعض الاهالي وقبضوا على نحو عشرين رجلا منها وقتلواهم وصلبواهم على ابواب المدينة وكان في هذه المدة ضربت نقود جديدة فامر بابطالها والمعاملة بالقدمة فتوقف الباعة وارباب العقارات في اخذها وحصل بين الناس ورجال المملكة مثل ما حصل

اولا وكثرت الجرائم وتفتحت ابواب المظالم وغلت النقود غلوا لا يطاق وضجت الخلق واشتد الامر واتقد في قلوبهم الجمر لاسباب اعظمها الانكباب على الترفه والزهو والاكتنار من اللعب واللهو حتى قامت الاهالي على الحكومة سنة ١٢١٢ من الميلاد فرفعت عنهم المظالم فلم يكفهم ذلك بل طلبوا اخراج اليهود من المدينة لانهم السبب في فقرهم وذهاب اموالهم فلم تمكنهم الحكومة من ذلك فقاموا جميعاً دفعة واحدة على بيوت الصيارفة واليهود ونهبوها وقتلوا من وجدوه فيها وحرقوا دفاترهم وصاروا يتبعون اثر اليهود فلم ينج منهم الا من الحق نفسه بالعسكرية او آوى الى ركن شديد وبعد ان اخمدت نار هذه الفتنة عمل الملك لولده فرحاً زينث له المدينة واوقدت الشوارع بالشموع وفرشت الطرق وساق اهل المدينة الى الملك هدايا جسيمة واوقدت الشموع نهراً في محلات الولاية وكانت براميل الشراب على عربات والناس يشربونه من حنفيات ومكث الفرح كذلك اياماً وبعد انتهائه امر بموكب ضرب لاجله من النواقيس ثلاثون الفا حتى تعجب الناس من وجود هذا القدر في مدينة واحدة وفي سنة الف وثلاثمائة واربعة عشرة اتهمت الملكة واختها وامراً معها بالزنا فحكم على الملكة بالحبس سبع سنين وقتل الآخرين وكذلك ادعي على كثيرين بان لم دخلا في هذا الامر فقتلوا جميعاً ولم يكن اشد على الامراء والاهالي من ايام فيليب السادس لانه من حين جلوسه على التخت انفتح

عليهم من المصائب ابواب وضائق عليهم الرحاب فمن قسوته وعنفه قتلته للامراء والاعيان سنة ١٢٤٢ واعقب ذلك وباء عظيم مات فيه اكثر اهل المدينة فلما اتت سنة ١٢٥٠ الزم اهل المدينة باموال جسيمة ليستعين بها في حرب الانكليز فادوها اليه بالرغم ولما خرج لحرب الانكليز لم ينجح له سعي بل غلب واسر كما هو شان مثله من اهل البغي فولي الحكم من بعده ولي عهده فكان اقبح منه سيرا واعظم ضررا وشرا ووقع بينه وبين اهل المدينة اختلاف في الاراء فقدمت اليه صكوك من جميع الامراء يرجون فيها رفع المظالم وكل مستخدم في وظيفته لا يليق بها فلم يلتفت الى ما قالوه بل جمعهم وتلا عليهم مقالة نثها على حسب عقله فلم يقلوا شيئا منها وقاموا جميعا الى بيوت الامراء ونهبوها وقتلوا من وجدوه منهم وكذلك فعلوا باتباعهم وكل من ينسب اليهم فعظم الخطب واشتد على ولي العهد وحاشيته الكرب فكان تارة يلين جانبه ان راي حزبه مغلوبا وتارة يرجع الى طبعه وعادته ان رآه غالبا ولم يزل الخلاف بينهم وبين اهل البلد يزداد لا الاهالي تمتثل لحكمه ولا هو يتقاد لرايهم ولما لم يدرك منهم اربا فرّ هو ومن تبعه هربا وكان راس العصبة التي قامت عليه شيخ المدينة فقال في نفسه اني لا يسعني الا الصلح مع ولي العهد والائتماء اليه وارسل له سرا يعهده بفتح باب من ابواب المدينة ليدخل منه هو ومن معه وعين له الباب والليلة والساعة فلما وصل الرسول الى ولي العهد واخبره بذلك صدقه وجاء بن

معه في الوقت الذي عين له فلما احس شيخ البلد بحجته امر رئيس
 المحرس ان يفتح الباب فامتنع وقال له انت تريد خيانة الاهالي
 فاغلظ شيخ البلد عليه في الكلام فضر به بيلطة كانت بيده فخر ميتاً
 وشاع الخبر في المدينة بان شيخها كان مقصوده الخيانة فكانوا لا
 يرون احداً من اصحابه الا قتلوه فقامت البلدة على ساق وتعطلت
 فيها الاسواق ودخل الناس بيوت الاغنياء فنهبوا ما فيها ولولان
 ادركهم اهل المجلس هلك الاغنياء جميعاً وبقيت باريز محاصرة تدافع
 ولي العهد الى ان دخلها عنوة لكنه الآن لم بعد ذلك جانبه وعاملهم
 بالانصاف وتبع اهل التعصب فقتلهم واعطى بعض اهل المدينة
 علامات شرف والمحمم بالديوان وانشأ بالمدينة مباني فاخرة
 ورخص لشيخ البلد وارباب المجلس في الحضور الى مجلس النواب
 لسماع ما يتعلق باستحقاق ولي العهد للملك اذ بلغ عمره اربع عشرة
 سنة وكان رشيداً ولما اتسعت التجارة وكثر اهل المدينة امر بتوسيع
 الدروب وكان الناس يصورون منازلهم بصور حيوانات ويكتبون
 على ابوابهم بعض كلمات وكثر في ايامه اللعب بالنرد والكرة
 والمثقلة وسائر الملاهي ما عدا الورق فانه لم يظهر حين ذاك فكانوا
 يصرفون في ذلك دراهم كثيرة فامر بابطال ذلك كله وقال انها
 تفسد الاخلاق وتضيق الارزاق ورخص في اللعب بكل ما فيه
 صحة للجسم وفائدة ولما مات حل بالاهالي ما ساءهم لان جميع ما
 كان مدخراً في خزائنه ما كان حصله ايام ظلمه وعدوانه واسائه

فاخذ الكرب عند ذلك نهايته واشتد البلاء بالناس فعول كثير منهم على ان يكونوا من حزب الدوك دوبورجونيا فانضموا اليه وصارت البلد فرقتين فقامت كل فرقة على الاخرى فمن وجدوه ليس منهم قتلوه ثم حضر الدوك دوبورجونيا بعسكره فقابله الحزب الذي كان التجاء به وذهبوا جميعا الى منزل عريف البلد قتلوه مع جميع قرابته وحزبه واحبته وقطعوه قطعاً ورموا بهم في الدروب فكانت تحوم عليهم الطير وتعبث بهم النساء والصبيان ويلعنهم اللاعنون على سوء سيرتهم فاستقامت احوال البلد بعد ذلك وافاق اهلها مدة غير طويلة ثم عاد عليهم الجور والذل بما نفص عيشهم وازعج نفوسهم حتى كادوا يهاجرون من وطنهم خصوصاً وقد كتب ولي العهد في ذلك الوقت الى ملك الانكليز يعزم عليه ان يجي بارييس ليفوض زمام المملكة اليه فلما اتى اليهم عملوا له يوم قدومه مهرجاناً عظيماً زينوا فيه البلد واخترعوا لعبة لم تكن معروفة قبل ذلك وذلك انهم اتوا بخشبة اطول ما يكون وطلوها بالدهن والصابون حتى صارت ملساء وجعلوا في احد طرفيها مبلغاً من النقود مع بعض طير غالي القيمة تحسن المنظر ثم رفعوها واباحوا ذلك جميعه لكل من وصل اليه فاستمر الناس يوماً كاملاً يعانون صعود تلك الخشبة واحداً بعد واحد لاخته ما عليها فلم يصل اليه الا واحد اخذه ونزل به ومن ذلك الوقت صار الباريزيون تحت حكم الانكليز فلم يخرجوا عن حكمهم الا على

يد جان دارك المعروفة بالبكر وكانت اميرة على جيش فما خرجت
في حرب الا عادت منصوره مظفرة فهي التي اخرجت الانكليز
واجلست شارل السابع على التخت وذلك سنة ١٤٤٦ من الميلاد
فسار فيهم سيرا حسنا الى ان امن شرهم وتمكن منهم ثم بغى عليهم
واصدر امر ظلمه اليهم فالزمهم باموال يؤدونها اليه لا يستثنى منها
احد وجعلهم ثلاث درج

الدرجة الاولى من اربعة الاف فرنك الى الف وخمسمائة

والثانية من ستائة الى مائة وخمسين

والثالثة من عشرين الى عشرة

ولم يتنصر على ذلك بل طمع نظره الى ما في الكنائس من النقود
والحلي فاخذ جميعه وصرفه في لذاته وقضاء اوطاره الفاسدة

وبسبب انكبابه على حظوظ نفسه وغفلته عن تدبير امر
الحكومة امتدت ايدي عساكر الانكليز الى البلاد فوقعت بينهم
حروب تعطلت بسببها المزارع وكثر عندهم القحط والوباء فكان
من مات من المدينة خمسة واربعين الفا وخرب من البلاد ما لا
يعد ولا يحصى ومع هذا كله لم يتحول الملك عن سيء حاله بل
ازداد سفها وترك الملكة للمتصرفين فيها بالفساد

وبالجملة لو اردت حصر احوال هذه الاهوال وما لحق المدينة
واهلها من الاضمحلال لطال الشرح واتسع مجال المقال ولم يزلوا
كذلك الى ان هلك الملك فملك بعده لويز الحادي عشر سنة

١٤٦١ فزيت له المدينة وعملت الولايم وفرح الباريزيون به فرحا شديدا وعملوا له موكبا لم يعمل مثله لمن قبله من الملوك فكان مما ابتدعوه في ذلك الموكب ان صوروا رجلا امام الملك على صدره صورة مركب من فضة يعنون بذلك باريزو خلف ذلك الرجل خمس نساء هدية للملك على صدر كل واحدة منهن حرف من حروف باريزو وضعوا على الباب الذي دخل منه الموكب مركبا فيها ثلاثة الوية لون كل لواء غير لون الاخر اشارة الى طوائف الملة الثلاث ورسوموا صورة الملك بين عمودين متساويين في البعد اشارة الى العدل ورسوموا امامه صورة ملكين يقودانه الى الحق ويحفظانه من كل امر ذميم وجعلوا في صدر الموكب رجلا ونساء عليهم ثياب المتوحشين كأنهم يقتتلون ومن خلفهم ثلاث بنات متجربات يغنين بالحنان الآلات وخلفهن عربات عليها شي كثير من المشروبات يشرب منها كل من اراد وما كان في هذا الموكب صورة المسيح وامه وصورة روح القدس والشهوات النفسية وطائفة في هيئة الصيادين بشباكهم وكلاهم وكأنهم يعانون الصيد وقوم في هيئة الانكليز كأنهم يحاربون رجال الملك وكأن رجال الملك غلبتهم واسرتهم وبعد ذلك كله طير مختلفة الانواع متشكلة باشكل غريبة الابداع ولم يزل الموكب سائرا امامه حتى ادخله الكنيسة على العادة ليؤدي ما يجب على امثاله من العوائد والعبادة ولم تحضر الملكة زوجته الا في سنة ١٤٦٧ وكان سيرها في البحر فلما

بلغ اهل المدينة قدومها خرج لملاقاتها الامراء والاعنياء في زوارق
واكرموها غاية الاكرام وصنعوا معها ما لا مزيد عليه من الاحترام
وادخلوها بموكب عظيم وعملوا لها فوق ما يليق لمثلها من التعظيم
وكانت سيرة هذا الملك جميلة وهنئة عالية جليلة ومحبة الباريزيين
له صادقة والسنتهم بالثناء عليه ناطقة يبذلون في رضاه انفسهم
واموالهم ويتركون لرأيه اراهم واعمالهم ولذلك لما وقع بينه وبين ملك
الانكليز ما وقع سنة ١٤٦٧ خرج معه منهم سبعة وثمانون الف
مقاتل بسلاحهم ومؤنهم فلما رأى الملك منهم ما رأى شكر فضلهم
وامر بشراب لهم سروراً بهم ومن مبتدعاته المحسنة مدرسة الطب
التي بالمدينة فانه اول من احدثها وكذلك النور الذي بالشوارع
حتى انه امر اصحاب البيوت والحنانات ان يضع كل واحد منهم على
باب خانة او بيته قنديلا وكان رأوفاً بالضعفاء شديداً على الامراء
يجلس للناس من غير حجاب ولا يمنع من الدخول اليه احد وكان
حميد السيرة الا انه كان اذا امر بشي لا ينزل عنه وكان مولعاً بحب
الطير والحيوانات الغريبة ومن شغفه بها كان اذا اعجبه شي منها
كتب اسمه وخاصته والجهة التي جلب منها والكلمة التي يحكيها
بصوته ومع ذلك لم يغفل عن تدبير الحكومة ولم يرتكب لسببه خصلة
مذمومة بل عافى الناس من عدة ضرائب واعان ارباب الصنائع
فيما يعود نفعه اليهم فمن ذلك ترخيصه في فتح دار الطباعة ولم تكن
موجودة من قبل واول من فتحها بباريز جماعة من الالمايين سنة

١٤٦٦ فلما فتحت اضرت بالخطاطين والنساخين فشكوا الى المجلس وساعدتهم ارباب الديانة قوهم انها من افعال الشيطان فصدر امر المجلس بابطالها وضبط الكتب التي بها فلما بلغ الملك ذلك امر بفتحها الا ان الناس لما زالت عنهم بعدله الاكدار وامنوا ما كانوا يقاسونه من الظلم وظهرت عليهم الرفاهية تشبهت النساء البغايا بالحرائر فصرن يلبسن جميعا ملابس الاحرار ولا تعرف البريئة منهن من الفاجرة وسكت البغية بجوار الحرة وانتظمت الصدفة في سلك الدرة فلما كثر ذلك صدر امر الحكومة ان لا يتزوي احد بزوي غيره لانه كان عين لمن ما يلبسه كالاخرمة القصب والفساتين ذات الذيل الطويل وارسال الباقية الى خلف الظهر وكان يكثر من ذم الامراء والاعيان الذين يميلون الى التغالي بالزينة والزخرفة وكان خطيب ذات يوم يحض الناس على التباعد عن الزخارف التي تأبأها الديانة والمروة فاشيع عنه انه سب الملك فقاموا عليه وكادوا يقتلونه فلما بلغ الملك ذلك سكن الفتنة وامر بابطال الخطبة وان يخرج الخطيب من البلد وينجو بنفسه ولحم الملك ولين طبعه كانت اسافل الناس في اخر مدته يهزأون باهل الديانة حتى صوروا البابا والحواريين في الملاعب وكثر ذلك منهم في مدة من تولى بعده ولكن كانت الحكومة محافظة على ناموس الديانة فكان لا يرفع اليها احد طعنًا في الديانة الا عاقبته فمن ذلك ما حصل لبعض الطباعين حين تجرأ على طبع كتاب فيه

ذم الديانة فضبطت كنبه واخذ وشتق ومن ذلك انهم حين اخذوه ليشنقوه صار الناس في اثناء الطريق يسبونهم ويؤذونه فقال لهم رجل ان قتله كافٍ في جزائه فضر به ضرباً مبرحاً وادعوا عليه انه نسب الى العذراء والمسيح ما لا يليق بهما فحكم عليه ايضا بالقتل والقائه في النار ومن ذلك الوقت صارت الديانة في اضطراب وادخل فيها بعض القسس اكاذيب من كل باب ونسبوا الى المسيح وادعوا انها من الكتب المقدسة وتمادى بهم الحال الى ان اشتبه الصواب بالحال وافترقوا ما بين ممانع ومدافع ومجادل ومنازع فظهرت الديانة البروتستانية فافتتن الناس بها وكثر الراغبون فيها حتى ادعى اهلها ان ديانتهم هي ديانة المسيح وضموا الكنيسة الرومانية ورجالها وصارت كل فرقة تتبع ذم الاخرى وتدعي ان طريقتها اولى بالاتباع واخرى حتى قام بعضهم على بعض ونشبت الحرب بينهم فقتل من الفريقين في ليلة واحدة زهاء الف الف وسبب هذه الفتنة ان امرأة يقال لها (ماري دوميديسي) دست على الملك ان الملك لا يلتزم وراحة رعيته لا نتم الا اذا قطع البروتستانيون عن اخرهم ولم تزل به حتى خدعته وصرفت همه الى ما اليه دعه ثم ذهبت الى البروتستانت وغرتهن حتى ادخلتهن باريز واستوطنوا بها ثم انفقت مع ووجيزان بحصي اسماء الدوكات من دفاتر الفردة ويعلم منازلهم بالطباشير وان يجمع الحرس ويفرق فيهم السلاح وان ينتشروا في شوارع البلد وحاراتها

وان يستعدوا لتنفيذ امر الملك بقتلهم ففعل جميع ذلك من غير ان يشعر به احد من البروتستانتين فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من شهر اغسطس الافرنجي سنة ١٥٧٢ ارسل الدوك ووجيز الى اصحابه واتباعه فاقظهم من نومهم وجعلوا له العسكر والحرس وعرفهم بالعلامات التي جعلت على ابواب المنازل وامرهم انهم متى سمعوا ضرب الناقوس هجموا عليهم دفعة واحدة فقالوا سمعنا وطاعة وانصرفوا فلما كان نصف الليل ضرب الناقوس فهجموا على بيوتهم وقتلوه عن اخرهم ومن شدة كراحتهم لم كانوا يشقون بطن الحيلي فيخرجون جينها فامتلات من رمهم الدروب وانتن من رائحتها شمال وجنوب وكان عدد من قتل من امرائهم واعيانهم خاصة في هذه الوقعة ستائة فاصبحت منازل الجميع خراباً وقام حاكم كل بلد من بلاد باريز على من يبلده من البروتستانتين ففعل بهم ما فعلت باريز بمن بها منهم واصل هذه الفتنة امرأة فانظر كيف اعتبت الخراب واليين وادت العداوة بين الطائفتين

فقال الشيخ هكذا فن النساء فانهن يضرمن نار الشر حتى يصل لهما الى عنان السماء فكم هن مثل ذلك وكم اوقعن رجالا في مهاوي المالك

فن ذلك القتال الذي استمر بين بكر وتغلب اربعين عاماً حتى ضرب به المثل في الشر وليس سببه الا امرأة تسمى هيلة ويقال لها البسوس وهي خالة جساس ابن مرة وكان لها ناقة

يقال لها سراب وكان من عادة كليب ان يحمي اوديته فلا يرعى
 فيها غير ابله حتى انه كان يحمي مواقع السحاب ويقول وحش
 كذا في جوارى فلا يهاج فمريوماً برعى كان قد حماه وفيه قنبرة
 قد باضت فلما رآته صرصرت وخفقت بجناحيها فقال لها من
 روّعك وانت في ذمتي وانشد يقول
 يالك من قنبرة بمعر

خلا لك الجوف بيضي واصفري

وتقري ما شئت ان تقري

فما جسر صاحب بعير ان يدخل ذلك المرعى فاتفق ان مرت
 ابل كليب على ناقة البسوس فعركت الناقة عنقها حتى قطعته
 وتبعته ابله فلما وردت الماء مع ابل كليب عرفها وظن ان جساساً
 اطلقها مغايظة له فانف وغضب ورمها بسهم فاصاب ضرعها
 فصارت الناقة تعدو والسهم في ضرعها حتى اتت الى فناء صاحبها
 وضرعها يشخب دمًا ولبنًا فلما سمعت البسوس عجب الناقة طرحت
 خمارها واقبلت اليها فاذا السهم معترض في ضرعها فصكت وجهها
 وقالت واذا له فلما سمع جساس قولها اسكتها وقال والله ليقتلن
 غداً فحل هو اعظم من ناقتك يعني كليباً ثم اتجع الحي فمروا على
 نهر يقال له شبيث فنهام كليب عنه وقال لا تردن منه قطرة ثم
 مروا على نهر اخر يقال له الأحص فنهام عنه فمضوا حتى اتوا
 الذنائب ونزلوا فمر جساس بكليب وهو واقف على غدير الذنائب

منفردًا فقال طردت اهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا فقال
كليب والله ما منعناهم من الماء الا ونحن له شاغلون فقال له
جساس هذا كفعلك بناقة خالي فقال او قد ذكرتها اما اني لو
وجدتها في غير ايلي مرة اخرى لاستحللت تلك الابل فعطف عليه
جساس بفرسه فطعنه بالرمح فارداه ووجد الملك فقال يا جساس
اسقني فقال هيهات تجاوزت الأحص وشيئًا ثم اجهز عليه
وعطف الى اهله فلما رآته اخنه من بعد قالت لابيها ان لجساس
شأنًا قد جانا خارجة ركبناه فقال ابوها والله ما خرجت ركبناه
الا لامر عظيم يعني انه كان بركبته وضح لا يظهره فلما جاء قال له
ابوه ما وراك يا بني قال طعنت طعنة لتشتغلن بها شيوخ وائل
زمنًا فقال أقتلت كليًا قال نعم ثم نظر جساس الى اخنه وكان
اسمها نضلة فقال لها

واني قد جنيت عليك حربًا * تغص الشيخ بالماء القراح
مذكرة متى ما يصح منها * فتى سبت لآخر غير صاح
فاجابته تطيب نفسه وقالت

وان تلك قد جنيت علي حربا * فلا واه ولا رث السلاح
ثم هرب جساس وقام مهلهل في طلب نار اخيه ووضع
الحرب بين الحيين فاستمرت اربعين عامًا حتى ضرب بها المثل وكم
لذلك من امثال ونظائر واغرب منه ما كان من الزباء الى ان

وضع قصير من قتلها في الغرائر فحدثنا كيف كان حال المملكة بعد هذه المعركة

قال عم الخراب ضواحيها وسرى منها الى سائر نواحيها وصار من بقي من البروتستان يتربص فرصة للقيام واهل الديانة الاصلية تحزب احزاب الانتقام وتغريهم بن بقي من البروتستان وكان الرئيس على المدينة وقت ذاك الدوك ووجيز فاراد الملك هنري الثالث الاستبداد والاستقلال فتنازعا وصار الناس قسمين واريقت بينهما الدماء حتى وصل غبار الحرب عنان السماء واختل امر الحكومة اي اخلال وتمادى الامر على هذا الحال الى ان عقد مجلس الستة عشر وانما سمي بذلك لان اعضاءه كانت اولا كذلك ثم زادوا وبلغوا اربعين فكانت امور المدينة مسندة اليهم لا يبالون بملك ولا غيره فحنق الملك من ذلك وامر بابطال المجلس فلم يلتفتوا الى قوله ولم يعول احد من اهل المدينة على رأيه فاغلظ عليهم في ابطاله فقام عليه اهل المدينة وقتلوا معظم رجاله واما هو ففر هارباً ثم وجدوه مقتولا فدفنوا رتمته وعدوه من المقدسين

فقال الشيخ يحكى انه في زمن الملك قباذ والد كسرى انوشروان حدثت فتنة من هذا القبيل وكان سببها ان ظهر في ايامه رجل زنديق يقال له مزدك فادعى النبوة وحدث مقالات في اباحة الفروج والاموال وقال ان الناس في ذلك سوء لانهم جميعاً اولاد آدم وحواء وحرم سفك الدم واكل اللحم فاتبعه خلق

كثير فكان قباد ممن تبعه فدخل مزدك عليه ذات يوم فوجد عنده زوجته ام كسرى وكانت من اجل النساء فاعجبته فقال لقباذ اني اريد ان اتكهنها فان في صلي نبيا واريد ان يكون منها فاطاعه قباد لكونه على مقالته وعقيدته فلما هم مزدك بها دخل عليه كسرى وكان صغيرا فقبل قدميه وتضرع اليه ان لا يفعل بها فوهبها مزدك له فلما مات قباد وقعد ابنه كسرى انوشروان على التخت مكانه جمع جميع خواصه ليعاهدهم فكان مما قاله لهم اني اشهدكم على اني لا ادع احد من المزدكية الا قتلته لانهم اباحوا نساء الناس واموالهم وجعلوها مشتركة بينهم لا يختص احد بامرأة ولا مال حتى اخلط اسافل الناس بعناصر الكرماء وسهل سبيل الفواجر والفاجرات الى قضاء الشهوات واتصلت السفلة اللئام بالنساء الكرام اللائي ما كان مثل اولئك ان ينظروا اليهن اذا رأوهن في طريق

فقال له مزدك الزنديق هذا فساد في الارض والله ولاك
لتصلح لا لتفسد

فقال له انوشروان اتذكر يا بن الخبيثة حين سألت والدي ان ياذن لك في المبيت عند امي فاذن لك فمضيت نحو حجرتها فلمحت بك وقبلت رجلك وان تنن جواربك ما زال في انفي الى الان وسالتكها فوهبتها لي قال نعم فامر به فقتل واحرق جيفته ونودي باباحة دماء المزدكية والمناوية المحجوبة واظهر الديانة القديمة

وكتب بذلك الى عمال الولايات فقتل منهم خلق كثير وقسم اموالهم على الفقراء ورد الاموال التي لها اصحاب الى اصحابها والحق كل مولود اخلف فيه بمن يشبهه وان كان من المزدكية جعله عبداً لمن حملت به منهم وامر بالنساء اللائي تبرأ منهن اهلن او مات من يقوم بهن فجمعن في موضع واجرى عليهن ما يلزم لهن وان يزوجن من مال والده وازاف البنين الذين لم يوجد لهم اب ولا شبيهه الى ماليكه ثم قال الشيخ فغالبا ما يحصل بين اهل الديانات من مثل هذه الحوادث الفظيعة سببه اكاذيب واوهام تلقيها اهل الباطل فيما بينهم ثم يدخلونها على العوام فاما ان يقبض الله لها من يدحضها والا عدت حكما من الاحكام

فلما سكت رجع الانكليزي الى بقية حديثه وقد علم رغبة الشيخ في سماعه فقال ثم انه بعد هذه الحادثة وموت هنري الثالث قام هنري الرابع وكان بروتستانيا واراد دخول المدينة فقفلت دونه الابواب وقالوا له لا نملك علينا الا من كان منا فحاصرها ومنع دخول كل ما كان يرد اليها فاشتد في المدينة الغلاء وحل باهلها القحط والوباء ومع هذا كانت القسس تحثهم على القتال وتحذرهم من التسليم له فكان بعضهم وهو في اخر رمق يأخذ سلاحه ويخرج مع المقاتلين ويقول ان لم يكن في ذلك صلاح في الدنيا ففيه حفظ للدين فلما طال مدة المحاصرة وعجزوا عن المقاومة دخلت المدينة من الفيل والنير والحبة والتطير ورأوا القسس تبع شيئا

كثيراً من الغلال ولا تُرثي لما هم فيه من القحط لم يسعهم إلا أن قاموا دفعة واحدة على بعض الدبورة فوجدوا فيها شيئاً كثيراً من براً وخبز وادام ولحم قديد فاخذوه وتقاسموه ثم امر المجلس بتوزيع الفقراء وذوي العاهات على الدبورة كل دبر بحسبه وقدّر لكل شخص شيئاً معلوماً من الخبز والادام فلما علم القسس ان لا مفر من امر المجلس صاروا يصطادون كل ما عثروا به من الحيوانات ويطبخونها لهم بدهه وامعائه ويأتون مكان الخبز بعظام الموتى فيسحقونها ويلتونها بتراب وماء ويعملون منه خبزاً فلما تمدى الحصار وراوا ان حالهم آل الى الهلاك والدمار فر منهم خلق كثير وذهبوا الى الملك وطلبوا ان يأذن لهم بالخروج لاجل ان يتحصلوا على ما يقتاتون به فاذن للفقراء والعجائز والنساء فخرج منهم نحو ثلاثة الاف نفس ثم امر بال منع من الخروج ثم لما رأى ان حصارهم قد طالت مدته ولم تحصل به امنيته دبر في نفسه انه لا يتمكن من المدينة واهلها ما دام على المذهب البروتستاني واهل المدينة كاثوليك وان الراعي والرعية لا يستقيمان الا اذا كانت ملتها واحدة ودعوتها متحدة ثم اخبر خواصه بذلك فقالوا الراي ما رأيت فلما علم انهم وافقوه ارسل الى المدينة يخبرهم بدخوله في دينهم وذلك سنة ١٥٩٥ ففرحوا به وفتحوا له الابواب وكانت مدة الحصار نحو خمس سنين فلورأبتهم حين دخلها لرأيت منهم شيئاً عجيباً وقد قويت منهم العزائم واكثروا لاجله الولائم ولما تملك ودخل المدينة لم يكن له غرض

سوى عمارتها وانتظام امورها فاول شي بدأ به ان عمل قوانين للعدل بين اهلها ثم اتخذ في اسباب انتعاشهم واتساع دائرة معاشهم فنظم طرقا وفتح شوارع ووسعها الا انه عانى في فتح هذه الشوارع مشقة عظيمة حتى ارضى اصحاب الاملاك لاسيا القسس منهم لانهم كانوا يتعرضون للبناءين والفعلة لعدم سابقة لمثل هذا ومع ذلك فقد تم مراده واصبحت المدينة كثيرة الميادين والشوارع خصوصا الميدان الذي هو داخل السراي الملكية الآن ومن حبه لنظافة المدينة واهلها خص قوماً بكس قماماتها ودفع وحلها وفي ايامه وایام من بعده وهولویز الثالث عشر كثرت العربات وترتب على ذلك كثرة العرجية فكثرت حركاتهم بالليل ووقعت بينهم المنازعات حتى سرت منهم الى ابناء الامراء وسبب ذلك كله النساء فتضرر الاهالي ولم يزل الحال على هذا الى ان عمل ريشيليو قوانين العقاب فنقص بعض نقص ثم لما تغيرت احوالهم وانتقلت الى درجة الرفاهية غيروا هيئة بيوتهم فبنوها بالحجر بدل الخشب وزخرفوها بالرسوم خصوصا اعيانهم واغنياءهم ولم يزلوا في تقدم الى ان تولى لویز الرابع عشر فزادوا في الرفاهية والتمدن وفتحت في ايامه مدارس العلم واحترمت اهلها وانشاء رصدخانة ومعامل لتكرير البارود وكثرت في ايامه انواع الملاهي والملاعب المسماة بالتباترات وزين اللوفر بالعمد التي حوله واحداث في المدينة ميادين للنزهة منها ميدان الكادوريل الذي عمله للوليمة سنة ١٦٦٢ وميدان فندوم

وميدان النصر وإنشأ حول المدينة أبواباً غير أبوابها الأصلية منها باب النصر الذي وضع أساسه مارتان وردم باباً كان أنشأه انتون وقد هدم سنة ١٧٧٧ وردم الخنادق وغرس الأشجار التي ترى الآن حول البلوار وإزال تلالاً كانت تضر بصحة اهل المدينة ومن حولها وبني محلها ابنة بديعة ورتب مصايح في الطرق وخص رجالاً لاطفاء الحريق وظهرت في مدته العربات الكبيرة المعروفة بالامنيوس ولم تكن موجودة من قبل وخصصها باماكن معينة وجعل لكل مكان اجرة معلومة ولكن لغلو اجرتها كان لا يركبها الا من لا يستطيع ركوب العربات المعتادة ومنع من ركوبها العربية ونحوهم وكانت اولا سبعة ثم صارت اثني عشرة ولهذا كانت قليلة الراج ثم في سنة ١٨٢٨ رخص في ركوبها لكل من اراد وفي ذلك الوقت كان مأمور الضبطية وناظر المالية واحدا فلما رأى الملك ان الواحد لا يقوم بالوظيفتين كما ينبغي امر ان يعين لكل وظيفة واحد وبسبب هذا التنظيم أمن الساس على اموالهم واهليهم واتسعت عمارة المدينة وكثر الوافدون اليها حتى بلغ عددهم في ايامه خمسمائة الف نفس وعدد الدروب خمسمائة وعدد الميادين مائة والقناطر تسعاً وعدد المنازل اثني عشر ألفاً الكبير منها اربعة الاف ولكن في ايامه عزت التقود وبلغ دين الحكومة غايته لما احداثه من العمارات والتنظيمات واحصى الدين بعد موته فكان ثلاثة مليارات من الافرنك فأنشأ جان لاو وبنكا للمصارفة وجمع فيه

ستة ملايين من الليرات فجزأها الى الف ومائتي سهم كل سهم ستة
 الاف وستمائة وكان من شروط ذلك البنك ان يقبل فيه بدل
 النقود اوراق حوالات فلما اخترع ذلك تعامل بها الناس غنيم
 وفقيرهم حتى صار ملحقاً بالتجارة وهرع اليه الناس ولما اشتهر امره
 وضع صاحب البنك في جهات امريكا عدة مساهمين ثم اجتمع
 البنك والكومبانية وصار مالهما واحداً وادارتها واحدة فبلغت قيمة
 السهم الواحد تسعة الاف ليرا وذلك سنة ١٧٢٠ ثم في سنة ١٧٢١
 صدرت اوامر الحكومة بنقص قيمة الاسهم تدريجاً وحدد لذلك
 ميعاد غايته اول شهر ديسمبر من السنة المذكورة وان كل من تاخر
 عن الميعاد المذكور نقص قيمة سهمه فتضرر من ذلك اكثر الناس
 وفي سنة ١٧٧٠ اجتمع ناس وارادوا ان ينوروا شوارع باريز بالزيت
 وجعلوا على كل مصباح في السنة الواحدة ثلاثة واربعين ليرة
 واثنى عشر صولدي ليس منها ثمن العواميد التي تحمل المصابيح
 فكانت باريز في تلك الايام على غاية في التقدم وكثر بها المؤلفون
 ورحل اليها كثير من اهل اوروبا وخفف فيها شان العقوبات
 فكان كل انسان يتكلم بحريته ويكتب ما شاء من احوال الخلق
 سواء كانت خصوصية او عمومية سياسية او دينية وظهر فيها رجال
 ذوو افكار فالفوا كتباً انتشرت في سائر الاقطار فانجلت عنهم
 غياهب الجهل وتميزوا على غيرهم بالعقل وبلغ عدد منازل باريز
 في تلك الايام خمسين الفا منها خمسون لوكدية وعدد الدروب

ات المصايح سبعمائة وسبعة وستين وكان بها من الكنائس
 ات النواقيس ست واربعون ومن غيرها عشرون واحدى عشر
 كية للفقراء ثلاث للرجال وثمان للنساء ومن الديورة مائة وثلاثة
 ثلاثون ومن المدارس عشر وكان بها تسعة وعشرون مارستاناً
 خمسة واربعون مجرى لخراج القاذورات وستون حفية واثننا
 شر سوقا وثلاثة ابواب يقال لكل واحد منها باب النصر وخمسة
 باكل من التنج فان لحق باريز من القيام الاول بعض الاضاحلال
 انها من بعده الى الآن لم تزل آخذة في التقدم بكثرة المباني
 المعابد الدينية والمدارس والامكنة الخيرية كالمارستانات
 اللوكاندات ومحلات اللهو والتياترات فترى كل من احب
 ان يتمتع نظره جاءها او يرى ابداع مخترع قصد ارجائها فهي
 ركز اللهو والانبساط وكل بدعة في الدنيا لها بها ارتباط لانها
 حازت محاسن الدنيا اجمع وليس من يرى كمن يسمع وما يدل
 الى انها انتقلت من حالها الاول ان مساحتها في الاصل كانت
 تزيد عن ستين فدانا مصرياً يحيط بها سور مبني كبناء القرى
 ما زالت تسع ويكثر اهلها الى ان بلغت مساحتها خمسمائة
 دان وذلك بعد موت فيليب دو كيش وبني حولها سور محكم في
 اية الارتفاع وجعل فيه ابراج ومزاغل في غاية الاحكام والتحسين
 بلغت في القرن الرابع عشر والخامس عشر تسعمائة فدان وفي
 ام لويز السادس عشر وقيام الدولة الفرنسية القيام الاخير

وذلك سنة ١٧٧٢ بلغت مساحتها الفين وستمائة وسبعين فدانا ثم في سنة ١٨٠٠ بلغت ستة آلاف وخمسمائة فدان واما الآن فهي ضعف ذلك ولا يخفى على حضرتكم ان سعة المكان تابعة في الغالب لكثرة السكان فقد بلغ عددهم الآن نحو مليون ونصف بعد ان كانوا في القرن التاسع والعاشر لا يزيدون عن ٢٣٠,٠٠٠

ثم قال الانكليزي وفيما ذكرناه كفاية وان كان ما قيل بالنسبة لما يقال في حقها قليلاً الا ان ما لا يدرك جله لا يترك كله ولكن بقي امر اريد ان اخبركم به وهو ان صاحبنا الذي كنا اجتمعنا به حين كنا ببرساليا ارسل تذكرة يسلم فيها على حضرتكم وعلى نجلكم ويعتذر اليكم في عدم ارساله جوابا مخصوصا لكم بان لسانه في العربية لا يفي بما يجب لجوابكم وانه بعد يومين يكون عندنا بباريس وارسل ايضا يستفهم مني عن امر يتعلق بجوابكم كان سألني اياه حين كنا هناك ولم اتفق معه فيه على شي وقد ارسل الآن يطلب الافادة عنه

فقال الشيخ وما هذا الامر

فقال انه كان تمنى علي ان اترجى حضرتكم في ان تعطوا لجمعية المعارف المشرقية بعض دروس من الفنون العربية وانما لم اخبركم بذلك حين كنا هناك لكونه لم يكرر علي فظننت انه نأى عنه وهذا الرجل من اعيان تلك الجمعية فها هو الآن ارسل يطلب الجواب وهو موقوف علي رأي الجنباب وهؤلاء الجماعة كلهم امرأ

علماء كرماء وتعرفكم بهم مما يزيد في شهرتكم ويرفع من درجتكم فضلا
عن الحصول على مال بوجه حلال وقد اخبرني ذلك الرجل ان
مرادهم ان يجعلوا لحضرتكم في كل درس خمسين فرنكا
ولا مشقة عليكم في ذلك فان زمن الدرس ساعة ونصف فالراي
عندي انه اذا اتى وخاطبكم في هذا الشأن ان لا تمتنعوا فان فيه
فوائد كثيرة اقلها اطلاعكم على غوامض عوائدهم التي لا تعلم الا
منهم خصوصا وقد قيل بارك الله في من نفع وانتفع
فاننى الشيخ على مقصده الحسن وكان قد حان وقت الصلاة
فاستاذن وقام الى مصلاه فصلى ثم نام

المسامرة الثانية والثمانون

البألو

ولما اسفر الفجر قام وصلى ثم دخل عليه ولده فقبل يديه
فسأله كيف كانت ليلتكم وما الذي رأيتموه فيها فقال ما رأيت الا
نوعا من الجنون حتى تحقق عندي معنى قولهم الجنون فنون رأيت
الشيخ هناك لا يوقر شيئته والامير لا يراعي مقامه وابته وكل انسان
تنازل عن قدره لا تميز بين وضعهم وشريفهم ولا بين غنيمهم وفقيرهم
ورأيت اقواما في صفات مختلفة منهم من ستر وجهه بقماش رقيق
ومنهم من ستره بالجلد ومنهم من ستره بالورق ومنهم من صبغه
بلون الورد ومنهم من تلثم وكأن الشيب لاح بعارضيه ومنهم من
جعل له لحية وكأنها جاوزت ثديه ورأينا الوان اجسامهم مختلفة
فمنهم الاسود والاحمر والابيض والاشقر وغير ذلك من الالوان التي

لا تكاد توجد في نوع من الانسان ومنهم من ستر عورته بجلد كالحجرب ومن وضع على ظهره فروة كهيئة الاعراب وغير ذلك من الهيئات والصفات وسمعت هناك اصواتا مختلفة وانغاما متنافرة غير مؤلفة ولما رأيت ما هم فيه من المجنون تمنيت الرجوع ولا احضر هذا المجنون ولولا ان من شرط المرافقة اللين والمواقفة لرجعت ولا كنت رايت ولا سمعت فان يعقوب حين وصلنا الى هناك قبض على يدي فتبعته فسار لي نحو ساعة الى ان وصلنا محل التذاكر فاخذ تذكرتين ودفع في كل تذكرة افرنكين ثم سرنا في متسع من الارض حتى وصلنا ميدانا فيه من انواع اللطائف واشكال الرسوم والزخارف ما لا يحصى فوجدناه ملانا نساء ورجالا وكهولا واطفالا ولاخلاف هيئاتهم لا تعلم اجناسهم وحول ذلك الميدان غرف كثيرة منها ما يسع واحدا ومنها ما يسع اكثر ومنها المظلم ومنها المضيء فقعدنا في احداها فلم يمض الا لحظات واذا بالالات قد ضربت وقام غالب من بالميدان فرقص عليها فكانت تسرع تارة وتبطئ اخرى وهم معها في البطئ والسرعة فكانوا يقومون للرقص مثنى وفردى الرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل فيرقصون ساعة ثم يقعدون ليستريحوا ثم يقومون ثانيا او يقوم غيرهم ولهم في رقصهم حالات فتارة يقومون صفين ويسيرون خلف بعضهم الى وسط الميدان ثم يعود كل صف الى موضعه الذي بدا منه او يقوم موضع الاخر وتارة ياخذ احدهما بيد الاخر ويدوران خلف بعضهما

وكيفية حركتهم في حال رقصهم ان يضربوا الارض بارجلهم فتارة يضعون واحدة ويرفعون الاخرى وتارة يضعونها ويرفعونها جميعا ومن الغريب ان غالب الراقصين والراقصات من المتفرجين لا من ارباب المحل ولكل كيفية من هذه الكيفيات اسم معروف بينهم كما اخبرني يعقوب منها ما يسمى بولكا ومنها ما يسمى الكانكان ومنها ما يسمى الولس وقد اخذني يعقوب في بعض سككات الاستراحة ودخل لي مكانا داخل المكان الاول فرايت فيه قوماً اخرين منهم من يلعب القمار ومنهم من يشرب السجارة وغير ذلك والكل في هيئته المعتادة لم يغير منها شيئاً فما نظرت الى رجل منهم الا وهو يلاغيني ولا امرأة الا وهي تناغيني ففهمت من كلامهم ان مقصودهم الرقص معي او الجلوس معهم ولكون معرفتي بلغتهم لم تبلغ درجة معرفتهم بها كان يعقوب يبادر بالاجابة عني ويخبرهم اني مصري لا معرفة لي بشي من هذا الامر من اصله وان محيئي انما هو من باب قولهم العلم بالشيء خير من جهله وما رأيت هناك رجلاً الا ومعه المرأة والمرأتان وتارة يكون مع المرأة الرجل والرجلان فسألت يعقوب هل بين هؤلاء النساء والرجال نسب فقال لا نسب ولا حسب وانه ربما يجتمع الرجل مع زوجته او امه او ابنته ويقطعون زمنا في هزليات وسخریات ثم يفترقون ولا علم لاحدهما بالآخر لما يحصل من التغير والتشكيل الذي رأيت وانه قد يجتمع في مثل

هذه الليالي كثير من الشبان فيصرفون فيها مبالغ جسيمة وإن
 الفاحشة بينهم ليست قاصرة على أهل المدينة لأنه يحضر من الأرياف
 بعض نساء إما لتعثر لها على خدمة وإما لتنظر لها صاحباً فلذلك
 يكثر الفحش والمنكر في مثل هذه المواضع من غير منكر ولا مانع هذا
 ما كان وإظن أنه بعض ما حواه ذلك المكان ولا أكتب عنك ما
 رأيت ولا ما أرى لعل ببركتكم يغفر لي ما خطه القلم وبه جرى

فقال الشيخ لولده أو قد نظرت إلى ذلك كله وملأت عينيك
 مما لم يقل أحد بجله ألهذا أرسلتك أو على مثله عودتك أما علمت
 أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه أما سمعت قوله صلى
 الله عليه وسلم إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم أنسيت
 قوله عليه الصلاة والسلام عن ربه ذي الجلال والإكرام النظر
 سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد
 حلاوته في قلبه فالتوبة استعد ومثلها لا تعد وبينما الشيخ يعظ ولده
 ويعنفه على ما حصل وإذا يعقوب عليهما قد دخل فقطع الشيخ
 كلامه ووجه الخطاب إلى يعقوب ولامه إنما الآن له الخطاب
 ليقف على ما عنده من الجواب فقال لم يكن مقصودي من إرساله
 معك ألا تتطلع على أحوال هذه المدينة وإهلها لا لتطلع على مثل
 هذه الأمور إذ لا ضرورة إلى معرفتها

فقال يعقوب يعتذر إليه ياسيدي لا تواخذني فاني أعلم يقيناً

ان حضرتكم تأنفون من حضور هذه المواضع ولكن عذري ما علمته
 فيكم من الرغبة في الوقوف على عوائد هذه البلاد واهلها فذهبت
 به اليها لتقفوا به على معرفة هذه العادة ولو كنت اعلم ان ذلك
 يخل بحسن التربية ما ذهبت به والذي اخبركم به نجلكم وان كان
 منافيا للوفار والكمال الا انه مألوف لهم مرغوب فيه عندهم فان لم
 يلبوا والرقص شغفا زائدا حتى ان الامراء والملوك لتفعله في
 بيوتهم ويدعون اليه احبابهم من نساء ورجال
 واما الاماكن المعدة له كالذي كنا به الليلة فلا يذهب اليها
 الا فقراء الناس وغرباؤهم

ومن عوائدهم ان كل من دعي الى البالد ولو كان دني
 المحرفة لا يذهب الا في ثياب غالية القيمة زائدة الكلفة وانهم
 يعتنون بشان نسائهم اكثر من اعتنائهم بانفسهم حتى ان الرجل
 منهم ليرغب في ان تكون امرأته او بنته هي المنظور اليها دون من
 عداها فتجدهم يبالغون في حلية نسائهم ويصرفون فيها اكثر مما
 يصرفونه على انفسهم حتى لو اعسر الرجل لا تلتبس له امرأته عذرا
 بل تضايقه حتى يأتي لها بما تنزين به جبراً وقهراً ومن عوائدهم ان
 لكل وقت عندهم حياة مخصوصة لا يتعدها ولا يلبس فيه ما عداها
 وان نسائهم هن اللاتي بيدهن الحل والربط داخلا وخارجا فلا
 يتصرف الرجل منهم في شي الا باذن امرأته

فقال الشيخ لعمرى ما في هذا كله شي يمدح بل لا ثرة له الا
الشتاق وفساد الاخلاق فان المرأة بالنسبة للرجل كالنار بالنسبة
للحطب فكما يترتب علي اجتماع الحطب والنار الانتهاب والاتقاد
كذلك يحصل من اجتماع الرجل بالمرأة وقوع كليهما في كثير من
انواع الفساد ولولا تمكن هذه العوائد منهم وتوارثهم لها عن متقدميهم
لما الفوها ولا شكروها ولكن العادة محكمة



المسامرة الثالثة والثمانون

اهرام مصر

والقاييس

ثم قام الشيخ واخذ ولده ويعقوب وتوجهوا الى محل الانكليزي
فسلموا عليه ثم خرج ابن الشيخ مع يعقوب وبقي الشيخ والانكليزي
يتجادبان اطراف الحديث من القديم والحديث وبينما هما كذلك
واذا برجل من اصحاب الانكليزي فقام له واجلسه بجوار الشيخ ثم
اخذ يعرف الشيخ باحواله وكثرة سياحته وان له معرفة تامة باللغة
الفارسية والتركية والعربية وعليه في مدرسة الجمعية المشرقية
دروس يلقها بهذه اللغات فلما سمع الشيخ ذلك عظم الرجل في
عينه وقال الان تم الارب حيث ظفرت في هذه البلاد برجل
يعرف لغة العرب فلعلي اكنسب من معلوماته فوائد تحل من

سياحتي محل واسطة العقد من الفرائد اذ لذة مجالسة العلماء فوق
لذة الظمان بشرب الماء

ثم قال الرجل للشيخ ايها الاستاذ ان طبعنا ميل كل الميل
لمعرفة اخبار بلاد المشرق وقلوبنا محيولة على حب اهلها لاسيما
المصريين فان جميع العلوم النافعة في بلادنا منقولة لنا منها بواسطة
الرومانيين وغيرهم والتقدم الذي تفخر به بلادنا منشأ مصر فلها
علينا الفضل بل على جميع سكان الكرة فكما نحن فيه من التقدم
والثروة سببه المصريون فيا لهم من قوم ادخلوا ذخائر اتفع بها
بعدهم الا اخر فانهم قد وضعوا اساسات ابني عليها لمن بعدهم
هذه التقدّمات وهذه العلوم الموجودة الآن هم المؤسسون لها وهذه
الصنائع الفاخرة كان لهم فيها اليد الطولى على اهل القرون الاولى
وما بقي بعدهم من الاثار والمآثور عنهم في كتب الاخبار من الابنية
الجليلة والصنائع الجميلة يعرب عن مزيد قدرتهم وشدة مهارتهم
وعلو افكارهم

فقال الشيخ ما ذكرته لمصر من المحاسن بهذا الاسلوب من
باب نظر المحب للمحبوب كما قال الشاعر
وعين الرضاعن كل عيب كليله

كما ان عين السخط تبدي المساوبا

فقال الرجل ايها الاستاذ وحق من جعلك للعلوم كهفا
حاك كالا . لطفا انه لا المصم . لكنا الم . الان . غة . في

بجار الجهل حائرين في اودية الضلال لا نعرف كيف التمتع بلذات الدنيا التي اعدّها الله لنا سبحانه فوحقك اني منذ ازمان احب ان اسافر لتلك البلدان وادور في نواحيها واطلع على ما فيها من عجائب الآثار التي لا نظير لها في قطر من الاقطار ولكن يحول بيني وبين ذلك خطوط الزمان وصروف الحداث ومع ذلك فاني عازم على السفر في هذا العام ولعلنا نجتمع معا على شاطئ بحر النيل

نعم ان السياحين ما تركوا خبراً الا ذكروه ولا اثرًا الا تقلوه على حسب ما شاهدوه ولكن ليس الخبر كالعيان وفي هذه المدة سهل السفر في البر والبحر بواسطة آلات البخار فانها تقطع بعيد المسافات في اقرب الاوقات فخفت مشقة السفر وصار الامن عامًا وامتنع ما كان يخشى في الاسفار من الغوائل

فاجابه الشيخ بالبشر واطهار المسرة والشكر والارتياح للقاءه في

مصر

فشكر الرجل الاستاذ ثم قال له هل بمصر الان ما يسهل الامر على السياحين من بيوت معدة لاقامتهم ووابورات برية ومجرية تسهل امر الذهاب والاياب وغير ذلك مما يلزم ايام السفر

فقال الانكليزي الان لا فرق بين القاهرة ومدن اوربا فان فيها لوكدات مختلفة الانواع وفي نيلها ووابورات مختلفة القوى تسير على راحة السياحين وتذهب بهم حيث شاءوا فضلا عن

السفن الشراعية المزخرفة باحسن الزخارف المستكملة الآلات
والادوات فتجد السائح يختار احدى السفن ويركبها مع من احب
او بمفرده ولا يزيد عليه المصروف عن مائتي جنيه مدة شهري
السياحة اللذين يقضي بعضهما في الاقامة بمصر وضواحيها وبعضهما
السياحة جهة صعيدها ما بين اكل وشرب واجرة اماكن وسفن
ورجال وغير ذلك

وان من الله سبحانه عليّ وكنت بمصر ذاك الوقت لازمتكم
وكنت لكم الدليل لاني وان سبق لي رؤية كثير من بقاعها
واطلعت على جميع الاثار الموجودة بها لكن اود ان اراها مرة ثانية
فانه كلما تكرر نظرك اليها ازددت علما جديداً واطن ان كل
جيل يأتي لا بد ان يرى غير ما رايناه ويعلم غير ما علمناه فانظر الى
اهرامها وعظيم بنيانها حيث وصفه كل انسان من بعد امعان النظر
اليه كل الامعان جيلا بعد جيل ومع ذلك فكل وصفه بغير ما
وصفه به الاخر من الكيفيات مع ان كلا ما ذكر الا ما رأى فتجد
البعض وصف شكله واصله وسبب منشئه والغرض منه ولم
يوافقه من اتى بعده فبعضهم قال انه مدفن لاحد الفراعنة وبعضهم
قال انه كان محلا يرصدون فيه النجوم ومنهم من قال انه من الاثار
الجليلة التي جعلها المصريون محلا لمعارفهم واثرا يستدل به من اتى
بعدهم من الامم على ما كان لهم من الابهة والفخار والعظمة والاعتبار
فهو اثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا اليه من العلوم

الهندسية وعلم جر الاثقال وفنون انواع العمارة ويدل بوضعه
الذي هو عليه وتوجيه زواياه على انه اثر فلكي وبه معبد للديانة
واذا حسب ما في اجزائه من النسب الصحيحة بالنسبة لبعضها
وبالنسبة للدرجة الارضية دل على انه اثر لبقاء وحدة الابنية الطويلة
والسطحية وقد شرح ذلك بعض علماء الفرنساويين في مجلد ضخم
فقال الشيخ رأيت في كتب العربية انه تربة وان به دهايز
في اسفله واماكن لا يعلم ما بها

وذكر بعض الناس ان به اموالا وذخائر وقد ظن المأمون
الخليفة العباسي ان به اموالا عظيمة ففتح الهرم الكبير وصرف في
ذلك مالا عظيما فلما لم يقدر على هدمه نأى عنه وقيل انه وجد
بقدر ما صرف في الهدم

ثم بعد محادثات من هذا القبيل استاذن الضيف للقيام
ودعا الشيخ والانكليزي الى منزله في الليلة المستقبلية فاجابه ووعداه
بالحضور ثم بعد ذهابه ببرهة قال الانكليزي للشيخ يا حضرة الاستاذ
ان جميع المؤرخين قاطعون بان قدماء المصريين بلغوا من العلم
والحكمة درجة لم يبلغها غيرهم وشهد لهم جميع الملل قديما وحديثا بكمال
العقل فبهذا لا يسلم العقل ان هؤلاء الحكماء العلماء العقلاء بنوا هذه
الاهرام ترابا ليس غير بل لا بد لهم من مقاصد جلييلة في وضعها على
هذه الكيفية

فقال الشيخ نعم ولا مانع ايضا من ان يكون بناؤها على يد

ملوك متعددة ولا بد من احتياجها الى عمال لا تحصر وتجهيزات
جسيمة اقتضاها صنع هذا الاثر قبل الشروع فيه بزمان طويل
قال الانكليزي فيحيث لا مانع من ان يكون لهم غرض اصلي
كان هو الباعث لهم على بنائها ولكن بسبب قدم هذا الاثر وسكوت
من مضى من المؤرخين عن ذكر ما له من صحيح الخبر لم يقف احد
على حقيقته بل ذهب كل فيه الى ما ذهب وتنوعت الاوصاف
وكثرت الافاويل

فقال الشيخ وما الذي ترتضيه من تلك الافوال
فقال الذي اراه هو ما قاله احد العلماء الفرنسيين من ان
الغرض منه الاشارة الى ما عندهم من العلوم والمعارف بوجه موجز
وطريق معجز

فقال الشيخ وكيف ذلك فقال وجد ان طول ضلع القاعدة
المربعة للهرم ٩٠٢، ٢٣٠ م وان الارتفاع لكل من اسطحه ٧٢٢، ١٨٤ م
وان الفرق بين هذين الخطين ٤٦، ١٨٠ م وهذا القدر ربع مقدار
ارتفاع كل من اسطح الهرم وهو مساو لضلع الفدان المصري القديم
المعروف بالاورور الذي ذكر هيرودوط وغيره ان مربع قاعدته
مائة ذراع ولربما كان هو الجريب المعروف عندهم فعلى هذا يكون
بين قاعدة الهرم وبين ارتفاع الوجه نسبة صحيحة كالنسبة بين
عددي خمسة واربعة وكذلك لو قارنا مقادير جميع اجزاء الهرم
بالارتفاع المذكور لوجدنا انها منسوبة اليه نسبة صحيحة من غير

كسر فنرى ان ارتفاع باب الدخول للهرم ١٥١٤ م وهو عبارة عن جزء من اثني عشر جزءاً من الارتفاع الكلي للهرم وان مدرج المدخل من ابتداء الارض الافقية الى اول المدرج الصاعد طوله ٢٣ متراً وهو عبارة عن عشر طول القاعدة وثمان مقدار الارتفاع وبهذه المقارنة تجد ان جميع الاجزاء منسوبة الى القاعدة او الارتفاع نسبة صحيحة ولو قسمت خمسمائة قسم لوجدت كل قسم منها ٤٦٢ م وهو طول الذراع المصري القديم ومنه نتج القدم المصري ولو قسم هذا الطول الى ستين قسماً لكان القسم الواحد ٢١٥ م وهذا الطول القصبة التي كانت مستعملة في قياس الارض عند دخول الفرنساوية ارض مصر وقبلهم كان ضلع الفدان بها عشرين قصبة والذي يستفاد من قول الخزاعي ان الذراع كان طوله في الزمن السابق اربعة وعشرين قيراطاً في جهات الصعيد وفي وقته صار ثمانية وعشرين قيراطاً وحيث كان مقياس الروضة موجوداً في وقته فبالضرورة يمكن استخراج مقدار الذراع القديم منه وحيث كان القياس الاخير ٥٣٩ م فيكون مقدار القديم $\frac{4}{28}$ يعني انه ٤٦٢ م مثل ما وجدناه في الهرم وكان يستعمل اولاً في قياس زيادة ماء النيل ثم زيد فيه اربعة قراريط

وان قسمت القاعدة الى اربعمائة قسم كان طول القسم ٥٧٧٥ م وهو طول الذراع البلدي ومن هنا يعلم بالبداهة ان الذراع البلدي المنسوب للبلد والقصبة المستعملة في قياس الارض

منسوبان لضع الهرم نسبة صحيحة وكما ان الفرق بين طول القاعدة والارتفاع بقدر ربع الارتفاع كذلك الفرق بين الذراع المصري القديم والذراع البلدي بقدر ربع الذراع المصري القديم لانه باضافة ربع عدد ٤٦٢ م عليه يحصل ٧٧٥ م وكانت القصة موجودة قديما ويستدل على وجودها بما ورد عن قدماء المؤرخين ان قدر طولها ٢٠٨ م فلو اضيف اليها ربعها كان الذي ينتج ٢٨٥ م وهو قدر القصة التي كانت مستعملة الى دخول الفرنسية مصر وعلى هذا فالفرق الذي بين الذراعين وبين القصبتين هو عين الحاصل بين القاعدة والارتفاع للهرم وضع الهرم ستون قصة بالقصة الجديدة لزيادتها على القديمة بقدر ربعها وضع القاعدة يزيد عن الارتفاع بقدر الربع وعلى ما نقل عن المؤرخين ان الاستادة ستون قصة تكون الاستادة هي ارتفاع الهرم فيعلم مما سبق ان الهرم اثر للاقيسة يستدل منه على وحدة المقاييس المستعملة في المساحة الزراعية وغيرها واتجاه زواياه مع الضبط المحكم للنقط الاربع الاصلية يدل على انه اثر فلكي

وايضاً مقدار الدرجة الارضية للعرض المتوسط لمصر ١٦٨ ٨٢٧ ١١٠ م وان جزءاً من ستائة جزء منها يساوي ارتفاع الهرم وهو ١٨٤ ٧١٢ ومن هنا يكون ارتفاع الهرم منسوباً للدرجة الارضية لمصر ويكفي لوجود مقدار الدرجة الارضية ضرب مقدار الارتفاع في ستائة ولا يكون الفرق الا خمسة امتار او ستة وهو

فرق غير محسوس وبما نقل عن المؤرخين ان الدرجة الارضية
ستمائة استادة يتضح ان هذه الاستادة مصرية وان المصريين قدروا
الدرجة الارضية في الازمان السابقة ونسبوا لها مقاييسهم كما فعل
المتأخرون في المتر المستعمل عندنا الان وجعلوا ارتفاع وجه الهرم
علما عليها

وان ضلع القاعدة للهرم جزء من اربعمائة وثمانين جزءا منها
بمعنى ان الدرجة الارضية المتوسطة لارض مصر قدر ضلع قاعدة
الهرم اربعمائة وثمانين مرة

ويؤخذ من قول هيرودوط وغيره من المؤلفين ان الذراع
المصري القديم جزء من اربعمائة جزء من الاستادة وهو صحيح لاننا
لو قسمنا مقدار الارتفاع على اربعمائة لوجدنا ما نقي ٤٦٢ م وهو
ما وجدناه للذراع فيما سبق

والاستادة التي استعملها هيرودوط وبلين وسترابون وغيرهم
واطلقوا عليها اسم الاستادة الاولينية لم تكن غير الاستادة المصرية
وان الاروام وغيرهم نقلوها من مصر لارضهم

وبناء على ما سبق يكون قدر محيط قاعدة الهرم مائة وعشرين
مرة هو مقدار الدرجة الارضية وقدر الارتفاع وحده وهو الاستادة
عبارة عن ست ثوان ارضية ومحيط القاعدة ثلاثون ثانية او
نصف درجة ارضية

والتفاضل بين ضلع القاعدة وارتفاع الوجه يكون ربع استادة

ويساوي مائة ذراع مصري قديم ويكون هو ضلع الفدان المصري القديم المعبر عنه عند الاقدمين بالاورور وعندكم بالجريب وهو الوحدة الزراعية التي كانت مستعمله في قسمة الارض بين الاهالي وعلى موجبها نحى الاموال وتنصب الحدود بعد انحسار ماء النيل عن الارض

ويؤخذ من كلام المؤرخين ان القدم جزء من ستمائة جزء من الاستادة فاذا قسمنا الارتفاع الى ستمائة جزء كان الذي ينتج ٢٠٨ م وهو مقدار القدم وحيث كان هذا هو مقدار القدم الرومي فيعلم ان اصله مصري وجميع المؤلفين اتفقوا على انه ثلثا ذراع فاذا اضيف حيثئذ نصف ٢٠٨ م اليه كان المجموع ٤٦٢ م وهو مقدار الذراع كما سبق

فقال الشيخ المتعارف في الشرع وبين الناس ان الذراع هو ذراع الآدمي وبه ضبط الميل والفرسخ وغيرها من الاقيسة وان الذراع اربعة وعشرون قيراطا او اصبعاً والاصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون اي البغل

فقال الانكليزي نعم كان ذلك في مبدأ الامر قبل اتساع الجمعية الاولى واما بعدها فصاروا يستعملون ذراع الآدمي في قياس الاشياء التي تلزمهم كالاقمشة وغيرها ويستعملون القدم في قياس الاطوال الارضية ثم لما اتسعت دائرة المعاملات بينهم صاروا ينظرون الى شي ثابت لا يقبل التغير يمسون عليه فلم يروا اوفق

من الدرجة الارضية فقدروا بها الذراع ونسبوا اليه مقاييس
 المعاملات المستعملة الى الان وما حصل فيها من التغير غير محسوس
 لا تدركه العامة ويؤكد ذلك قول بعض المؤرخين مثل
 هيرودوط فانه ذكر ان النسبة بين القدم والذراع كالنسبة بين
 اثنين وثلاثة يعني ان القدم ثلثا ذراع وليست هذه النسبة موجودة
 بين قدم وذراع الانسان اذ النسبة بينهما كالنسبة بين اربعة وسبعة
 ولو فرض قسمة الذراع الى اربعة وعشرين قيراطا كما هي العادة
 لكان القدم الفلكي ستة عشر قيراطا منها مع ان القدم الفلكي اربعة
 اسباع ذلك فلا يكون الا عددا كسريا ويكون استعماله عسرا
 جدا بخلاف الاول لا عسري استعماله اصلا وهذا مما يؤيد ان
 الذراع والقدم الجاري بينهما القياس ليسا فطريين لان طول القدم
 الانساني اقل بكثير من القدم المستخرج بنسبته للذراع سواء كان
 طبيعيا او فلكيا فان قدم الانسان ينذر ان تتعدى طوله ٢٦٥ م
 حيث يكون طول الرجل ١٧٣ م ويكون اقل من ذلك ان
 كان طول الرجل اقل

وقدم الانسان تبلغ القامة به سنا ونصفاً فان لم يكن المقصود
 هنا القدم الفلكي المتفق عليه كيف يذكر المؤرخون ان القامة ست
 اقدام فقط وطول قامة الانسان ثلاثة اذرع ونصف بذراعه كما
 هو مدون في الكتب الصحيحة فعلى هذا لا يرتاب احد في ان القدم
 والذراع المقدر بهما الاطوال بل جميع المقاييس هما المنسوبان

لدرجة الارضية وانها اتفاقيان لا فطريان ونسبة القدم الى الذراع
ونسبة الذراع الى القامة كنسبة اربعة الى ستة وستة الى اربعة
وعشرين في حال كونها الاجزاء الفلكية

وتدل هذه الاعداد على قبضات كل قبضة اربعة اصابع
فلكية ايضاً بمعنى ان القدم اربع قبضات والذراع ست والقامة
اربعة وعشرون قبضة واما نسبتها الطبيعية لبعضها فهي كنسبة
اربعة وسبعة وستة وعشرين لبعضها

وجميع ما قلناه من ان جميع الاقيسة منسوبة للدرجة الارضية
مذكور في كتب المؤرخين فانهم ذكروا ان الخطوة الكبيرة المصرية
مساوية للقامة يعنون انها ست اقدام وليس في الآدميين من تكون
هذه خطوته فعلى هذا لا يشك في انها خطوة اتفاقية منسوبة للقدم
المنسوبة للدرجة الارضية كما ان الخطوة الضعيفة للمصريين خمس
اقدام بالقدم الفلكي والخطوة الهندسية الرومية طولها خمس اقدام
ايضاً فلكية فتكون حينئذ عين الخطوة الضعيفة للمصريين وتكون
منقولة منها الى بلاد الروم فالخطوة الهندسية هي القامة ايضاً والباع
الذي كان يستعمل في القياس وكان طوله ست اقدام فلكية او
اربعة خطوات بسيطة كل خطوة منها قدم فلكية ونصف او سبع
اقدام بقدم الانسان والميل المصري الذي صار اساساً لجميع الاميال
عند جميع الملل في الازمان القديمة مقداره الف مرة بها والى القامة
والخطوة ينسب التواء الذي كان مستعملاً عند الاور وباويين

وهي بالمتر ١٨٤٧٢ م وتدخل في محيط قاعدة الهرم خمسمائة مرة
وارتفاع الجلسة التي تحت الهرم قامة كاملة او خطوة هندسية
مصرية

والذي يؤكد كون تلك الاقيسة جميعها فلكية احنوا كل
من الدرجة الارضية ومحيط الكرة نفسه عليها عدد صحيح فانه لو
قيس طول محيط الكرة بالقدم لوجد عبارة عن حاصل ضرب
سته مرفوعا الى الدرجة الخامسة وطول الدرجة الارضية المصرية
ثلاثمائة وستون الف قدم وان قيس بالذراع كان طوله عبارة عن
حاصل ضرب ستة في عشرة اربع مرات مرفوعا الى الدرجة الخامسة
وفضلا عن ذلك ان الميل الرومي الذي طوله خمسة الاف قدم
اذا قيس به محيط الارض اشتملت عليه سبعة وعشرين الف مرة
فكيف تكون هذه النسبة صحيحة ان لم تكن القدم منسوبة للدرجة
الارضية

ولو اخذ ثمن هذا الميل وجعل مقياسا وقيس به الدرجة
الارضية لاشتملت عليه ستائة مرة

وحينئذ يكون هو الاستادة الاولينية التي قلنا انها ارتفاع وجه
الهرم وماخوذة من مصر ولكن دخلها زيادة ونقص بتداول الايام
وتغير الدول مثلا :

الفرق قدر ثلث الذراع البلدي وهو خمسة اجزاء من اثني عشر
جزءا من الذراع القديم والشبر جزآن من خمسة اجزاء من الذراع

البلدي وهو نصف الذراع القديم وهو ثلث الذراع الاسلامي
وهو جزء من الف جزء من ضلع قاعدة الهرم وكل اربعة اشبار
ثلاث اقدام مصرية

واما الذراع الاسلامي فلم يعرف بمصر الا سنة ١٥١٧
ميلادية حيث دخلت الدولة العثمانية بها والاصل غير معلوم
ويزيد عن الذراع البلدي بقدر ثلثه وزيادة ثلاثة مليمتروبالنسبة
لذراع المقياس الموجود بالروضة فهو قدره مرة وربع مرة

وقد عرفنا ما سبق مقدار الذراع البلدي ونسبته للذراع
القديم واما ذراع مقياس الروضة فاصله الذراع القديم باضافة
سدسه اليه والفرق ليس بمحسوس لان الذي ينتج من القياس على
عمود المقياس لطول الذراع ٥٤٠ م والذي ينتج من الحساب
يكون ٥٣٩ م

وهذا الذراع لا يستعمله المعلنون بارتفاع درجة النيل بل
يستعملون ذراعا صغيرا اتفاقيا لتطمئن قلوب الاثالي وبهذه الوساطة
تحصل الحكومة على تحصيل المال من الاهالي وهذا الذراع ثلثا
ذراع المقياس وينقسم الى اربعة وعشرين فيرطا كاتقسام ذراع
المقاييس اليها انما قراريط كل على حسبه فيكون صغره مقابلا
للواحد وربع من تقاسم الذراع الحقيقي وقسم العشرين يقابل قسم
الخامس عشر وقسم اربعة وعشرين يقابل قسم سبعة عشر وثلاثة

ارباع وذراع المنادي يساوي ثمانية عشر قيراطا وثلاثي قيراط من
قراريط الذراع القديم

واما الذراع الذي تستعمله البنائون والنحاتون فهو خمس
القصبة الكبيرة القديمة وان شئت قلت هو جزء من مائة جزء من
ضلع الفدان الكبير المساوي ضلعه عشرين قصبة كبيرة كما ذكرنا
وضلع الهرم يشمله ثلاثمائة مرة عددا صحيحا واذا جمعت مقدار الذراع
القديم على القدم القديمة كان الذي يتبع هو طوله فهو قدمان ونصف
بناء على ذلك

والنحاتون يسمونه قيراطا ويقسمونه ثلاثة اقسام ويسمون كل
قسم منها ثلثا وكل ثلث يقسمونه نصفين ويسمون كل نصف
نصف ثلث وكل نصف ثلث يقسمونه اربعة اقسام ويسمونه قراريط
فيكون كانه منقسم الى اربعة وعشرين قسما ولكن لم ندر من اين
جاء له هذا الاسم مع انه لا بد لهذه التسمية من اصل كان معروفا
فيما سبق ثم جهل ولو فرض انك ضربت مقدار هذا الذراع وهو
قدمان ونصف في اربعة وعشرين تجد ستين قدما مصرية وهو
قياس كان مستعملا عند المصريين في قياس الارض المحروثة وقدره
اربعون ذراعا بالقديم والذراع المذكور هو الخطوة البسيطة وهي
تساوي ذراعا بلديا وثلثا اي ان الذراع البلدي ثمانية عشر قيراطا
من قراريطه والاستادة المصرية تشمله مائتين واربعين مرة ويؤخذ
من قول الادريسي وابي الفدا وابي الفرج والمسعودي ان الفرج

ثلاثة أميال هاشمية أو خمس وعشرون غلوة يعني استادة وبالذراع الهاشمي تسعة آلاف ذراع كل ذراع منها اثنان وثلاثون قيراطا واثنا عشر ألف ذراع بالذراع القديم الذي هو أربعة وعشرون قيراطا فعلى هذا يكون الفرسخ خمسة آلاف متر وخمسمائة وواحدا وأربعين وثلاثي متر وهذا الفرسخ هو الفرسخ القديم المصري والعرب تسميه الفرسخ الصحيح وأما الميل فهو ثمان غلوات وثلث أو ثلاثة آلاف ذراع هاشمي أو أربعة آلاف ذراع مصري قديم

ومن هنا يعلم أن الغلوة ثلاثمائة ذراع هاشمي أو أربعمائة ذراع قديم والنسبة بين هذين الذراعين كالنسبة بين عددي ثلاثة وأربعة ومقدار الميل المصري حيث أن ألف وثمانمائة وسبعة وأربعون مترا ومصر والعرب استعملته والدرجة الأرضية تشمله ستين مرة ويكون مقدار الغلوة عند العرب مائتين وواحدا وعشرين مترا وسبعين سنتيمتر وهذه الغلوة هي التي استعملها بطليموس وعنه أخذتها العرب وتدخل في الدرجة الأرضية خمسمائة مرة

ويوجد خلاف الأذرع الماضية ذراع قدره سبعة وعشرون قيراطا وهو الذراع الذي استعمله الخليفة المأمون وكان أخذه عن الفرس وهو المعروف بالذراع الأسود وقدره بالمتر ١٩٦ سم وهو عبارة عن ذراع قديم وثن وأما الذراع الهاشمي فذراع قديم وثلث وقدره بالمتر ٦١٦ سم وهو ذراع وجزء من خمسة عشر جزءا من الذراع البلدي وذراع وسبع من ذراع المقياس وذراع وتسع من

الذراع العبراني وقدمان من القدم المصري القديم الذي استعملته العرب كما استعمله غيرهم وذراع الرومانيين منسوب للذراع المصري ينقص $\frac{1}{2}$ من مقدار الذراع المصري فيكون مقدار الرومي ٤٤٢٤ م والذراع المقدس عند العبرانيين كانت نسبته الى الذراع الرومي كنسبة عدد خمسة الى اربعة وحيث ان تقديره يعلم باضافة ربع على مقدار الرومي ويكون ٥٠٤٢ م وهو يدخل اربعمائة مرة في الغلوة التي تشتمل عليها الدرجة الارضية خمسمائة مرة وهي الغلوة التي استعملها بطليموس في قياساته والذراع السلطاني للبابليين كان منقسماً الى ثلاثين اصبعاً وكل اصبع منقسم الى قسمين اي انه كان منقسماً الى ٦٠ وكان طوله يزيد عن الذراع المعروف ثلاثة اصابع اي انه لو اضيف تسع عدد ٤٦١٨ م اليه كان ١٢١ م هو طولها وهذا المقدار هو مقدار ثلثه من الدرجة الارضية والقامة تشتمل عليه ستين مرة كما ان الميل يشمل العسلة ستين مرة وكان يوجد قياس للاطوال في الزمن السابق طوله اربعة وعشرون ذراعاً به واربعون ذراعاً بالذراع المصري القديم اوست قصبات بالكبيرة او عشر قمامات صحيحة او اثنان وثلاثون ذراعاً بالذراع البلدي

ونسبة القصبة الكبيرة الى الذراع البلدي كنسبة عشرين الى ثلاثة ومدة دخول الافرنج ارض مصر كانت هي المستعملة في جميع الجهات القبلة والبحرية وطولها بالذراع البلدي ستة اذرع

وثلثا ذراع او عشر اقدم مصرية صحيحة

والذي حصل فيه تغير كثير من بين المقاييس جميعها هو القصة وذلك لانها اساس المساحة التي يجبي الخراج على حسبها وكثيراً ما كانت تقتصر المساحون على جعلها ستة اذرع وثلثي ذراع فقط اي ٣٦٥٧٥ م ونسبة هذا القدر الى طول القصة كنسبة تسعة عشر الى عشرين فيطلب بها مال اربعين فدانا في مقابلة ستة وثلاثين فدانا بالقصة القديمة وهكذا والقصة الصغيرة التي مع المساحين كان طولها ٣٦ م عبارة عن عشرة اذرع بذراع المنادي وستة اذرع وثلثي ذراع بذراع مقياس الروضة

فمن هنا يوضح انهم عوضوا الذراع البلدي بذراع المقياس حتى لا يخرج القصة عن كونها ستة اذرع وثلثي ذراع كما كانت عليه زماناً طويلاً والقصة الهاشمية طولها ستة اذرع هاشمية او سبعة اذرع وتسع ذراع بالاسود او ثمانية اذرع بالذراع القديم ومقدارها بالمتر ٣٦٩٤ م عبارة عن عشر اقدم عبرانية والقصة المصرية القديمة طولها خمسة اذرع بالهاشي الذي يسمى ايضاً في بعض الكتب بالعتيق والعسله من ضمن الاقيسة عند العرب والفرس ومقدارها ستون ذراعاً بالهاشي اي ٣٦٩٤٤ م والميل الذي استعملته العرب الذي قدره الف قامه او ستة الاف قدم لم يكن شيئاً آخر غير المقياس الذي كان عند المصريين ومقداره يساوي دقيقة واحدة من الدرجة الارضية لمصر وكان قدره عشر غلوات وكان يدخل في

الفرسخ المصري الصغير ثلاث مرات وفي الكبير ست مرات والميل
 الرومي ثمان غلوات أولنبية او مصرية والميل العبري ست غلوات
 مصرية وهو ٢٦٠٠ قدم مصرية والفان بالذراع العبري وبالمتر
 $\frac{1}{2}$ ١١٠٨ م وهو ست وثلاثون ثانية والوحدة الزراعية السطحية
 هي الفدان وهو عبارة عن مربع ضلعه بالتصبع عشرون وبالذراع
 البلدي مائة وثلاثة وثلاثون وثلث وبالمتر سبعة وسبعون ومساحته
 خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون متراً مربعاً وقاعدة الهرم
 تشمله تسع مرات صحيحة وضلع الفدان مائتان وخمسون قدماً
 مصرياً فيزيد حيثئذٍ عن ضلع الاوروراي الفدان المصري القديم
 مائة قدم وحيثئذٍ فنسبة الفدان الكبير الى الاورور كسبة تسعة
 الى خمسة وعشرين

والقصبة المستعملة الان عندكم ٣٥٥ م والفدان بها ثلاثمائة
 وثلاث وثلاثون قصبة مربعة وثلث اي اربعة الاف ومائتا متر
 مربع وكسر صغير فاذا نسبناه الى الفدان الذي كان مستعملاً في
 جمع الخراج الى دخول الافرنج وبعد خروجهم بمدة سنين لا يكون
 غير سبعة عشر قيراطاً باعتبار ان الفدان الكبير القديم اربعة
 وعشرون قيراطاً والاورور القديم نصفه تقريباً ففدائكم الان متوسط
 بين الفدان الصغير اي الاورور والفدان الكبير ونسبة الفدان
 الجديد الى الفدان القديم كسبة عددي سبعة عشر الى اربعة
 وعشرين وبناء عليه فكل مائة وعشرين فدناً جديدة لا تبلغ الا

خمسـة وثمانين بالمساحة القديمة وحيث انه في مدة الملك الاشرف سنة ٧٧٧ ومن قبله الى مدة الملك الناصر وجد ان مساحة الارض المزروعة الموضوع عليها الخراج ١٢٦-١٧٢-٢ وفي مدة الافرنج مسح المزروع في القطر فوجد ١٨٠-١٢٦-٢ وهما قريبان من بعضهما فيمكن الان ان نعرف هل حصل زيادة في المنزرع او نقص وذلك بعد رد حسابه الى القصة القديمة

والمرحلة بناء على قول الادريسي وابي الفدا اربعة وعشرون ميلا هاشمياً او ثمانية فراسخ مصرية او ثلاثون ميلا روميا او عشرة فراسخ فارسية وتبلغ بالمتر ٢٣٣ ٤٤

ويوم الملاحة بناء على قول الادريسي وابي الفدا وهو ما يعرف عندهم بالمجرى مائة ميل بالهاشي او درجة ارضية وثلاثا درجة وبالغلو الصغيرة المصرية الف غلو كاملة او خمسمائة واربعون غلو كبيرة مصرية ايضاً وبالمتر ٩٩٧٥٠

وفي الازمان القديمة كانت المصريون تستعمل في قياس الاطوال الكبيرة ثلاثة انواع من الفراسخ اصغرها كان عبارة عن ثلاثين غلو من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستائة غلو وكان استعماله في الجهات البحرية من ارض مصر وقدره بالمتر ٥٥٤١٦٥ م والثاني يزيد عن الاول وقد استعمله هيرودوط وكان ستين غلو من الغلوات التي كل درجة ارضية منها الف ومائة واحد عشر غلو وتسع وكان يستعمل في الاقاليم الوسطى من

مصر من منف ابتداء ولذلك سمي الفرسخ المصري المتوسط ومقداره
بالمتر ٥٥٨٥٠٠٠ م

والفرسخ الكبير طوله ستون غلوة من الغلوات التي كل درجة
ارضية منها ستائة غلوة وكان مستعملا في الاطوال الجغرافية فكان
يوجد بالجهات البحرية والقبلية وطوله بالمتر ١١٠٨٢٣٠ م

والفرسخ الفارسي عشرة اميال رومية وثلاثون غلوة من
الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية سبعمائة وخمسين مرة وهو
دقيقتان واربعة اعشار دقيقة من الدرجة الارضية ويدخل في
الدرجة الارضية خمسا وعشرين مرة ولهذا كان هو المستعمل عند
اغلب سكان المشرق والعبرانيين فاخذه عنهم الاوروباويون ومقداره
بالمتر ٤٤٤٣٣ وهذا المقدار يطابق اربعة وعشرين ميلا او ٢٤٠
غلوة مصرية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية ستائة مرة
فيعلم ضرورة انه مأخوذ من مصر لانه لا يقال ان العجم قاسوا
الدرجة الارضية اذ لم ينسب اليهم ذلك احد من المؤرخين وفي
كتب العرب ان مقداره خمس وعشرون غلوة عربية من الغلوات
التي تشملها الدرجة الارضية خمسمائة مرة التي قدرنا انها ٢٢١٦٧ م
وقد قلنا فيما سبق ان الوحدة التي كانت مساحات الارض تقدر
بها هي الاورورو وهي عبارة عما يحرق بحراث واحد في يوم واحد
وبناء على قول هيريدوط كانت مربعا ضلعه مائة ذراع يعني انها
كانت عشرة الاف مربع والذراع المستعمل هو الذراع القديم

الذي هو ٤٦٢ م فعلى هذا تكون المساحة بالمتر المربع الفين ومائة وأربعة وثلاثين

وكانوا يقيسون بخشبة طولها عشرة أذرع وطول ضلع الأورور بها عشر مرات وكانت منقسمة ثلاثة أقسام كل قسم خمس أقدام فكان طول القسم الواحد مساوياً للخطوة الهندسية ونصف القصبة المصرية القديمة التي كان طولها عشر أقدام وضلع الأورور بها خمسة عشر مرة وكانوا في الغالب يستعملون نصفها فيبلغ ضلع الأورور به ثلاثين مرة فبناءً على ذلك تكون مساحة الأورور تسعمائة خطوة مربعة وذلك عبارة عن ٢٢٠٥٠٠ قدم مربعة وبمقارنة المائة الذراع التي هي طول ضلع الأورور للثلاثين التي هي قياسه بنصف القصبة نجد أن القصبة ستة أذرع وثلثا ذراع وهذا المقدار هو نسبة ما بين الذراع البلدي الذي قدره ٠٠٧٧٥ م والقصبة الديوانية التي وجدها الفرنسيون بالحجيزة وقدرها ٢٠٨٥ م وسى أيضاً بقصبة الرزق ومن هنا يعلم أن الأقيسة وإن صارت كبيرة عما كانت لكن النسبة منها لم تتغير عما كانت عليه قديماً ولم يكن الأورور وحده هو المستعمل في المساحة بل كان لهم أقيسة كثيرة صغيرة وكبيرة على حسب ما يقتضيه الحال منها العسلة وهي مربع قدره عشرة آلاف قدم مربعة أي أن ضلعه كان مائة قدم كما أن ضلع الأورور مائة ذراع ومنها الغلوة وهي عشرة آلاف قامة مربعة أي مربع ضلعه مائة قامة ومنها العسلة المضعفة وكانت مربعاً

طوله عسلتان وعرضه واحدة ونسبتها الى الاورور كنسبة اربعة الى تسعة

ومنها الاستادة اي الغلوة المربعة كانت ٢٦٠٠٠٠ قدم مربع فان فرض ان ضلعها منقسم الى عشرة اقسام متساوية انقسم السطح الى مائة مربع صغير كل منها ٢٦٠٠ قدم مربعة او مائة قامة مربعة اي الى مربعات ضلع كل منها ستون قدما او عشر قامات او اثنا عشرة خطوة هندسية ويتكون عنها الجزء المئيني بالنسبة الى الغلوة وكانت تستعمل في تقدير المساحات

واما الفدان الديواني وقت دخول الفرنسيين وادي مصر فكان ضلعه عشرين قصبة ديوانية وذلك عبارة عن مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع وهذا المقدار هو ثلث الاستادة وهو قدر ارتفاع وجه الهرم فعلى هذا يظن ان الاستادة كانت منقسمة الى تسعة اقسام اي مربعات كل منها اربع عسلات مربعة ضلع كل منها عشرون خشبة كما ان الفدان الديواني ضلعه عشرون قصبة ديوانية ولذلك تسمى هذه المساحة اي المركبة من اربع عسلات بربع الفدان المصري القديم وكان ضلعه بالذراع القديم مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا كما ان ضلع الفدان الديواني بالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث وعلى هذا فمساحة الفدان القديم كانت ٢٧٩٤٠٥٦ م مربعا ومساحة الفدان الديواني ٥٩٢٩ م مربعا ونسبة الاول الى الثاني كنسبة ستة عشر الى خمسة وعشرين

وربما كان منقسمها الى اربعة وعشرين فيراطا كما ان الفدان الديواني كذلك منقسم وهذه القسمة تزيد في سهولة الحساب بسبب ان العسلة تكون مشتملة على ست منها فلو فرضنا ان الاستادة او الغلوة منقسمة قسمين متساويين وجدنا انه يحصل من ذلك تساهل عظيم في التقدير لان الشكل الذي ضلعه الغلوة يكون منقسمها الى اربعة مربعات ضلع كل واحد نصف غلوة ومساحته تسع عسلات مربعة او يكون مساويا لاربعة من الاورور وتسمى هذه المساحة ربع الغلوة وتشتمل على اربعمائة خشبة مربعة او تسعمائة نصف قصبة قديمة او اربعين الف ذراع مربع او على ثلاثة الاف وستائة خطوة او على خمسة وعشرين جزءا من الغلوة او على الفين وخمسمائة قامة مربعة

ولم يكن في قياس الفدان المصري القديم صعوبة لان مساحته اربعون خطوة بالخطوة الهندسية كما ان مساحة الفدان الديواني الان اربعون نصف قصبة وضلع الفدان الديواني سبعة وسبعون مترا وهو يزيد عن ضلع الفدان القديم بقدر رבעه وهذه النسبة لاشك هي الواقعة بين الذراع القديم والذراع البلدي والفدان الديواني يزيد عن القديم اورورا واحدا ولا شك في ان للفدان القديم نسبة صحيحة مع الاقيسة القديمة لان ضلعه ثلث ضلع قاعدة الهرم وعلى هذا فمساحة القاعدة تشمله تسع مرات وزيادة على ذلك ضلعه عبارة عن عسلتين ونصف والميل المصري القديم يشمله

اربعا وعشرين مرة والقصة المستعملة في قياسه تدخل في ضلع
قاعدة الهرم ستين مرة

وضلع الاورور يساوي ثلاثة اخماس ضلع الفدان الديواني
وربع الاستادة المربعة = $\frac{1}{4}$ الغلوة المربعة = ٤ اورور = ٩
عسلات مربعة وضلعها ثلاث عسلات فلو قسمنا كل عسلة من
التسع قسمين متساويين وجدنا ان ثلاثا منها تكوّن ضلع الاورور
واربعا منها تكوّن ضلع الفدان القديم وخمسا منها تكوّن ضلع
الفدان الديواني والست الباقيات تكوّن ضلع ربع الاستادة وعلى
هذا فالنسبة بين هذه المساحات الاربع كالنسبة بين هذه الاعداد
١٦٩، ٢٦٥، ٣٦٩ وما يوكد ان ربع الاورور كان موجوداً قديماً كون
ضلعه ستين خطوة هندسية كما ان ضلع الاستادة ستون خشبة
وبالجملة فوجود ربع الاورور بين الاقيسة القديمة يوكد وجود
ربع الاستادة ونسبة الفدان المصري القديم الى الفدان الديواني
المجدد على ما ذكرنا كنسبة ١٦ الى ٢٥ ونسبة اضلاعها الى بعضها
كنسبة ٤ الى ٥ اي ان الفرق الذي حصل في طول الذراع من
اربعة وعشرين قيراطا الى ثلاثين قيراطا حصل ايضاً في القصب
المستعمل لقياسها وبسبب ان عدد عشرين بقي ثابتا لعدة القصب
الداخل في الطول حصل لسطحها زيادة كنسبة ٢٥ الى ١٦
والنسبة بين الفدان القديم والاورور كنسبة ١٦ الى ٩ وكما ان
الغلوة كانت منقسمة الى اربعة اقسام وكل قسم منها الى اربعة

اخرى تسمى الاورور كذلك الاورور كان منقسمها الى اربعة اقسام وقاعدة الهرم قدر كل ربع منها مائة مرة وقدر الاستادة اربعا وستين مرة وكان طول ضلعه خمسين ذراعا او خمسا وسبعين قدما وسطحه ٢٢٥ خطوة او الفين وخمسمائة ذراع وبالقصب الديواني ٣٦ قصبة مربعة وكانوا يعرفون قدر ما تأخذ الارض من البذر بمكيال لم يسمى المد المساحي وهو اربعون ليورا فكان نصفه وهو عشرون ليورا يكفي لبذر مائة قامة مربعة فيقسمونها الى اربعة اقسام ضلع كل قسم خمس قامات ومساحنه خمس وعشرون فكانوا يقدرون ما يلزم للارض بهذه الطريقة ويجعلون لكل خمس قامات مربعة ليورا من البر وهكذا فكان المد الواحد الذي وزنه اربعون ليورا يكفي لبذر مائتي قامة ونصفه لنصفها ومن الاقيسة التي كانت تستعمل في مساحة الارض الخطوة المربعة وهي جزؤ من تسعمائة جزؤ من الاورور وجزؤ من اربعمائة جزؤ من العسلة وجزؤ من الف وستائة جزؤ من الفدان القديم وجزؤ من الفين وخمسمائة جزؤ من الفدان الديواني وجزؤ من اربعة عشر الفا من الغلوة المربعة وكان ضلع العسلة عشرين خطوة وضلع الاورور ثلاثين وضلع الفدان القديم اربعين وضلع الفدان الديواني خمسين وضلع الغلوة مائة وعشرين ومنها الخشبة المربعة وقدرها مائة ذراع وهي جزؤ من مائة جزؤ من الاورور والقصبة وقدرها مائة قدم مربعة وهي جزؤ من مائة جزؤ من العسلة وكذلك

كان من القياسات قياس صغير قدره خمس قامات مربعة وضلعه
ست خطوات ومساحته ست وثلاثون خطوة مربعة او اربعمائة
ذراع مربع اعني ٩٠٠ قدم وكان يدخل في المد المساحي اربع مرات
وفي الاورور خمسا وعشرين وفي الغلوة اربعمائة مرة

ويمكن ان يقال ايضا ان العسلة كانت منقسمة الى اربعة
اقسام كل منها الربع وان الغلوة المربعة تشمله مائة واربعاً واربعين
وربعها يشمله ستاً وثلاثين والفدان القديم يشمله ستة عشر مرة
والديواني خمسا وعشرين والاورور تسع مرات وربع العسلة عبارة
عن ٢٥ = خشبة اي ١٠٠ خطوة = ٢٥٠٠ قدم فجميع هذه المقاييس
كانت مستعملة في مساحات الارض بحيث كان يتيسر للمساح
مع غاية الضبط والسرعة معرفة مساحة الارض وما تشتمل عليه من
الكسور لغاية القدم المربعة ولهذا شهد جميع المؤرخين للمصريين
بفوقانهم جميع الامم في الفنون الهندسية ونسبوا لهم اختراع اصولها
وقواعدها التي هي سبب تقدمهم في جميع العلوم والصنائع ولواني
اطنبت في مادة الاقيسة واطلت على حضرتكم الكلام في بيانها
فليس هو الغرض الاصلي بل الغرض ان اثبت لحضرتكم اتساع
دائرة معلومات علماء هذه الامة حيث وصلوا في الاحقاب الخالية
الى تلك الدرجات العالية مع ان جميع الامم في ذلك الوقت
كانوا خاملين وفي زوايا الذل والمسكنة قاطنين غرقى في بحار
الجهل لا يعرف لهم فكر فيما جل ولا قل وكانوا راتعين في الاجم

والغابات مثلهم كمثل الحيوانات فلم يخرجهم عن هذه الحالة إلا
اقتفاؤهم اثر المصريين وسيرهم في طريقهم مقتدين بقول من وصل
منهم الى هذه الارض وتلقى عن علماءها واساتذتها يقيمون بالمدارس
والمعابد ويتلقون الاسرار عن المصريين ومن ذلك الوقت اخذت
الخشونة في الزوال وانجلي عن بصائرهم غشاء الجهل والضلال
واتضح الطريق فسلكوا سبيل الهدى ونالهم من الثروة والترفة ما
نالهم فاسسوا المدن والقرى وبنوا المباني الفاخرة العالية الذرى
وكانوا قبل لا يسمعون بها ولا يعلمون والمصريون كانوا بالغين
النهاية في كل ذلك وكان بشاطئ نيلها المباني المشيدة والبساتين
الفائقة العديدة وفي داخل مدنها وصحاريها من المعابد والهياكل
ما يعجز عن وصفه الانسان في كل زمن من الازمان والى الان
كل من دخل تلك الارض من الاغراب وتامل ما بقي فيها من
الاثار التي هي من عجب العجائب يقف متحيرا ويطرق متفكراً وذلك
لا يستغرب من امة من اثارها البنائية الاهرامات الشامخة والبرابي
العجيبة ولا يستبعد عليها انها قاست الدرجة الارضية ونسبت جميع
اقيستها اليها ولاجل بقاء ذلك على ممر الازمان وتعاقب الملوان
جعلوا نفس الهرم حافظاً لتلك الاقيسة فضلاً عن حفظه لامور
شئى لم يقف احد عليها الى الان

المسامرة الرابعة والثمانون

نبذة تاريخية

فقال الشيخ المستفاد من اقوال المؤرخين بناء على ما اجره من البحث وما اخذوه عن الاوائل ان بين هبوط آدم والطوفان ٢٢٤٢ سنة وبينه وبين المسيح عيسى بن مريم ٥٥٦٢ سنة فيكون بين الطوفان والمسيح ٢٢٤٢ سنة وحينئذ يكون بناء الهرم قبل الميلاد باربعة الاف وخمسمائة سنة وبعد الطوفان بالالف وثمانمائة وخمسين سنة وحيث انهم قدروا ما بين جلوس منيس وبناء الهرم بثمانمائة وثلاث سنين فيكون جلوس منيس بعد الطوفان بثمانمائة وخمس وخمسين سنة اي بعد موت نوح بخمس سنين وقد قالوا ان فرعون مصر صوفي الاول الذي اطلق عليه هيردوط اسم كيوس ابتداء البناء في هذا الاثر بعد انفصال الحكومة السياسية

من الحكومة الدينية بواسطة منيس الذي أسسها قبل الميلاد بخمسة
 آلاف وخمسمائة وثلاث سنين وفي مدة هذا الانقلاب بل من
 ابتدائه يرى ان المصريين على معلومات تامة ولم دراية بمعارف شتى
 وعلوم كثيرة فانهم كانوا على غاية التمدن والتقدم لكن لا يدري
 هل اخذ المصريون هذه العلوم عن سبقتهم من الامم وإذا كان
 كذلك فعن من اخذوا ام هم الموجدون له من غير واسطة غيرهم
 والظاهر انهم اخذوها عن غيرهم لان الارض قبل الطوفان كانت
 عامرة باولاد آدم عليه السلام وكانوا متصرفين في جهاتها وكانوا
 قد وصلوا الى درجة في العلوم والمعارف ولما اغرق الله قوم نوح
 عليه السلام ولم ينج الا هو واولاده ومن آمن تفرقوا في الارض
 وتناسلوا وكثروا فعمرت بهم الارض ثانياً وبالضرورة كان عند
 من نجا معرفة بعلوم من غرق فعلموه اولادهم وانتشروا فيهم ولم تكن
 اهل مصر الا من ذرية سام لانه ابو العرب والفرس والروم ولكن
 لا ادري هل هم اول من عبد الاصنام ام سبقتهم الى عبادتها غيرهم
 فقال الانكليزي ان عبادة الاصنام كانت لعاد وثود كما لا
 يخفى ذلك على حضرتكم وكان عندهم السحر والكهانة كغيرهم فلم يكن
 المصريون في ذلك الا تابعين اثرهم

فقال الشيخ وما سبب اتساع دائرة العلوم عندهم دون غيرهم
 قال سببه انهم لما وصلهم علوم من اغرقهم الطوفان تأملوا فيها
 فاستنجدوا منها واستكشفوا من اثارها ما وصلوا به الى شأ وبعيد في العلوم

واما كونهم مخترعين لتلك العلوم فلا يقبله العقل لانه لم يكن بين الطوفان وبين نشأة الحكومة المصرية الفرعونية الا زمن قليل لا يكفي في وصول المعارف والعلوم الى هذا الحد الذي كانت عليه وقت ظهور منيس على التخت لاننا نرى من اقوال المؤرخين انه من حين جلوس فرعون مصر على التخت شرع في اعمال جسيمة فيها من الدلالة على التقدم في العلوم الهندسية ما لا يخفى منها انه سد احد فرعي النيل الذي كان جارياً مجزاء جبل ليبيا وحوله الى جهة الشرق في نصف المسافة التي بين الجبلين وادخل ماء النيل في وادي الفيوم فازدادت بذلك سعة ارض وادي النيل ولا جرم ان هذه الاعمال يلزم بها امور هندسية مثل ميزانيات وغير ذلك لاجل معرفة حال هذه الارض المحصورة من جميع الجهات بالجبال والصحاري ومنها انه ازال البرك التي تكوّنت من مجرى النيل وبنى محلها مدينة منف وحفظها من الغرق والعدو بما انشأ حولها من الحصون والجسور وزينها بهياكل ومعابد بقيت اعجوبة يفخر بها بعده ثلاثة الاف سنة زيادة على ما نظمه من القوانين وما اودعه في المدينة من المستبدعات التي فاقت بها على طيبة القديمة التي كانت مقراً للسلطنة ومحلاً لقوة الديانة الى وقته فلو لم تكن العلوم عندهم في درجة الكمال ما امكنهم اجراء هذه الاعمال ومن ورث الملك بعده الف كتاباً في التشرّيح ومن اتى بعده بنى هذه الاهرام التي هي اعجوبة مدى الايام يتعجب منها كل انسان ما

بقي الزمان وما نظر اليها احد الا وافقر لمؤسسيها بعلو الدرجة في العلوم وغزارة عقولهم بدلالة هذه الاثار والرسوم فان من اجرى هذه الامور لا بد له من تمام الوقوف على قواعد من علوم شتى مثل علم جر الاثقال والعمارة وحركات المياه والطب والهيئة وسير الكواكب واحوال السماء وكل هذه العلوم قبل وصولها هذا المجد تفيد بالضرورة التوغل في العلوم الاساسية لها فعلم من ذلك ان مصر كانت من قديم الزمن بالغة اقصى درجات التمدن وواضح دليل على ذلك بقاء هذه الابنية بها الى الان وايضا هذا التمدن لا يمكن ان يوجد دفعة واحدة بل لا بد انه مضى عليه قرون كثيرة حتى بلغ هذه الدرجة والسبعمائة عام التي قدرها علماء لافرنج بين الطوفان وجلوس منيس على التخت لا تكفي ايضا في توصيل تلك المعارف بل لا بد من وجود اصلها قبل الطوفان ان الارض قبله كان بها ام شتى منهم التمدن وغيره وكانت العلوم لغة الى درجة اوجبت اتساع معائشهم فكانوا ارباب قوة وتروة بما يدل على ذلك قول افلاطون عند تكلمه على سكان الاطلنطيك نين اغرقهم الله بالطوفان ان ارضهم كانت قرية من بوغاز طمارق وان قوانينهم كانت قرية من قوانين المصريين وهذا ول نقله سولون المشرع عن علماء مصر فانه تلقى عنهم ويؤخذ هذا ان منيس لما جلس على التخت وظهر امره اخذ له قانونا القوانين القديمة التي وصلت اليه بواسطة النوبيين الذين

كانوا بالجهة القبلية من مصر فانهم النافلون لجميع المعارف والعلوم التي ورثها المصريون عن اجدادهم سكان اسيا الناجين من الغرق فكانت هذه المعارف محفوظة عند طائفة القسس يرثها الالبناء من الالباء جيلا بعد جيل من غير تغيير ولا تبديل وانت خير بان تقدم العلوم واتساع دائرتها وزيادة الجهد في كشف حقائق مستحجة انما يكون بالاشتراك العام فضلا عن المساعدات من قبل الحكومة الا ان بمصر اموراً توجب تعطيل ذلك منها وجودها منعزلة وسط الصحاري وهذا يمنع سهولة اخلاطهم مع باقي سكان الارض من الامم وحيث لم يكن بها ممن ورث تلك العلوم الا طائفة الديانة فغاية ما يمكن القوة البشرية انما هو معرفة ما وصل الى هولاء من غير زيادة عليه وهيئات ان وصلوا اليه ولا شك ان هذا على طول الايام ما يوجب تهقر المعارف عاما بعد عام كما حصل ذلك بالفعل في مصر حين سكنها غير اهلها فلولا ما شاهدناه بها من الاثار لاستبعدنا ما عزاه الى اهلها نقلة الاخبار ولعددها من نوع الخرافات التي ضيع المؤرخون في تنميقها نفائس الاوقات

فقال الشيخ عزو المعارف والكشف عن الحقائق الى من كان قبل الطوفان مما لا مرية فيه ومما يدل على ذلك صرح التمرود الذي بناه وكان مركباً من اثنين وسبعين برجاً على كل برج كبير منهم يستحث على العمل فان ذلك كان بعد الطوفان بزمن لا سع ان يهتدوا فيه الى معرفة بناء مثل هذا كما سنبينه فانهم بعد

الطوفان بزمان قليل تبليت السنتهم فتفرق بنو نوح فصار لسام
واولاده العراق وفارس وما يلي ذلك الى الهند ولحام واولاده
مشرقاً ما يلي مصر على النيل وكذلك مغرباً الى الغرب الاقصى
وليافث وولده ما يلي بحر الخرز مشرقاً الى جهة الصين وفي ذلك
الوقت كانت شعوب اولاد نوح اثنين وسبعين شعباً فلم يكن
عندهم معرفة تامة باحوال العمارة والهندسة ووضع الاحجار فمن
اين لهم ان يبنوا مثل ذلك البناء اذ يلزم لجعله في العلو الذي
قدروه به اصول وقواعد لا بد منها وايضاً فان النمرود كان عاملاً
من قبل الضحاك على سواد العراق وما اتصل به وفي تلك
الافوات كان للام قوانين منظمة وشرائع معظمة وكان لهم رسل
تهديهم الى طاعة الله فلا بد انهم كانوا ذوي تروة عظيمة حتى اغتروا
بذلك غروراً وجعلوا قول الانبياء كذباً وزوراً وناهيك طغيان
النمرود وظلمه وبغيه وتجبره وحروبه أفلا يدل هذا كله على ان
الام قبل الطوفان كانوا ارباب معارف وكذلك معرفتهم للاشهر
واسمائها والسنة ومقدارها فقد ورد عن المؤرخين ان نوحاً عليه
السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب ورست بارض
الموصل على الجودي لعشر بقين من المحرم فكانت المدة ستة اشهر
وعشر ليال فكل هذه ادلة قاطعة وبراهين ساطعة على ان العلوم
والمعارف كانت موجودة قبل الطوفان

فقال الانكليزي رأيت في الآية الرابعة والعشرين من الباب

السابع في التورية ان الماء بقي على الارض مائة وخمسين يوماً وذلك من ركوب نوح السفينة الى استقرارها على الجبل وان دخوله فيها كان في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني واستقرارها على الجبل في اليوم السابع عشر من الشهر السابع فتكون المدة حينئذ خمسة اشهر باعتبار ان الشهر ثلاثون يوماً والشهور شمسية وعلى هذا تكون السنة شمسية وعدد ايامها ثلاثمائة وستين يوماً وهذا يدل على ان الاقدمين كان عندهم معرفة بحركة الشمس واختلاف سيرها بطاءً وسرعة بالنسبة لحركتها فيعلم من ذلك انهم كان لهم معرفة بعلم الفلك

فقال الشيخ رأيت في كتب التواريخ ان كثيراً من اهل الهند والصين وغيرهم كانوا يعتقدون ان الله عز وجل جسم وان الملائكة اجسام لها اقدار مختلفة وان الله تعالى وملائكته احتجبول بالساء فدعاهم ذلك الى اتخاذ تماثيل واصنام مختلفة على صورة الباري والملائكة فكانوا يقربون لها القرابين والنذور لشبهها عندهم بالله وملائكته واقاموا على ذلك مدة من الزمان حتى نبههم حكماؤهم على ان الافلاك والكواكب اقرب الاجسام المرئية الى الله وانها حية ناطقة وان الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وان كل ما يحدث في هذا العالم انما هو على قدر ما تجري به الكواكب على مقتضى امر الله فعظموها وقربوا لها القرابين ومكثوا على ذلك دهوراً فلما راوا الكواكب تخفى في النهار وفي بعض اوقات الليل لما

يعرض في الجحيم من السواتر امرهم بعض من كان فيهم من الحكماء ان يجعلوا لها اصناماً وتماثيل على صورها واشكالها فاتخذوا اصناماً وتماثيل بعدد الكواكب السبعة المشهورة واخذ كل فريق منهم يعظم كوكباً ويقرب له قرباناً خلاف ما يقربه الاخر ظناً منهم انهم اذا عظموا ما صوروا من الاصنام تحركت لهم الاجسام العلوية وساعدتهم في كل ما يريدون وينوا لكل صنم بيتاً وهيكلًا وسموا تلك الهياكل باسماء الكواكب حتي ذهب قوم الى ان البيت المحرام انما عظم على مرور الدهر لانه بيت زحل ومن شأنه البقاء والثبات ثم لما طال عليهم العهد عبدوا الاصنام نفسها على انها تقرهم الى الله والغلو عبادة الكواكب ولم يزالوا كذلك حتى ظهر بودا وكان اول ظهوره بارض الهند فخرج منه الى السند ثم الى بلاد سيجستان وبلاد زابلستان ثم دخل كرمان فتنبأ وزعم انه رسول واتي ارض فارس في اوائل ملك طيمورث ملك فارس وهو اول من اظهر مذاهب الصائفة فامر الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم واراهم ان من هناك بدء النفوس وقال بعضهم انه اول من عظم النار وقال انها تشبه ضوء الشمس والكواكب ثم افترق بعده من تبعه فعظم كل فريق منهم ما رأى تعظيمه وقد قالوا ان البيت المحرام اول البيوت السبعة المعظمة المتخذة على اسماء الكواكب السبعة والبيت الثاني مارس وهو على راس جبل باصبهان والبيت الثالث سندوساب وهو ببلاد الهند وله قرابين وفيه احجار المغناطيس

المجاذبة والرافعة والمفردة والبيت الرابع البوبهار الذي بناه متوشهر وهو بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي سداته تعظمه الملوك وتتقاد لامره وكان له اوقاف كل من ولي بسداته يسمى البرموك ومن ذلك سميت البرامكة لان خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت والبيت الخامس عمدان وهو بمدينة صنعاء من بلاد اليمن وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة والبيت السادس بيت كارشان شاه بناه كارش الملك على اسم المدير الاعظم من الاجسام السماوية وهو الشمس بمدينة فرغانة من مدائن خراسان والبيت السابع باعالي وهو ببلاد الصين بناه ولد يعبور بن يعويل بن يافث بن نوح وقيل انما بناه بعض ملوك الترك في قديم الزمان فجعله سبعة بيوت في كل بيت منها سبع كوى بازاء كل كوة صورة من صور الكواكب السبعة مصنوعة من الجواهر على اختلاف انواعها ولم في هذا الهيكل سرسرونه في بلاد الصين يعلمون به اتصال الاجسام السماوية وافعالها بما يحدث في عالم الكون من الحركات والافعال وهو سدى خيوطه من الابريسم ممدودة على خشب يتحرك على حسب حركات الطبائع فيحدث ضروباً من الحركات فاذا اتصلت افعاله وتوالت حركاته في التسج ظهرت صورة فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر وباخراسه وباخرجلاله فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع فجعلوا اتصال الابريسم بألة التسج وما يحدثه الصانع في

ذلك من الافعال مثالا لتأثير الكواكب العلوية في الاجسام
الكونية فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر وبضرب آخر
فرخ وكذلك سائر ما يحدث في العالم ويسكن ويتحرك ويوجد
ويعدم ويتصل وينفصل ويجمع ويفترق ويزيد وينقص من جماد
ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق فانما هو من حركات الكواكب
واما العرب في جاهليتها فكانوا فرقا منهم الموحد المقر بخالقه
المصدق بالبعث والنشور الموقن بان الله يثيب المطيع ويعاقب
العاصي

ومنها المقر بوجود الخالق القائل بحدوث العالم واعادته الا
انه انكر ارسال الرسل وعكف على عبادة الاصنام وهم الذين حكي
الله عنهم قوله ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى ومنهم من اقر
بالخالق وانكر الرسالة والبعث وهؤلاء هم الذين حكي الله عنهم
قوله وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا
الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون ومنهم من مال الى
اليهودية او النصرانية ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهمجيته ومنهم من
كان يعبد الملائكة ويزعم انها بنات الله وانها تشفع لهم عنده وهم
الذين اخبرنا الله عنهم بقوله ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما
يشتهون ومنهم من كان مقرا بالتوحيد مثبتا للوعد والوعيد كعبد
المطلب بن هاشم بن عبد مناف

وسبب اتخاذ العرب للاصنام انه لما نشأ عمرو بن لحي وتولى

ملك الحجاز وانتشر صيته في الجاهلية واليه تنسب خزاعة وكانت العرب تطيعه احسن الطاعة وسار بقومه الى مكة واستولى على امر البيت ثم الى مدينة البلقاء من عمل دمشق من ارض الشام فرأى قوماً يعبدون الاصنام فسألم عنها فقالوا هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقى ونستشفى بها فنشفى فاعجبه ذلك وطلب منهم صنفاً فاعطوه هبلاً فنقله الى مكة وجعله على الكعبة واستصحب صنفين آخرين وهما اساف ونائلة ثم دعا الناس الى عبادتها فاجابوه ثم قلده العرب في ذلك فكان لكل قبيلة صنم فكان ود لقبيلة كلب وكان بحومة الجندول وسواع لقبيلة هذيل ويغوث لقبيلة مذحج وقبائل من اليمن ونسر لقبيلة ذي الكلاع بارض حمير ويعوق لقبيلة مهران واللاة لثقيف وكان بالطائف والعزى وهبل لقريش ومناة للاوس والخزرج واساف ونائلة على الصفا والمروة واستمرت العرب على عبادتها الى ان جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام فكسر الاصنام واتخذ العباد من تلك الاوهام وكانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وقد ذم الله تعالى فعلهم بقوله انما النسيء زيادة في الكفر

وكانت المصريون صابئة فانهم كانوا يعبدون الاصنام والصابئة اقدم الامم على الارض ولغتهم السريانية التي هي لغة آدم عليه

السلام ويزعمون انهم اخذوا دينهم عن شيت وادريس ولهم كتاب
يسمونه صحف شيت فيه محاسن الاخلاق كالصدق والشجاعة
واجتناب الرذائل وقد ذكر ابن الوردي احد المؤرخين عندنا
صحيفتين من صحفهم الاولى وتسمى صحيفة الصلاة ومنها انت الازلي
الذي تربط به الرئاسة رب جميع المكونات المعقولات والمحسوسات
رئيس البرايا وراعي العوالم رب الملائكة ومنك تنزلت العقول
الى مدبري الارض لانك السبب الاول احاطت قدرتك بالكل
ولك الوجدانية التي لا تحدد ولا تدرك مدبر سلاطين السماء وينابيع
النور الدائم الانارة انت ملك الملوك الامر بالخيرات كلها الفاعل
لكل شي بالوحي والاشارة تثبت المخلوقات وبرمزمك يتنظر العالم
باسره ومنك النور وانت العدة القديمة السابقة لكل شي نسئلك
ان تزكي نفوسنا وتوفقها لاستحقاق نعمتك الآن وفي كل اوان الى
الابد يا ظاهراً متعالياً عن كل دنس احلل عقالنا وعافنا من كل
مرض وبدل احزاننا افراحا بك نعتم ومنك نخاف نسئلك ان
توفقنا لتحميد عظمتك التي يشار اليها ولا ينطق بها الكدل
وبك يستنير الكل وانت رجاء العالمين ومعين الناس اجمعين

وفي الثانية لا يجرين احد منكم في معاملة اخيه الى ما يكره ان
يعامل بمثله واياكم والتفاخر والتكاثر لا تحلفوا بالله كاذبين ولا
تهجموا على الله باليمين واعتمدوا الصدق حتى يكون نعم من قولكم
فما يستحقها ولا كذلك وتورعوا في تحليف الكاذبين بالله جل ذكره

فانكم تشاركونهم في الاثم اذا علمتم منهم الحنث وليكن الامر في نفوسكم
ن تكلوهم الى الله عالم السرائر فحسبكم حاكم يعدل وناطق يفصل
لا تهجوا الكلام وسوء المقال لا تفاوضوا الاضاليل والاباطيل
ولا تكثرؤا الهزل والضحك والهمز واللمز لا تبدر منكم عند الغضب
كلمة الفحش فتجبر عليكم المآثم والعقوبة من كظم غيظه وقيد لفظه
ونطق منطقته واظهر نفسه فقد غلب عليه الشر كله استشعروا
الحكمة واتبعوا الديانة وعودوا انفسكم الوقار والسكينة وتحلوا
بالاداب المحسنة الجميلة ترووا في اموركم ولا تعجلوا لاسيا في مجازاة
المسيئ ان يكن من احدكم فرطة وارتكب منكرا فليقطع ولا تحمله
السلامة منها على المعادة لها فانها ان سترت عليه في الدنيا يفتضح
بها على رؤس الاشهاد يوم الدين (وها طويلتان) ٥٠ هـ . وهذا
الكلام منسوب لازمان كانت قبل الطوفان وفيه دلالة ظاهرة
على ان المعارف كانت متقدمة في تلك الاعصر وكان للصائبة
اعباد وهياكل يعظمونها فاعبادهم كانت عند نزول الكواكب
الخمسة المتحيرة في بيوت شرفها والمتحيرة هي زحل والمشتري والمريخ
والزهرة وعطارد والهياكل التي يعظمونها بيت مكة وبيت بظاهر
حران يحجونه ومن هياكلهم هيكل السنبلة وهيكل الصورة وهيكل
النفس وهذه مدورات الشكل واما هيكل زحل فمفسدس واما
هيكل المشتري فثالث واما هيكل المريخ فمستطيل واما هيكل الشمس
فمربع واما هيكل عطارد فثالث في جوف مربع واما هيكل القمر

فثمن ومن هياكلهم بيت بمدينة حران في باب الرقة يعرف بمصلينا
يقول انه هيكل ازرا ابو ابرهيم الخليل عليه السلام وذكر بعض اهل
الاطلاع ان باقى بلاد الصين هيكلا مدوراً له سبعة ابواب في
داخله قبة مسبعة الاركان عالية البنيان وقيل ان باعلى القبة شيئاً
يشبه الجوهريز يد على راس العجل تضئ منه جميع اقطار ذلك
الهيكل وان جماعة من الملوك حاولوا اخذ تلك الجوهرة فاذا صار
بينه وبينها مقدار عشرة اذرع لم ير شيئاً وان حاول اخذها بشيء
من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت الى هذا المقدار
ثنت وانعكست وتعطلت وان رميت بشيء فكذلك فلم يجدوا لهم
حيلة في اخذها ومن تعرض لهدم شيء من هذا الهيكل مات لوقته
وكانها دبرت من انواع الاحجار المغناطيسية وفي هذا الهيكل بئر
مسبعة الفم متى اكب الانسان على فيها يسقط فيها وصار اعلاه
اسفله وحول فم البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم يقال
انه بقلم السند هند هذه بئر تؤدى الى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا
وعلم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه
وتؤدى ايضاً الى خزائن رغائب هذا العالم لا يصل ولا يقتبس
منها الا من ساوت قدرته قدرتنا وعلمه علمنا وحكمته حكمتنا فمن
قدر على الوصول الى هذا المخزن فليعلم انه قد وازانا ومن عاجز عن
الوصول الى ما وصفنا فليعلم اننا اشد منه بأساً واغوى حكمة واكثر
علماً واوسع دراية والارض التي فيها هذا الهيكل والقبة والبئر ارض

حجرية صلبة مرتفعة كالجبل الشاخ فإذا رأى الانسان ذلك الهيكل
والقبة والبئر حصل له عند ذلك جزع وحزن وتأسف على افساد
شي منه أو هدمه

ويقولون ان اهرام مصر قبور احدها قبر شيت بن آدم والاخر
قبر ادريس وهو اخنوخ والثالث قبر صالي بن ادريس الذي
ينتسبون اليه ويعظمونه يوم دخول الشمس برج الحمل فيتزينون
ويتهادون فيه ومن هناك يعلم ايضاً ان علم الفلك ومعرفة الكواكب
وما يلزم لذلك من العلوم كان قديماً واصله من ارض اسيا ومنها
انتقل الى مصر والى غيرها من البلاد حين تفرق اولاد نوح
بالارض بعد الطوفان وعمروها وبنوا بها المباني على مثال ما كان
في اسيا قبل الطوفان

فقال الانكليزي ما ذكرته من الادلة على اثبات العلوم لمن
كان قبل الطوفان في غاية الوضوح ففي التوراة وهي من الكتب
القديمة ما يدل على ذلك فانه حين تكلم فيها على الخليفة من مبدئها
وما يتبع ذلك من الحوادث بينه غاية البيان حتى صار كل من
قراه كانه شاهد بالعيان كل حادثة من حوادث الاولين التي
احدثها رب العالمين وهذا وان كان فيه مخالفة لما نقله دويودور
عن المصريين في شان الخلفة وتديريها الا انه اصح لان ما نقله
دويودور ليس الا عبارة عن خرافات واوهام وبيان صور واوثان
لا يحصل بها معرفة السر المقصود منها واما ما في التوراة فهو حق

لا ريب فيه فانه عن موسى الكليم ومثله لا ينطق الا عن من هو بكل شي عليم وايضاً مذهب دويودور مأخوذ من امور ظنية نتجت من رصد المحوادث الطبيعية ولم يقف لا هو ولا غيره على ما اودعه الله فيها من الاسرار الخفية واما المكتوب في التوراة فهو بالنظر الى باطنها وحقيقة امرها لان موسى عليه السلام اوحى اليه بما قرره وكان عليه السلام بمصروقت وجود العلوم القديمة بها على اصلها وكانت اخبار الازمان الماضية وحوادثها عند علماءها على صورتها الحقيقية بخلاف دويودور فانه لم يوجد بمصر الا بعد انحطاطها عن درجة علوها وفخرها بما لحقها من توالي الفتن والمظالم وعليها فان علماءها بعد استيلاء الاروام والعراقيين والاعجام عليها كانوا عن درجة قدرهم نازلين وفي قيود الذل والهوان مكبلين هاجرين العلم والمعابد لما فشا اذ ذاك من المفساد فاستبدلوا الاشتغال بالمعارف الخفية بالاشتغال بغيرها وتفتنوا فيه بظنونهم الفاسدة واوهامهم الكاسدة فعموا بعباراتهم والغزوا في تفهاتهم التي كانوا يستعملونها في وصف الهياكل وغيرها فدخل الجهل شيئاً فشيئاً وصار العلم بالحقيقة نسياً منسياً وصارت عباراتهم فيما بعد غير مفهومة للقسس فشرحوها بغير المقصود منها فاحلوا الكذب محل الصدق واقاموا الباطل مقام الحق فنجمت على عقولهم عناكب الجهالة وعششت في اذهانهم حمائ الضلالة.

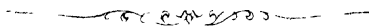
ومن قال ان اول من عمر ارض مصر النوبيون يعني سودان

أفريقية فقد أخطاء خطأ كبيراً لأنه لا مشابهة بين السودانيين
والمصريين في شي أصلاً لا في أعضائهم ولا في لغتهم بل السودان
من قديم الزمان على ما هم عليه الآن والذي يقبله العقل هو ما
ذكرتموه حضرتكم وما هو مدون في كتب العرب من أن من نخبوا
من العرق كانوا من سكان الجهة المرتفعة من الأرض فلا بد
أنهم كانوا في حدود الخراب منها وبعضهم كان سكن بآسيا وهم
الذين كانوا في سفح جبال توروس وجبال قاف فصارت أرض
آسيا كأنها منبع النوع البشري ومنها خرجت فرق متعددة وتفرقت
في جهات الأرض وعمرتها ومنهم من ذهب إلى أرض النوبة فعمرها
واتشرف فيها إلى الشلالات في نهاية أرض مصر

وأما قول المؤرخ إيفوران اسم النوبة كان يطلق على أصل
القبائل الساكنة قرب أرض البالستين من أرض آسيا وقول
هيرودوط أن أزدشير كان من النوبيين سكان آسيا فيجمل أن
يقال أن هذا الاسم كان يطلق على جميع أهل هذه الجهة بسبب
سمة لونهم من حرارة الشمس ثم فيما بعد أطلق على سكان شاطئ
النيل الأعلى وربما تشهد لذلك المشابهة الحاصلة بين المصريين
السالفين والنوبيين والحبس فعلى قولها لا مانع من أن يقال أن
أصل الجميع من سكان آسيا قبل الطوفان والذي يغلب على الظن
أنها متقدمة على من عداها في المعارف والفنون وإن التمدن كان
عندهم في أعلا التقدم وحيث لا غرابة في مشابهة قدماء المصريين

للصينيين في حروف الكتابة وبعض القوانين فان اصل الجميع
 واحد وكل منهم من ذلك الاصل مستمد وفي التوراة مدن غير
 بابل كانت العداوة بين اهلها لا تنقطع وكانوا كالبابليين متمتعين
 برياض المعارف مقتطفين منها ثمرات حسنة وكانوا يطلقون اسماء
 اولاد نوح عليه السلام على مواضع معينة ولا شك ان اهل هذه
 المدن لم تبلغ تلك الدرجة في زمن قليل بل لا بد انه بقي عند
 بعض عائلاتهم بعض ما كان عند اباؤهم الاولين من المعارف
 والعلوم حتى ظهر منهم ما ظهر من الآثار فيما بعد الطوفان ولكن
 في كلام بعض مؤرخي الصينيين ما يدل على ان حادثة الطوفان
 ازلت جميع ما للامم من الآثار فان قيل اذا كان كذلك فما السبب
 في بقاء العلوم والفنون حتى الاخلاق والعوائد والاطوار عند
 المصريين هذه القرون الطويلة وفي كتبهم المقدسة مع انها من
 علوم الامم السابقة على الطوفان قلنا ان ارض مصر لما كانت منعزلة
 عن باقي الامم منحصرة بين صحراويين ولم يكن بينها وبين غيرها
 اتصال والمسالك الموصلة لها صعبة كان ذلك هو السبب في ابقاء
 المعارف بها لانه لو سهل الوصول اليها لدخلت الاغراب واضاعوا
 معلوماتهم وما ورثوه عن اباؤهم الاولين فان فتوحات سزستريس
 الاكبر ترتب عليها اخلاط المصريين بكثير من الامم البعيدة عنهم
 والاسرى التي اسروها منها تقلوا اخبارها وخصب ارضها فدعا
 ذلك الى رغبة كثير من الناس فيها فسكنوها واخطلطوا باهلها

فحصل بذلك تغير في جميع احوال الملة في الامور السياسية والدينية
وفي هذه المدة تيقظت الملل الاخر الى مصر ففتح ذلك عليها ابواب
المصائب وكان اهلها قبل ذلك من حذقهم وخصوبة ارضهم
متحصلين على ما يزيد عن حاجتهم وكانت العلماء وارباب الوظائف
في غنية عظيمة وسعة تامة فبذلك كانت دائرة المعلومات اذ ذاك
متسعة وإدارة الحكومة منتظمة بقوانين عدلية فكان قانون العدل
بها له السلطان ولواؤه منتشرًا فوق راس كل انسان من ابتداء
منيس الى اخر العائلة الثامنة عشرة بخلاف سكان البقاع الاخر
والكلام في هذا المبحث يطول وليس الى ساحله وصول وقد ازف
الوقت ويلزمنا ان نغير الهواء ونريح الفكر بالتنزه في بعض جهات
البلد ثم بعد ذلك نتوجه لصاحبنا



المسامرة الخامسة والغانون

وصف

بعض النحاء بباريس

فقام الشيخ الى غرفته وادى من العبادات ما يلزمه في ديانته
ثم غير ما عليه من الملابس فلم يلبث برهة من الزمن واذا ببرهان
الدين قد حضر فقال له والده يا بني تهباً للخروج فانا مدعوون
فتهباً كما امره والده في زمن يسير ثم توجهوا الى غرفة الانكليزي
فاخذها وسار بهما الى ان وصلوا ميدانا محاطا بانية عالية مجبهة
بصور متائلة وغير متائلة ووسط هذا الميدان صورة قلة مرتفعة
فوق قاعدة مربعة وسط سعة مبلطة وحول تلك الصورة درابزين
من كل الجهات فوقف الشيخ وولده والانكليزي ينظرون اليه
والى الصورة الموضوعة في اعلاه فقال له الانكليزي الصورة التي

تراها هي تمثال نابليون الاول الذي اخذ مصر حين القيام الاول
 واغار بجيوشه على جهات كثيرة من اوروبا وانتصر مراراً عديدة
 الى ان آل الامر الى اخذه اسيراً وحبس في جزيرة سنت هيلين الى
 ان مات ثم احضر الفرنسيون جثته ودفنوها لاجل بقاء ذكره
 ورفعوا له هذا التمثال وهو من حجر الأّانه مكسو بتونج المدافع
 المأخوذة من النمساويين وغيرهم وارتفاعه ثلاثة واربعون متراً ومن
 داخله سلم ضيق يصعد منه المتفرجون الى اعلا القلة وكان في
 محل هذا التمثال قبل ذلك تمثال الملك لويز الرابع عشر المشهور
 وكان على قاعدة من الرخام الابيض وكان فوق حصان من التونج
 فلما حصل قيام الامة الفرنسية كسروه ووضعوا مكانه هذه
 الصورة وفي مدة الملك لويز الثامن عشر صدر الامر بنزول
 التمثال في سنة ١٨١٤ فانزلوه ولكن في مدة الملك لوي فيليب
 عمل التمثال الذي تراه ووضع محله وكان يوم وضعه يوماً مشهوداً
 حضرت فيه عساكر الرديف والآلات وكثير من اهالي المدينة
 وحضر الملك بنفسه مع جميع خواصه ورجال دولته وكانت
 الموسيقى تضرب والمغنون يترغنون بالالحان والناس في اعلا
 درجة الفرح

فقال الشيخ الذي يظهر من ان ملة الفرنسيين عندها طيش
 وخفة لان ما تستحسنه في يوم تستقبحه في غد وليس لها ثبات على
 حال واحد وهذا مما يوجب دوام اسباب الخلل اد من الواجب

عليهم بقاء احترام من اسس لهم هذه الشهرة العظيمة التي كانت سببا في رفعة قدرهم واتساع دائرتهم وقوة سطوتهم وهيبتهم واحترامهم عند جميع الامم حتى نشأ لهم من ذلك ما فيه من السعادة والتقدم ما لا يخفى وما حصل في مدته من الخلل لا يدعوهم الى تنزيله عن درجته المستحق له فان ما وقع من الشراييمه لم يكن مقصوداً له بل ذلك تقدير العزيز العليم ولو قدر على منعه باي حيلة ما قصر وما اسسه لهم دليل على غزارة عقله فانه احدث لهم ما يفخرون به فكان ينبغي لهم ان يديموا تعظيم هذا التمثال واحترامه وبينا هم في هذا الحديث واذا هم وصلوا حديقة السراية الملوكية وكان وقت الاصيل فوجدوها جنة لا يكاد يوجد لها مثل كثيرة الازهار جارية الانهار مخضرة الاشجار مخضلة الربى معتلة الصبا بها خلق كثير ما بين عظيم وحقيق ونساء ورجال وشبان واطفال ما بين فطيم ورضيع ورفيع ووضع فالرضيع على عاتق مرضعته وابن السنتين الى الخمسة مع دادته يتنوعون في الالعب فمنهم من بيده عصا يضرب بها كرة ويتبعها حيثما ذهبت ومنهم من بيده طارة قدر الغريال يحركها بالسرعة والنباهة ويدخل في وسطها ويخرج مع عدم قطع حركتها وآخرون يسوقون طارات مختلفة الطربعضا فيضربها بعضهم والبعض يسك حبالا بيده فيجره من تحت قدميه ومن فوق راسه والعباب اخر كثيرة التنوع مع نظافة الاطفال وسلامة ابدانهم وحسن صورهم وامثالهم

للمربيات واتباعهم او امرهن فعند ذلك تذكر الشيخ القاهرة واحوال
اطفالها الوخيمة وطباعهم الذميمة ودناسة ملابسهم وكثرة بكائهم
وعنادهم وقارن بين الحالين وعوائد اطفال الامتين وتمنى ان
تكون تربية اطفال المصريين كالجاري بباريز لتخلص الاطفال
من ربة الامراض الناشئة من عدم ثريضهم وحبسهم داخل بيوت
اهلهم فمن ازدياد فكره في ذلك واشتغاله بما رآه هنالك كان لا
ينظر الى من يمر به من اللباس المتجملين بالملابس الفاخرة وارباب
الوجوه الناضرة وكان كلما قرب من جهة بها اطفال يعن النظر
فيهم ولا ينقل طرفه عنهم ولكن لما كان عالما ان الانكليزي لا
يخرج عن رايه توهم في نفسه ان موافقته له ربما كانت على خلاف
رغبته فقال يا صاحبي ارجو منك السماح وعدم المواجهة فاني
حظيت هذا اليوم بنظري لهؤلاء الاطفال حظوة لا تعادل وسررت
برؤيتهم سرورا لا يماثل وازالت روءيتهم عني هموما كثيرة فنعم ما
يفعل بهذه الاولاد وان هذه الاصول التي هم عليها لفي غاية السداد
فان فيها حفظا للاطفال من العاهات ولولا هذا الارتياض للتحفم
ما يلحق ابناء المصريين من الامراض

فقال الانكليزي ومن عوائدهم ايضا كلما وحدوا الجو صافيا
ان يذهبوا باولادهم او يرسلوهم الى محلات التنزه في اليوم مرة او
مرتين الى ان تقوى بنيتهم فيرسلونهم الى المكاتب ليحصلوا على ما
فيه مصلحة لهم ولاهلمهم

وبالتجارب وجد من يموت منهم قبل هذه الرياضات أكثر
 ممن يموت بعدها ففي هذه فائدة عظيمة من حيث زيادة تعداد
 الالهالي وزيادتهم يزيد الخير لان ثروة الامة تابعة لزيادة عدد
 اهلها وفي داخل البلدة وخارجها حداثق وميادين مثل هذه وفيها
 من الاشجار والحيطان ما ينشرح به صدر كل انسان ونافورات
 وهياكل للزينة كل ذلك مجعول لتروح الناس وتريض افكارهم
 وقت التنزه

ثم سار الشيخ والانكليزي فما من جهة مرا بها الا قابلها خلق
 كثير في زي واحد لا يفرق الانسان بين الامير منهم والحقير والغني
 والفقير وكانوا لا يسمعون غير خرخشة الفساتين ودوي العربات
 ومناغاة الاطفال والفاظ رخيصة من ربات الدلال وهكذا كان
 يسمع من كل جهة ثم سارا حتى وصلا الى ميدان بنيانه من احسن
 البنين فمد الشيخ بصره يمينا وشمالا وخلفا واماما فوجده محاطا
 بمنازل عالية البناء حسنة التقاسيم وعليها درابزيات متنوعة
 الاشكال ملونة بالوان مختلفة لا يخرج واحد منها عن مجاوره ولا
 يعلو عليه ولا يتفاوت بعضها عن بعض الا بزيادة الرونق والزينة
 ووجد جميع الطرق مزدحمة بالخلق ازدحاما عظيما وكأنه يوم
 عيد لما على وجوه الناس من الفرح وعلى ابدانهم من الملابس
 المحسنة فصار الشيخ يتفكر في ذلك ويتأمل كل التامل فلما رآه
 الانكليزي مستغرقا في الفكر ينظر للناس تارة ولغيرهم اخرى قال

له ايها الاستاذ هل لك ان تقف ههنا هنيئة امام هذا الملك
المفارق لاهله المعزول عن ملكه بعد بقاءه فيه ثلاثة الاف سنة
فلما سمع الشيخ ذلك الكلام التفت فرأى عموداً مرتفعاً الى السماء
لا يدرك اخره البصر ولم ير الشيخ مثله ولا سمع به فيما مضى وغبر
فقال للانكليزي ما هذا الذي ارى فقال هذا عمود يقال له المسلة
واصله من مصر وكان بصحراء الاقصر والي الحجاج فاهداه محمد
علي باشا لشارل العاشر فنقله الى هنا ووضع في هذا الميدان ليكون
اعجوبة الى اخر الزمان

وبينا هما كذلك واذا بشيخ كبير انسل من بينها وهو يقول
هذا اثر من اثار المصريين الذين اخنى عليهم الزمان دال بذاته على
عظم قدرتهم وقوة باسهم وسطوتهم وغزارة علومهم ورزاقه عقولهم
وتالله انا ما علمنا الا بعض ما علموا ولا وصلنا الا لقليل مما وصلوا
فيا ايها الاثر الجليل انبئنا عن احاديث الماضين وما كانوا عليه في
تلك السنين فقد مر عليك سنوات واعوام وليال وايام وشاهدت
ما فعله الظالمون وجناه المعتدون فافصح لنا عن تاريخ ما رأيت
من الامم واعرب عما جرى بينهم في الزمن المتقدم وها انت في موضع
غير الاول فهل تعيش قدر ما عشت وتظن من المحوادث قدر ما
نظرت فالتفت الانكليزي فرأى الناس في ازدحام من خلف وامام
فاوسع للشيخ الطريق واخذ بيده وترك الناس في فريق الى ان
وصلوا العربية فركبوها وصار الشيخ يسأله عن تلك الاعاجيب وهو

يجيبه كانه امها وابوها فقال له ان اهل الاطلاع يقولون ان الواضع لهذه المسئلة رامسيس الاكبر صاحب الفتوحات الكثيرة والمصادمات الشهيرة ببلاد الشام والعراق والحبش وكان يوم وضعها بباريس يوما مشهوداً فلم يتخلف احد عن الخروج والنظر اليها حتى الملك وعائلته ولحم الباريزيون بذكرها واطالوا البحث عن حجرها وعن الملوك الذين في زمنهم رسمت والنوع الذي منه قطعت وهي عندهم الى الان من اعاجيب الزمان

ثم ساروا حتى وصلوا احدى الجهات فنظر الشيخ فرأى سراية قد تحلت بالصور العجيبة الشكل والهيكل النادرة المثل بين اعمدة من الحجر شاهقة الارتفاع قاسمة جميع وجهات السراية اقساماً متساوية الاضلاع وعلى الباب حرس بالسلاح يتمشون فقال الشيخ ما هذا المكان الذي اراه عجيب المنظر حسن المحبر وما هذه الاعمدة الرفيعة والهيكل البديعة فقال الانكليزي هذا مسكن ملوك الفرنسيس الان ويقال له سراي التويلري ومعنى هذا اللفظ في الاصل محل ضرب الطوب وقد كان كذلك قبل بناء فبقي الاسم وذهب معناه وبجواره سراي اللوفر كانت قبل بناء التويلري مسكناً للملوك ايضا ثم جعلت الان محلاً للرسوم والهيكل

فقال الشيخ وهل يمكن الان ان تراها فقال انها لا تفتح الا في ايام معينة واوقات مخصوصة وفيها مكان كله صور ورسوم يدخله النقاشون والمصورون لاجل تمرنهم على صناعتهم فاذا جاء اليوم

الذي تقع فيه ذهبنا ان شئت لننظر ما هناك من الرسم الغريب
الصنع والصور البديعة الوضع

فقال الشيخ سجان الله ان هذه الدنيا لا يبقى فيها شي على
عهد بل لا بد ان يناله نصيبه من الشقاء والسعد
واذا مررت على الديار وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

فقال الانكليزي صدقت ايها الاستاذ فان هذه الحداثق والمباني
العالية والطرق القوية كانت قبل ذلك بركا يخزن فيها الماء
والاوساخ وكان منظرها اقيج من منظر الخراب ثم انه في القرن
الثالث عشر صارت محلاً للمعامل الفخار الذي يغطون به سقف
المنازل وقاية لها من الامطار وكانت الملوك اذ ذاك تسكن سراية
اللوfer ولكن لم تكن وقتئذ مزخرفة الظاهر كما هي الان بل كانت
عبارة عن برج مستدير عالي السور وحواليه خنادق متسعة عميقة
لا يمكن عبورها الا بواسطة قناطير رفعونها بالسلاسل في اوقات
معلومة وفي ذلك الوقت بسبب كثرة تحزب الامة الفرنسية
وعداوتهم لبعضهم والملكم كانت بينهم فتن لا تنقطع فكانت همه
الملوك مصروفة لامر الحرب وقمع الاعدا والمحافظة على انفسهم فكانوا
لا يشتغلون بامر الزينة والمزخرفة ثم ارتفع الخوف وهدأت الفتن
واطمئت القلوب وقويت علائق الاتحاد فازدادت ثروتهم واتحدت
كلمتهم ووجهتهم فصاروا كأنهم رجل واحد وصار يسيطر حكومتهم

قانون واحد وساروا تحت راي ملك استقر اراهم عليه فذهب منهم جفاء الطباع واخذت الاحوال القديمة تذهب شيئاً فشيئاً وبعد ان كان جل همهم صلابة البناء وقوته وارتفاعه ومئاته صار مطمح نظرهم الى حسن صورته وتناسب اجزائه ولطافته فاخذوا يزينون اماكنهم ويتغالون في زخرفها حتى وصل بنائهم الى ما تراه وبعد ان كان لا يتمكن احد من القرب الى سراي الملك صارت الناس تمر كما ترى في طرفاتها وتحوم في حوماتها ويدخلون من جميع الابواب من غير منع ولا حجاب فكل زمن له حكم

وفي زمن الملك فرنسوا الاول اشترى محل سراي التويلري وكان فضاء يبلغ قريباً من مائة فدان مصري واشترت والدته ما جاوره وبنت فيه محلا لها ولم يبدأ في سراي التويلري الا في وقت ماري دومدس ومن ذاك الوقت سكنها الملوك وصار كل ملك يضيف اليها شيئاً ولم تكن من اول الامر متصلة بسراي اللوفر بل كان بينهما فضاء وبيوت للاهالي فصارت الملوك تشتري هذه البيوت شيئاً فشيئاً ويدخلونها ضمن السراي ولم يصل هذا المكان الى الهيئة التي تراها الان الا مدة نابليون الثالث امبراطور الفرنسيين وان كان نابليون الاول ولويس فيليب وغيرها من قبلها اشترى كثيراً من البيوت وادخلوها ضمن السراي وصرفوا في ذلك مبالغ جسيمة من المال

وفي تقسيم المدينة اغبرت سراي اللوفر وسطاً وجميع طرق

البلد متصلة بها وتنتهي بالحيط ولما قسموا المدينة جعلوها عشرين
خطا وسموا كل خط باسم اشهر مكان فيه فالاول يسمى باللوفر
لوجود سراية اللوفر به والثاني بالبرتينة والثالث بالتامبل اى المعبد
والرابع بالمحافظة وهكذا

وبعد برهة وقفت العربية فنزلوا لدى مكان فطرق الانكليزي
بابه ففتح البواب ودخلوا واذا بصاحب المنزل قابلهم بالترحب
وسار امامهم نحو ديوان عظيم متسع مفروش باحسن الفرش منقوش
سقفه باحسن النقش وحائطه من كل جهة بالورق المنقوش
بالذهب وفيه من عجائب الرسم وغرائب الصنعة ما يسر الناظر
وارضه من خشب الجوز مفرغة في قوالب اشكال هندسية منتظمة
وكان هناك ثلاثة من ارباب الجمعية الشرقية كلهم يتكلمون
بالعربية وغيرها من اللغات الشرقية وكذلك صاحبة المنزل مع
اثنتين من النساء الحسنات فلما قرب صاحب المنزل من المجلس
عرّف المحاضرين بدرجة الشيخ في المعارف وغزارة مادته في العلوم
وفصاحته في العربية فقاموا له واجلوه واجلسوه وسطهم وآسوه
وجلست صاحبة المنزل عن يمينه فصارت تحييه باحسن ما عندها
من التحيات ويترجم احد المحاضرين للشيخ تحياتها وكان مطمح نظر
المحاضرين الى برهان الدين لكونه كان اشد حياء من والده حسن
السمت كثير الصمت فاعجب صاحبة المنزل اذبه وكماله فكان
اغلب حديثها معه وكان الانكليزي قريبا منها فكان هو المترجم

لكليهما ولما حضر الطعام اجلسه عن يمينها والشيخ بينها وبين زوجها
ثم اخذوا يتناولون الطعام ويتجادبون اطراف الكلام ويتسألون
اسئلة اثناس حتى رفع الطعام فرجعوا الى الديوان ودار بينهم
الحديث في كل قديم وحديث بخصوص مصر وما احتوت عليه
من المحاسن قديما وفي هذا العصر وخصوبة ارضها واعندال قطرها
وصفاء هوائها ومن سكنها من القدماء والمحدثين ومن تصرف في
امرها من الاولين والآخرين وتداول الدول في الاواخر والاول
وما اعثورها كل زمن من المنح والحن وكان من جملة الحاضرين
رجل قد ناهز السبعين عليه الوقار والجلالة معظم لدى الحاضرين
مسموع الكلام عندهم اجمعين طلق اللسان في اللغة العربية فظهر
للشيخ من كلامه انه مارس كثيراً من المعارف المشرقية لانه رأى
غالب كلامه اللغة العربية والفقه واشعار العرب ونوادر الادباء
ورآه حافظاً لكثير من غرر القصائد ومتخب كلام البلغاء يميزها
بنوادر مستظرفات ويقارن بعض لطائف كلام العرب بما يقابلها
من كلام الافرنج فعجب الشيخ من ذلك كل العجب وطرب من
منادته كل الطرب فطال بينهم الكلام وانفصح المقام ودخل معهم
الانكليزي والحاضرون اجمع منهم من تكلم ومنهم من سمع وخاضوا
بين جد وهزل ومفضول وذو فضل وحوادث البوادي والحواضر
في الغواري والحواضر الى ان قرب الليل من الاتصاف وجاء
وان النوم فاستاذن الانكليزي وقام الشيخ والحاضرون وتواعدوا

بالاجتماع فقال ذلك الرجل للخوaja اني اريد ان اتشرف بك
 وبحضرة الشيخ الليلة القابلة فاعذرله الشيخ ووعده بان يحضر الى
 منزله في الليلة التي تليها وانصرف كل مسرورا بما حصل له من
 الاثناس بمن رآه من امثال الناس وذهب عن قلب الشيخ ما داخله
 من الم اغتراب وفراق وطنه والاحباب وشكر الانكليزي على
 حسن صنيعه به وعلى ما اسداه اليه من البر وتعرفه باحسن
 الناس فقال يا حضرة الشيخ هذا بعض ما يجب عليّ وغاية مناي
 اطمئنان خاطركم وادخال السرور عليكم وقد علمت الليلة سرور
 من اجتمعنا به بحضرتكم لاسيا الرجل الهرم فانه انجذب الى حكم
 بكمليته فمن الواجب دوام الود بينكما وقد رجاني في ذلك وهذا لا
 باس بمعرفته فانه من مشاهير هذا الوقت علما وادبا ومن خيار هذه
 الامة حسبا ونسبا وله تاليف عديدة في علوم شتى ومعرفة بلغات
 متعددة فضلا عن كونه رئيس الجمعية المشرقية معدودا من علماء
 اروبا وامريكا ومن اعضاء جمعية الملة واني لارى ان معرفة مثل
 هذا اصل ينبغي عليه معرفة امراء البلد واكابرها

فقال الشيخ ومن لي بمثل هذا فاني استظرفت كلامه وعجبت
 لجودة قريحته وذكاء فطنته وتوقد ذهنه مع كبر سنه

فقال الانكليزي وكيف رايته في علومكم قال هو مع غلبة
 العجبية عليه في النطق لبعض الالفاظ العربية ذو قدم راسخة في
 العلوم وله اطلاع على كثير من كتب العرب وتضلع من علم

الادب ولا بد انه ساح في كثير من بلادنا ومارس فضلاء العباد
حتى تمكن ما تمكن .

فقال الانكليزي نعم فانه حكى لي انه اقام بمصر مدة سنين
وتوجه الى الحجاز واقام بمكة مدة ثم سافر الى عراق العرب ونزل
بغداد وساح تلك البلاد ثم ذهب نحو عراق العجم وسكن تحت
ملك فارس وكل ذلك كان لطلب العلم فجنى منه ثمرات واقتطف
زهرات واما بلاد اوروبا فلم يترك منها بقعة الا وله فيها شهرة
وسمعة حتى جنى من ثمار معارف كل جهة احاسنها واقتطف من
ازهار كل فن اطايها وفي مدة تغربه حاز الفضائل من الافاضل
واكتسب الوقار من معاشر الاماثل وستسبر غوره متى كثر الاجتماع
وتاكدت علائق الالفة



المسامرة العادسة والثمانون

تعدد الزوجات

ثم وصلا محل سكنها فحي كل صاحبه ودخل الشيخ غرفته فتوضأ وصلى صلاته وقرأ بعض ادعية ثم دخل فراشه ونام حتى الصباح فلما استيقظ من نومه دخل ولده عليه وجلس بجانبه بعد تقبيل يديه ثم قال له والده قد آنسنا اهل مجلس الليلة فانهم اذكيا ظرفاء واظن انك كنت في غاية الانس بصاحبة المنزل فاني ما رأيتها فارتكت ولا رأيك مللت حديثها وكنت احيانا تحديق النظر نحو صواحيباتها وهن كذلك فغض برهان طرفه وتبسم واطرق راسه ولم يتكلم فقال له والده ما الذي دار عليه حديثكم لا بد ان

تخبرني بما جرى بينكم فقال سألني صاحبة المنزل عن حال النساء عندنا وعن والدي وأخوتي فاجبتها بما يليق ثم سألتني أمتزوج أم لا وهل والدك معه غير أمك أم لا فقلت لها أما أنا فلم أتزوج وأما والدي فليس معه غير والدي ولم يتزوج غيرها فقالت وكيف ذلك مع أن المشرقيين يحبون تعدد النساء فقلت لها كثير من المسلمين لا يتزوجون بغير واحدة وليس التعدد محتما عليهم وإنما قد تعرض للانسان اسباب تلجئه الى أن يعدد نسائه والشرع عندنا لا يمنع إلا ما زاد عن أربع وأما ملك اليمين فلا حظ فيه ولو كان ما كان فضحكت إحدى النساء متعجبة وقالت حيثئذ يمكن الغني أن يقتني الوفا للتمتع بهن فقلت لها نعم فقالت حين ذاك لا يعرف لاحداهن فضل عن غيرها فاي بلدة تصنع بنسائها هكذا وكيف تكون معيشة النساء بها لا جرم أنها عيشة غير مرضية ولا شك في أن نسائهم لا يقطع لهن زفير من ألم الغيظ الكامن في أنفسهن وإن كل واحدة انتهزت فرصة من الأخرى تفعلها بها لتحظى بزوجها أو سيدها دونها وإظن أنه إذا كان صاحب عائلة على هذا النسق لا يسر خاطره ولا يروق ناظره ويقضي يومه وليلته في دعاويهن مع بعضهن ومعه فتارة يكون خصما وتارة حكما وربما لا يأمن على نفسه وماله من عائلته فالعجب كل العجب من هذا الاصطلاح الذي هو منشأ الفساد في حياة الانسان وبعد موته فإن ما يحصل بينه وبين

عائلته في حال حياته لا بد ان يحصل اشد منه بينهن وبين اولادهن بعد مماته خصوصاً عند قسم التركة أظن ان هناك قانوناً للزواج احسن من القانون الذي عندنا فقلت لها ان احسن قانون واحده قانون شريعتنا الغراء فانه قانون الخالق المدير لامورنا المتكفل برزقنا وقد جاء به الانبياء المرسلون المطهرون المقربون عليهم الصلاة والسلام وكل ما جاء به الرسل يجب علينا السير بمتنضاه من غير زيادة فيه ولا نقص ومن خالف الشرع وتعدى عن حدوده استوجب الحد كما لو خالف افرنجي انجيل عيسى عليه السلام او يهودي توراة موسى فانه يعاقب على مقتضى شريعته ولا يسوغ لاحد ان يسير بمقتضى عقله ويترك ما وردت به الشريعة فان عقل الانسان محل للخطاء وايضاً ليس في النوع الانساني من هو اوفر عقلاً من الانبياء عليهم الصلاة والسلام والله فيما نراه من الخلاف بين الشرائع عند التشريع حكمة خفية لا تدركها عقولنا ولو اطلعنا عليها لرجعنا الى الحق وتركنا ما سواه الشيطان حتى وقع عند بعض العقول موقع قبول واستحسان واما اشتغال البال بالذي يحصل من منازعات الضرات فلا يحسن وجهها للتحمسين والتقيج فقد يكون هناك من له امرأة واحدة وهو منغص العيش من قبلها مشوش الفكر بسببها فكل نفس جعل الله لها من هموم الدنيا وحظوظها نصيباً على قدرها وقد يحصل التوافق بين زوجات ويتظم الحال ويحسن المال

فقلت الجميلة منهن البديعة بينهن ليس للانسان الا قلب واحد فلا يهوى غير شي واحد وكيف يقسم بين اثنتين فقلت لها دوام المحال من المحال فانه لو تعلق قلب الانسان بذات من الذوات وانها اشد ما يكون من الالفه وتولع بها وهام فلا تثبت له هذه الصفة على الدوام بل متى انقضت مدة التعلق قصيرة كانت او طويلة وتخلي القلب عما علق به سكن غيره فيه واظن انا لو تأملنا لوجدنا هذه الحالة لدى كل الناس لا تخص جهة دون اخرى ولا خلقا دون اخرين ففي قانون شرعنا لو وجد الرجل بقلبه كراهة لزوجته يسوغ له فراقها وكذلك هي لها ان تشتري منه عصمتها او تطلب منه ان يفارقها ويتخلص كل من الم الكراهة واما عندكم فلا حيلة ولا خلاص لاحد الزوجين من صاحبه تحابا او تباعضا فتبسمت صاحبة المنزل من قولي وقالت لمن تحدثني قد الزمك المصري الحجة فنجلت ولم تكلم بعد ذلك وكان صاحبنا الانكليزي معنا وهو المترجم لي ولها عما دار بيننا من الحديث فكان يقوي حجتي فقد فهمت من كلامه ان قال لمن ان بقاع الارض مخالفة لبعضها في احوالها وكل امة سكنت بقعة منها كانت امور نظامها واحوالها على حسب ما تقتضيه حال بقعتها تبعا للنظام وتوافقا بين البقاع وما فيها من الحيوان والنبات والمياه والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وغير ذلك وايضا فان المقصود من

الزواج انما هو زيادة النوع الانساني فلو فرضنا انه جار في بلاد المشرق كجربانه في بلاد المغرب لحصل الخراب في ارض المشرق او العكس لما وسعت بلاد المغرب اهلها فان المولودين في اوروبا اكثرهم ذكور والمولودين في الشرق اكثرهم اناث فنسبة الاناث المولودين بارض المانيا مثالا الى الذكور المولودين بها كنسبة مائة واربعة الى مائة هذا وان كان من يموت هناك من الاناث صغيراً اكثر ممن يموت من الذكور فان العبرة في التعادل بمن بلغ سن البلوغ من النوعين واما زيادة الذكور عن الاناث في ارض فرنسا على العموم فهي جزء من خمسة عشر جزءاً بخلاف باريز فان زيادة المولودين الذكور عن الاناث بها جزء من سبعة وعشرين جزءاً وفي لوندرة نسبة المولودين الذكور الى الاناث كالنسبة بين عددي تسعة عشر وثمانية عشر وفي مدينة نابولي من بلاد ايطاليا كنسبة اثنين وعشرين الى واحد وعشرين وفي بلاد الفلمنك وما جاورها كنسبة ثلاثة وعشرين الى اثنين وعشرين وليس ذلك مجرد قول بل كله ثابت بجميع نتائج تعداد هذه الجهات في نحو من مائة سنة فظهر من هذا ان الذكور ببلاد اوروبا اكثر من الاناث بخلاف ارض مصر وبلاد النوبة وبلاد الشرق فقانون الطبيعة عندهم جار على عكس ما عندنا لان المولود من الاناث عندهم اكثر من الذكور بقدر ثمن عدد الذكور وهذه حكمة ابدية واردة ازلية وفي

بلاد الصين ويابونيا زيادة الاناث عن الذكور بقدر السدس وقانون الفناء جار تقريبا على هذا المتوال ففي اوروبا النسبة بين الاموات الذكور والاناث كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين وخمسة وعشرين وفي مصر على مقتضى الجدول التي حررتها الافرنج تكون النسبة بين من يموت من النساء ومن الرجال كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين الى عشرين فمعناه ان من يموت من النساء اكثر ولكنه غير مساوٍ لكمية المولودين هذا مآل ما فهمته من كلامه معهم ثم ضرب لي مثلا بمديرية المنيا وبني مزار فقال ان الملك الاشرف شعبان بن الملك الناصر محمد كان مسح قطر مصر كله وعد اهل المنيا وجميع قرى المديرية وكان ذلك سنة ثمانمائة وخمسة عشر فوجد اهالي تلك المديرية قريبا من العدد الذي وجدته الافرنج حين عدوا تلك المديرية فان رجال اهلها كانوا مدة الناصر تسعة عشر الفا وثمانمائة في ثلاث وثلاثين قرية وخمسة عشر الفا وسبعمائة في ستة وستين كفرا والفين وثمانمائة وواحدا وعشرين في ثلاث وعشرين نزلة والفا وستمائة وثلاثة وثلاثين في ثمانية وثلاثين نجعا فمجموع ذلك تسعة وثلاثون الفا واربعائة واربعة وخمسون رجلا وبجعل عدد النساء اكثر من عدد الرجال قدر الثلث كما دلت على ذلك التجارب يكون مجموع النساء اثنين وخمسين الفا وسبعمائة وخمسين فيكون جميع اهالي المديرية من

الذكور والاناث مائة الف وثلاثة الاف نفس وثمانائة وفي وقت الافرنج وجدوا اهالي المديرية المذكورة مائة الف واربعة الاف وستائة وخمسين نفسا فيكون الفرق ما بين مدة الملك الناصر وبين عدد الافرنج لهذه المديرية اي من سنة الف وثلثمائة وخمسة عشر الى الف وسبعمائة وثمان وتسعين نحو ثمانمائة نفس في ظرف اربعمائة وثلاث وثمانين سنة وهو شي يسير جدا لكن يلزم ان يلاحظ انه في تلك الاوقات كان ياتي الطاعون في كل اربع سنين مرة وفرار اناس كثيرين بسبب ما كان يحصل اذ ذاك من الجور والظلم هذا ما لاح بفكري وبناء على ما سبق يعلم سبب تعدد النسا في بلاد المشرق دون بلاد المغرب وارجو ان اسمع من جنابكم ما عندكم في هذه المسئلة

فقال الشيخ لا شبهة في ان القوانين العامة التي يراد بقاؤها على مرور الازمان يجب ان تكون ملحوظة الاصول والفروع بلواظ الاستحسان وان تكون مربوطة بعلة صحيحة واغراض حميدة يفهمها كل احد ويرى ان لا سداد لاعماله وحسن حاله وماله الا بالركون اليها والتعويل عليها سواء كان القانون من الفيض الالهي الذي لا يكون مسبوقا باجالة فكر وتدقيق نظر وهو المبسوط وحيا والهاما وحملته الانبياء والرسل وتسمى تلك القوانين باسم الشريعة والدين او كان القانون باجالة الفكر وتدقيق النظر ومقارنة الاحوال وموازنة العواقب فما كان منها اسهل مسلكا واعلى

غاية وأبعد من شوائب الفساد وأقرب الى الضبط واجمع للخير
انحط عليه الاختيار وتطابقت فيه الآراء واصحاب اولئك القوانين
يسمون باسم الحكماء وقوانينهم تسمى الحكمة العملية وهي قسمة الحكمة
العلمية والحكمة العلمية منقسمة الى اربعة اقسام القسم الاول سياسة
الشخص نفسه وهذا القسم هو المسمى بين اهل الاسلام بعلم الاخلاق
والتصوف الظاهر وقد وضع علماء المسلمين فيه كتباً جمة كقوت
القلوب لابي طالب المكي ونصف احباء العلوم لحجة الاسلام الغزالي
(ويشرح في هذا العلم ما جبل عليه الانسان من القوى واثارها
وتقسيمها الى اصول وفروع فيبين مثلاً ان الانسان ذو قوة غضبية
هو من جهتها سبع وقوة شهوية هو من جهتها بهيمة وقوة عاقلة
هو من جهتها ملك من الملائكة وروح من الارواح المقدسة وان
لكل من القوى تواجد هي لها بمنزلة الخدم والعمال والقوة العاقلة هي
السلطان الاكبر وانه يلزم الانسان ان يكون تصرف قواه تحت
وامر القوة العاقلة ونواهيها) القسم الثاني سياسة المنزل بان يعرف
ما للمنزل وعليه من الحقوق وما لاهله من الوظائف اللائقة
بأشخاصه فيسلم لكل شخص وظيفته بعد ايقافه على حدودها واعمالها
وغاياتها القسم الثالث سياسة المدينة وهو كالقسم الذي قبله وغاية
الامر ان المدينة منزل اكبر القسم الرابع سياسة القطر وبالتأمل
يعلم ان جميع السياسات مرتبطة ببعضها ارتباطاً متيناً كما هو من مقتضى
النظام النظري الذي عليه مجموع العالم ازمته وامكنة اذ لا رية

في ان العالم شخص واحد ذو اعضاء واذا تمهد هذا علمت انه يجب في كل قانون شرعا كان او غيره ان ينظر الى علله التي اسس عليها وغاياته التي يرشد اليها فانها المحافظة له الموجبة لبقائه الممكنة له من القلوب فان مدار امر المحي على ما يحفظ به حياته اصلا وتواع فكل امر له دخل في ذلك فهو محبوب مطلوب وكل امر اوجب فيه نوعا من الفساد فهو مبغوض غير انه اذا نظر في احكام المصالح العامة وتاثيرها وتبين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها جارية على منهاجها ومتى كان النظر مقصوراً على المصالح الخاصة نجم الفساد واستحكم ولم يتم امر مصلحة لما يكون في الاستئثار من المباغضة والمشاحنة ومن الامور العظيمة التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها بقانون منتظم امر اجتماع الذكور بالاناث فانه مع كونه مانعا من لحوق ما ينشأ عن الامتلاء فهو السبب في بقاء النوع وتكثيره وللانسان بين طبيعته التي يشارك بها سائر الحيوان واسطة يتميز بها عنه وهي العقل فهو لا يسعى في تحصيل مقتضيات طبعه الا تبعا للاحكام العقلية ولما لم تكن الانظار العقلية والطباع الفطرية كافية في ذلك من الله علينا بان ارسل لنا انبياء تلقينا منهم ما لا نفي به الانظار العقلية فكان من شريعة موسى عليه السلام ان يجمع الرجل في عصمته ما شاء من النساء فلما جاءت شريعة عيسى عليه السلام نسخت ذلك واوجبت الاقتصار على واحدة وتوسطت الشريعة المحمدية كما هو شأنها في كثير من الاحكام فاجازت

العدد الى الاربع ومنعت ما وراء ذلك كما اجازت فراق واحدة
واحياز اخرى وحيث كانت الشريعة المحمدية مبنية على العدل
والاحسان واجتناب انواع الظلم والعدوان وكسر عادية القوى
السبعية والبهيمية وقد امرنا باتباعها والاهتداء بانوارها لم يكن امر
تعدد النساء محذوراً الا في الحال ولا في المال فانه اذا نظر لبقاء
النوع وتكثيره كما هو المأمور به في قوله صلى الله عليه وسلم تناكحوا
تناسلوا تكثروا كان التعدد اعون على ذلك الغرض وانج وان
نظر الى المساعدة والمعاونة فالكثرة مع الائتلاف واتحاد الغرض
خير من عدمها ولا نظر في الدين لمجرد الشهوات اذ لو نظر لها
لوجدنا ان المرأة الواحدة تعجز كثيراً من الرجال واذا كانت النساء
في بقعة اكثر من رجالها والضرورة داعية الى توزيعهن فتعدد
الزوجات لازم غير ان استحكام الجهالة والغاء مدارس الديانة وترك
بناء الاعمال على احكامها وانقطاع المواعظ المحسنة النافعة المفيدة
بين الرجال والنساء تولد منه العود الى مقتضيات الطباع من
الغيرة والمحاسدة وحب الاستئثار والاسترسال مع الشهوات
والدخول في الامور من غير تقدير للحاجة ونظر للعاقبة فاخلل
قانون الازدواج ولحقه الفساد وقامت المشاقة فخلاصة القول ان
جميع الاشيا حسنها وقبحها ومدحها وذمها تابعة لكيفياتها وتائجها
فما طابت كيفيته وعظمت نتيجته لم يخلف احد في حسنه . اهـ .

المسامرة السابعة والتمايور
النعداد او الاحصاء.

ثم دخل الانكليزي والشيخ يلقي لابنه هذا الكلام فانتقل
الحديث بهم الى مسألة تعداد اهل الارض وذكر ما في ذلك من
الفوائد السياسية وبيان ما وضع له من التقريبات فكان من
الانكليزي ان قال لو قلنا مثلاً ان النسبة بين الموجودين بارض
فرنسا وبين المولودين بها في السنة الواحدة كالنسبة بين عددي
واحد وواحد وثلاثين فهم منه معرفة جميع اهل فرنسا تقريباً بضرب
عدد المولودين في عدد واحد وثلاثين ومثل ذلك ما لو قدرنا
ان النسبة بين اهالي جهة من المانيا والجهات الشمالية وبين
المولودين بها كالنسبة بين عددي واحد وتسعة وعشرين وثلاث
والقصد من ذلك معرفة عدد الامة على سبيل التقريب وهذا لا

باس به بل قد يجب على المحكام يبنوا عليه مقاصدهم في اصلاح
 حال رعاياهم وهذا علم نفيس معتنى به عند الامم الاوروبوية وله
 فوائد عندهم منها معرفة من بقي ممن ولد في يوم واحد مثلاً بعد
 مضي عدد من السنين ولم في ذلك جداول يذكرون فيها ان
 بعد سنتين الا ربع سنة يموت ربع من ولد في اولها ويقتى الثلاثة
 الارباع وبعد اربع سنين الاشهر يبقى ثلاثة اخماس فقط وبعد تسع
 يبقى ثلاثة اتساع وبعد عشرين سنة الى الثلاثين النصف وبعد
 خمس وثلاثين الى اربعين يكون الباقي خمسين وبعد الاربعين
 يبقى الثلث وبعد مضي خمس وخمسين سنة لا يبقى الا الربع ثم بعد
 سبع وستين يكون الباقي ثلاثة اجزاء من عشرين جزءاً من الاصل
 ومتى بلغ العمر سبعة وسبعين سنة يكون الباقي جزءاً من ثمانية عشر
 جزءاً من الاصل وبعد مضي خمس وثمانين سنة يكون الباقي اثني
 عشر جزءاً من الف جزء من الاصل وبعد اربع وتسعين سنة
 يكون الباقي ثلاثة اجزاء من الف جزء وبعد مائة وخمس سنين
 وثلاثة ارباع السنة يكون الباقي جزءاً من مائة الف جزء ومتى
 بلغ العمر مائة سنة وتسع سنين يكون الباقي جزءاً واحداً من الف
 الف جزء من الاصل اي انه لو فرض ان الاصل كان المولود
 في يوم واحد الف الف لا يبقى منهم بعد هذه المدة الا واحد عمره
 مائة سنة وتسع سنين

فبهذه الوسائل تكون افكار المحكام تابعة لسير الامة في جميع

تقلاتها وحركاتها نحو السعادة والفقر والقوة والضعف والكثرة
والقلة فعلى مقتضى ما يروونه يخون نحو ما فيه الاصلاح
فقال الشيخ من المعلوم ان الافرنج لم يقيموا بمصر غير ثلاث
سنين وهم في قتال دائم فكيف تفحصوا هذا التفحص واستكشفوا هذا
الاستكشاف مع انها بقيت في يد غيرهم اعواماً وقروناً ولم يحدثوا من
ذلك شيئاً

فقال الانكليزي لا غرابة في ذلك فان الاعمال تابعة للنيات
فمن سبق على الافرنج كان لا يشغله عن شان نفسه شأن وما كان
يحصل عليه كان كافياً لما يلزمه واما الافرنج فكانت نيتهم غير نية
من سبقهم وباختلاف الاغراض تختلف الاعمال انظر الى المرحوم
محمد علي باشا حين وليها بعد الافرنج فاحدث فيها اموراً عجيبه
وجلب اليها من البلاد الاجنبية كل صنعة غريبة ثم تبعه في ذلك
من بعده ممن ورثها من ولده فتراها بعد ان كانت في زوايا النسيان
مهجورة العمران لا ذكر لها بين الامصار قد كساها التمدن حلل
الفخار فقصدها العافون من كل واد وغلت مزارعها واضحت نزهة
للناظرين ويساتينها عقود جمان رصعت بالدر الثمين وما من سنة
تاتي الا ويستجد بها من المنافع ما يفوت الحصر من فوائد جديدة
ومحاسن عديدة والمغارس تزداد والثمار تنمو وبعد ان كان
كثير من ارض الزراعة بها قد استحوذ عليه العدم وصار لا ينبت
من طفو ماء البحر الملح عليه او تغطية الرمال له حصل الالتفات

في مدته ومدة اولاده فصلح اكثرها وزرع وظهرت الثمرة لاهلها وقد كان بالجهات البحرية من مصر منافع مياه متسعة وبها كثير من الحشائش فكانت بطول مكث الحشائش وركود الماء يحصل منها تعفن وامراض يترتب عليها تلف للاهالي فصارت الان لا يرى لها اثر وتبدلت حشائشها بالزراعات النافعة كالارز والقطن والحنطة وغير ذلك

فقال الشيخ ان ذلك متوقف على العلم بما كان عامراً وغامراً بمصر قديماً فلو عرفنا ذلك امكن الحكم تفضيل احد الحالين وتفاوت ما بين الزمانين فان من المؤرخين كابن اياس من يقول ان المنزرع من ارض مصر زمن المسعودي اعني في حدود القرن الرابع كان مائة وثمانين الف الف فدان ويبلغنا الان عن بعض صيارفة البلاد ان جميع المنزرع من ارض مصر ما بين الاربعة الاف الف والخمسة الاف الف فتكون نسبة ما بين الزمانين كنسبة واحد الى ستة وثلاثين او خمسة واربعين ولا اظن ان هذا الفرق كان يزرع ثم هجر فلعل في عبارة ابن اياس تحريفاً والّا فهو خطأ والذي يؤيد ذلك قوله ان في ذاك الوقت كان لا يجبي الخراج على بكرة ابيه الا اذا بلغ عدد من يشتغل بالزراعة اربعمائة وثمانين الف نفس في جهات القطر مع ان الموجود حين التعداد الذي صار في زمنه ليس الا مائة وعشرون الف نفس وكان المنزرع اذ ذاك ربع الزمام فان اراد الفدان المصطلح عليه

خص كل شخص من المائة والعشرين ثلاثمائة وخمسة وسبعون فداناً ولا يعقل زراعة هذا القدر بشخص واحد وإن أراد بالفدان أقل من الذي نستعمله كالفراط مثلاً فيخص كل شخص من المائة والعشرين ألف نفس حينئذ خمسة عشر فداناً فيكون القدر الذي أراد وضعه ألف ألف فدان وستمائة ألف فدان وليس مائة وثمانين ألف ألف فدان وإذا كان للشخص الواحد خمسة عشر فداناً لا يبعد عليه زراعتها وما يدل على أن في عبارة ابن إياس تحريفاً أو خطأ ما ذكره في موضع آخر عن المسعودي أيضاً من أن مساحة أرض الزراعة جميعها بالقطر المصري مسير ستين يوماً فإن كان قصده سعة طولها وعرضها ستين بسير الإنسان فالمساحة الذاتية الآن لا توافق المساحة الأولى أصلاً والذي يغلب على ظني غلبة تقرب من اليقين أن الأصل ألف ألف وثمانمائة ألف فدان وإن الناسخ لكتاب ابن إياس أضاف صفرًا فحصل منه هذا الخطأ الفاحش

فقال صاحبه الإنكليزي قد قلت صواباً فإن المساحة التي صارت مدة الإفراج ومن قبلهم توافق ما ذكرت فقد صار حصر جميع الأرض المضروب عليها الخراج في جميع الجهات وتحررها قوائم من طرف صيارف الجهات فوجدت ثلاثة آلاف ألف فدان ومائة وثلاثة وستين ألف فدان وستمائة وثمانية عشر فداناً وقوبل ذلك على ما استنبطه مهرة المهندسين وحرروه من رسم الأرض وهو

ثلاثة الاف الف ومئتان وسبعة عشر الف فدان وستائة وسبعة عشر فداناً فوجد بينهما فرق قليل نشأ من اختلاف طرق الحساب بين مساحي الاهالي والمهندسين وحيث ان هذا المقدار اعتباره صحيح لاشك فيه فانه موافق لما وجد في دفاتر المساحة زمن الملك الناصر سنة ٧١٥ هجرية الموافقة لسنة ١٣٦٥ ميلادية وهو ثلاثة الاف الف ومائة واثنان وسبعون الف فدان ومائة وستة وثلاثون فداناً ولا عبرة بما بينهما من الفرق لانه ناشئ من اختلاف طرق الحساب والقياس

ثم قال ولا يخفى على حضرتكم ما حصل في القطر المصري بعد زوال ملك الفراعنة واستيلاء الاغراب عليها من الاسباب التي اوجبت تاخيرها وعدم انتظام حالها ونشأ من ذلك تلف كثير للارض بتركها واهمالها وفرار اهلها حتى خرب كثير من البلاد فمن ذلك يعلم ان ما وجده الافرنج مزروعا بوادي مصر ليس جميع ما كان يزرع في الازمان السابقة بل لا بد من اضافة ما كان قابلاً للزراعة ولم يزرع في ايامهم وكذلك الترع والجسور التي انشئت وارض البلاد التي استجدت وما اتلفه البحر المالح بعد تلف الجسور وترك المحافظة وضمه الى ما كان يزرع زمن الفراعنة وهذا الامر لا صعوبة فيه من بعد ما حرروا من الرسوم وقد امكن بسببه معرفة مساحة القطر وما اشتمل عليه بغاية الدقة كالمبين ادناه

فدان	
ارض مشغولة بالسكن	٧٣٠٥٨
مساحة المنزرع والقابل للزراعة	٢٢١٦٧١
غير الصالح للزراعة	٧٤٩١٤٠
جزائر النيل	٣٦٦١٣
ترع وخليجان وجسور	١٢٠٥٦٣
اماكن السكن والخراب	١٦٣١٦
مساحة مجرى النيل المشغول بالماء	١٥٨٩٤١
البحائر والبرك	٩٤٢٨١٠
الارض الرملية	٢٢٧١٣٤
جملة ذلك	<u>٥٥٢٤٢٥٠</u>

اي خمسة الاف الف فدان وخمسمائة واربعة وعشرون الفا
ومائتان وخمسون فدانا من الفدان الذي مساحته خمسة الاف
وتسعمائة وتسعة وعشرون متراً مربعاً وهذا التقدير يعادل من
الفراسخ المربعة التي كل فرسخ منها يدخل في الدرجة الارضية خمسا
وعشرين مرة الفا وستمائة وثلاثة وستين فرسخاً مربعاً وثلاثي فرسخ
تقريباً والمزروع من ذلك يعادل تسعمائة وخمسة وستين فرسخاً
مربعاً ونصفاً فان اضيف الى ذلك
مساحة الخرس وهي ٢٢٤٨٧

ومساحة الجزائر المتروكة وهي	١٠٩٩
ومساحة ما عدم من الجسور والترع وهي	٨٣٩٠
ومساحة التلال والخراب وهي	٢٦٨٢
ومساحة الرمال من ارض الزراعة وهي	٦٨١٨
ومساحة ما تلف بسبب البرك وهي	٢٣٠٠٠
ومساحة ما غطته الرمال وهي	٤٩٠
كان المجموع	٢٢٠٠٦١

اي ان الذي كان يظن زرعه في عهد الفراعنة الفان ومائتان فرسخ مربع تقريباً منها في الوجه القبلي الف وخمسمائة فرسخ وفي الوجه البحري سبعمائة فرسخ والمتفع به من ذلك الان قريب من الفين وخمسمائة فرسخ مربع والمتروك مع امكان زرعه وانتفاع الاهالي به عند قدرتهم وثروتهم سبعمائة فرسخ مربع وهذا موافق لقول ابن اياس بعد التصليح الذي ذكرنا وذلك انا اذا ضربنا المانزرع في وقته وكان قدر ربع ما كان يزرع قديماً في اربعة يحصل سبعة الاف الف فدان ومائتا الف فدان وهو عبارة عن الفين ومائة وخمسة وخمسين فرسخاً مربعا والفرق بينه وبين ما قدرته الافرنج قليل جداً فبناء على ما ذكرنا يكون ما يزرع في الايام السابقة قريباً من سبعة الاف الف فدان وما كان يزرع مدة الافرنج اقل من النصف وكذا ما كان يزرع مدة الملك الناصر

فقال الشيخ اذا كان ما يزرع الان نحو خمسة الاف الف فدان فيكون قد زاد عما كان يزرع ايام الفرنج نحو الثلث وهذا مما يفيد التقدم بلا شك

فقال صاحبه الانكليزي حصول التقدم بمصر امر غير منكر وارض مصر قابلة لان يزرع بها ضعف ذلك واكثر واذا التفت الى قطر مصر امكن ان يزرع به كل ما كان يزرع سابقا وان يرجع ما كان له من الثروة القديمة والذي يغلب على ظني ان في هذا التقدير خطأ فان قدر الفدان المستعمل في جباية الاموال الان سبعة عشر قيراطا من الفدان الذي كانت الافرنج قدرته بمعنى انه ثلث وربع الفدان القديم واذا لاحظنا ذلك وجدنا ان الخمسة الاف الف هي الثلاثة الاف الف وخمسمائة وثلاثة وستون الف فدان ومائة وثلاثون فدانا فيكون الفرق عن مدة الافرنج ثلاثمائة واربعة وخمسين الف فدان فقط وهذه نتيجة اعظم من النتيجة الحاصلة من ابتداء الملك الناصر الى دخول الافرنج وهذه مدة تقرب من اربعمائة وثلاث وثمانين سنة حصل فيها نقص ثمانية الاف فدان وخمسمائة وثمانية عشر فدانا باعتبار المقرر في قوائم الصيارف ودفاتر الخراج

وعمار قطر مصر ليس الا بتقدم الزراعة فكما حصل زيادة الالتفات الى الزراعة واتسعت ارضها زاد تعداد اهالي القطر وكما حصل اهمال في الزراعة وضاعت ارضها نقص التعداد ففي الزمان

السابقة كان تعداد الاهالي كثيرًا جدًا لان الفراعنة كان لهم اعناء
 بامر الزراعة وقد بلغ عدد الاهالي في زمنهم الى مقدار عظيم وان لم
 تنفق المؤرخون على قدر معين فان هيردوط وهو اقدمهم قال انه
 كان بمصر في وقت امزيس نحو عشرين الف مدينة وقرية وفي
 زمن بطليموس وديودور الصقلي اقتصر على ثمانية عشر ألفًا وجعل
 عدد الاهالي سبعة الاف الف نفس في زمن الفراعنة وفي زمنه
 نقص الى ثلاثة الاف الف وكانت جيوش الفراعنة الف
 الف نفس وعدد العساكر التي ساقها سيزوستريس من مصر في
 محارباتها ستائة الف من المشاة واربعة وعشرون الفا من الخيالة
 خلاف سبعة وعشرين الف عربية حربية وبتوكريت فاق الجميع
 وجعل العدد ثلاثة وثلاثين الفا في زمن بطليموس فيلدولغوس
 وغيرهم قدر ان تعداد المدن ثلاثة عشر الفا فقط ومن قول يوسف
 الاسرائيلي يؤخذ انه لم يتعدّ تعداد الاهالي في قطر مصر عن سبعة
 الاف الف خلاف الاسكندرية التي جعل عدد اهاليها ثلاثمائة
 الف وقال انه كان في مدينة بيلوز عساكر للحفاظة على القطر من
 جهات الشرق يبلغ عددهم مائتين وخمسين ألفًا

ومؤرخو هذا الوقت لم يكتفوا في عدد المصريين بمبالغة من
 سبقهم من المؤرخين الذين ذكرناهم بل زادوا عليهم بما لا يتصوره
 العقل فمنهم من قال ان عدد الاهالي سبعة عشر الف الف ومنهم
 من قال سبعة وعشرون الف الف ومنهم من قال اربعون الف

الف ومبالغة الجميع ظاهرة لانه لا يتصور في بلدة نسبتها الى
فرنسا كنسبة جزء الى اثني عشر جزءاً ان يعيش بها هذا القدر
ونحن وان كنا لا ننكر كثرة اهالي مصر مدة الفراغة لكن
لا يمكننا ان نقول انهم يزيدون عن سبعة الاف الف فان سعة
ارض القطر حسب ما قدره الاقدمون الفان ومائتا فرسخ وهذا
موافق ايضاً لما هو الان ولتقدير الافرنج بعد رسمهم سطح الارض
جميعه ومن القدر هذا مدينة طيبة ومنفيس وباقي المدن وهو مع
وروده عن اقدم المؤرخين الذين ساحوا ارض مصر في زمن
يقرب من الزمن الذي زال فيه ملك اهلها واحيط فيه مقدارها
مناسب لسعة ارضها الزراعية التي بها حياتهم وما قاله بعض
المؤرخين يمكن ان نبرهن عليه ولا مانع من انه كان الموجود بها
ثمانية الاف مدينة وقرية وكفر كما قال بعضهم لا كما قال ديودور
من انه كان بها ثمانية عشر الف مدينة لان في الجزء الاخير من
البيطالسة كان عدد القرى والكفور والمدن ثلاثة الاف وكانت
ارض الزراعة اقل من نصف ما كان يزرع سابقا ولا مانع من
ان عدد البلاد كان قدر ذلك مرتين ايام كانت القوانين العدلية
القديمة هي المتسلطة وذلك قبل دخول الاغراب من العجم واليونان
وغيرهم هذا القطر وخراب ارضه وهدم بنائه

فقال الشيخ اني سمعت ان مدينة طيبة كانت اكبر مدن
الدنيا عماراً وانها كان لها مائة باب كل باب يسع مائتي فارس

فاذا كان كذلك فلا شك انها تشغل سعة من الارض عظيمة
وانها كانت مسكونة بخلق يزيدون عن ساكني القاهرة الآن بمرار
كثيرة

فقال الانكليزي ولوان ايدي الزمان وصروف الحداث.
غيرت معالمها ودرست رسومها واعفت مبانيها واخنت على مفاخرها
الا ان ما بقي الان من اثارها دال على ان شكل المدينة في الزمن
القديم كان عبارة عن اربعة اضلاع عظيمة الامتداد وان احدى
الزوايا تنتهي الى المحل المعروف الان بكفر جرجس والثانية الى
الشاطىء الامين للنيل والثالثة الى شاطئه الايسر وتسمى الان تل الايسر
عند تل قبور الملوك والزواية الرابعة الى المعبد او البرني الصغيره
الموجودة على الميدان الكبير فكان بناء على ذلك يمر الضلع البحري
بالقرية المعروفة بالتخاني وبجزيرة الورزية وينتهي قريب القرية
والضلع القبلي كان يمر في قربه مائة عمود قاطعا للجزيرة المجدبة
وخراب الكريك كان يوجد على بعد سبعائة متر من الضلع الجنوبي
ومساحة الارض المحدودة بهذه الحدود تقرب من سبعة الاف
فدان مصرية

وطول اعظم قطر في هذه الاربعة الاضلاع احد عشر الف
متر ومحيطه ستة وعشرون الف متر فاذا استنزل من ذلك مساحة
مجرى النهر وهي خمسمائة فدان تقريبا مع مساحة الميدان الكبير
وخراب السراي الملكية الموجودة في جنوب الاقصر على بعد ثلاثة

الاف متر كان الباقي ما كان مسكونا من هذه المدينة في الازمان
السابقة وقدره خمسة عشر الف اورور او خمسة الاف فدان مصرية
كبيرة

واذا قارنا تخت مصر القديم بتختها الان وهو القاهرة فلا يكون
اهل طيبة في الزمن السالف اقل من سبعمائة الف نفس لان
محيط القاهرة ثلاثة عشر الف متر وخمسمائة متر بدون اعتبار
الاعوجاج الداخل والخارج وباعتباره يبلغ محيطها اربعة وعشرين
الف متر ومساحتها الفا وخمسمائة وثمانين فدانا تقريبا وهو ربع
مساحة ارض باريز وعدد اهلها بالتفحصات التي صارت مدة الافرنج
يقرب من مائتين وستين الفا وذلك سنة الف وسبعمائة وثمان
وتسعين ميلادية فعلى ذلك يكون قد خص الفدان الواحد مائة
واربعة وستون شخصا بادخال ارض المساجد والخانات والميادين
وغيرها وقياسا على ذلك تكون اهل طيبة ثمانمائة وعشرين الف
نفس او سبعمائة الف بالاقل وما تقدم يعلم ان اهل القطر المصري
كانوا كثيرين ولذلك كانت اشجار الثروة والرفاهية باسقة
الاصول مورقة الافنان وكانت ارضها لما اشتملت عليه من البر
والاحسان هي المشار اليها باطراف البنان وكانت ارباب الحاجات
ما بين قاصد لها وآت وكانت وفود التجار ياتونها ليلا ونهارا
وثرات العلوم تجنى من مدارسها بواسطة ما بها من العلماء واستمر
ذلك اياما مديدة واعواما عديدة حتى دخلها الفرس وبددوا شملها

فحلت باهلها المصائب واحاط بهم الظلم من كل جانب فاخزل نظام
احوالهم القديمة وذلت علماؤهم واحقرت فرج سعدهم القهقري
وفارقت زراعتهم ارضها ومن كثرة الفتن النائرة بين المصريين
والفرس تلف اكثر الاثار الشهيرة وهدمت المباني الفاخرة ثم استولى
على الاقليم البطالسة فاخذوا في رد كل شي لاصله لكن لم يتم
ذلك فانه ان كان يحصل من بعضهم ما يوجب التقدم بحجى
الوارث فيفعل ما يوجب التأخر فبقيت حالة التأخير الى ان
استولت الروم وضمت مصر الى ملك القياصرة وجعلت طعمة لرومة
فنهبوا اموالها وغربوا احوالها ثم وقع الفشل بين الرومانيين وبعضهم
فزاد انحطاط قدر مصر وذهب ما بقي من فضلها وما زال اهلها
كذلك يتناقصون الى ان تولى عليها عمرو ابن العاص من قبل
الخليفة عمر بن الخطاب فكان تعداد اهلها حينئذ لا يزيد عن اربعة
الاف الف وستائة وثلاثين الف نفس بناء على ما ذكره المورخون
فقد نقل ابو الحسن عن ابن خنيس انه ضرب على اهل مصر
خمس مائة الف الف يدفعونها على ثلاثة اقساط متساوية اذا كان
النيل وافيا وبلغ حده المعلوم واذا نقص عن حده ينقص من
المضروب عليهم على حسبه ومن يرضى من الروم وغيرهم بالشروط
المعقودة مع اهل مصر يعامل بما يعاملون به ومن يأبى من الاهالي
دفعها استقطوه من العدد فلو امكن معرفة ما دفعته المصريون
وما ربط على كل نفر لم يصعب معرفة عدد الاهالي ويتوصل

لذلك ما ذكره مؤرخو العرب في هذا الخصوص
فمن قول ابن عبد الحكم يعلم ان في مدة الروم كانت الارض
منقسمة الى اربعة وعشرين قيراطا وكان المجمعول على الفدان من
الخراج اردب قمع وويتان من الشعير

وهذا غير فردة الرأس فانها كانت تدفع نقدا وان عمرو بن
العاص ابني الخراج على ما كان عليه في مدة الروم
وذكر القدوري انه جعل على كل غني في كل سنة ثمانية
واربعين درهما وعلى كل اجير اثني عشر درهما وانها كانت مضروبة
على اليهود والنصارى ما عدا عبدة الاوثان من العرب دون
المرتدين والنساء والاطفال وذوي العاهات والفقراء والمساكين
ومن يدخل في دين الاسلام وعلى هذا كانت الجزية اخذة في النقص
بزيادة من يتدين بدين الاسلام الى ان اعطيت التزاما في زمن
القاضي الفاضل اي سنة ٥٨٧ وكان مقدارها اذ ذاك واحداً
وثلاثين الف دينار ثم نقصت بعد ذلك كثيراً الى ان صارت
سنة ٨١٠ احد عشر الف دينار واربعائة

مع انها كانت في زمن عمرو بن العاص اثني عشر الف الف
دينار وفي زمن المتوقس عشرين الف الف
وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حصل
عبد الله بن سعيد عامله من مصر اربعة عشر الف الف
وفي زمن المقرئ تقصت نقصاً كلياً فكانت تدفع منفردة تارة

وتنضم الى المخرج اخرى وكانت في زمن عمرو بن العاص لا تؤخذ
الا ممن بلغ الحلم وكانت النساء والاطفال معافاة منها وكان قدرها
اربعين درهما من الفضة او عشرة دنانير خلاف اردب من البر

ويؤخذ من قول يزيد وابي الحسن ان الذي كان مضروباً على
كل رجل من القبط ديناران ولا بد ان هذا كان الحد الوسط
يعني ان البعض كان مضروباً عليه اربعة والبعض ثلاثة والبعض
اثنان والبعض اقل كما صار ذلك في توزيع ما ضربته الافرنج على
اهالي القاهرة سنة ١٧٩٨ ميلادية فقد ضربوا عليهم تسعين الف
حصة جعلوا منها تسعة الاف على الاغنياء قيمة الحصة اربعائة
واربعون ميدياً وثمانى عشر الف حصة على من يلهم في الثروة
قيمة الواحدة مائتان وعشرون ميدياً وثلاثة وستون الف حصة
على من يلهم كل حصة قيمتها مائة ميدي وعشرة والنسبة بين
هذه الحصص كالنسبة التي كانت في زمن القديري

والذي يدل على ان الدينارين الحد الوسط ما نقله المقرئ
عن حسين بن شالي في الكلام على القرن الاول من الهجرة من
ان اهل اسكندرية كانوا ستمائة الف خلاف النساء والاطفال
حين استيلاء عمرو بن العاص عليها وانه ضرب على كل رجل
من اهل القطر دينارين الا اهل الاسكندرية فانهم دفعوا الفردة
زيادة عن المخرج لانها اخذت عنوة فمن جميع ما تقدم يفهم ان
الخمسين الف الف التي ضربت على اهالي القطر هي دراهم

ولا بد لنا الان من معرفة قيمة الدينار لانه تغير بتغير الازمان
فانه كان مدة المحاكم بامر الله يساوي اربعة وثلاثين درهما وبعده
بزمان صار يساوي واحداً وثلاثين ثم ستة وثلاثين ثم ثمانية عشر
درهما وكان الدينار المصري يساوي خمسة عشر درهما ونصفا ثم
صار يساوي ثلاثة عشر درهما ونصفا وفي الصدر الاول كان
الغالب في المعاملة الدينار ثم صارت الغلبة للدرهم ثم الميدي فلو
فرض ان قيمة الدينار كانت خمسة عشر درهما لكان مبلغ الخمسين
الف درهم عبارة عن ثلاثة الاف الف دينار وثلاثمائة وثلاثة
وثلاثين الف دينار فاذا اخذنا نصف ذلك كان عدد الرجال
الذين كانوا يدفعون الجزية اي الف الف نفس وستائة وستة
وستون الف نفس وقد يمكن معرفة عدد الاطفال وغيرهم من
جدول وضعوه لامة مركبة من عشرة الاف الف نفس مثلاً ومن
هذا الجدول يعلم ان بعد احدى عشرة سنة ونصف لا يبقى الا
ثلاثة ارباع الاصل ونصف سدس قيراط
وبعد ست عشرة سنة يكون الباقي ستة عشر قيراطا وثلاث
سدس قيراط

وبعد عشرين سنة يكون الباقي اربعة عشر قيراطا ونصفا
وبعد خمس وعشرين سنة يكون الباقي اثني عشر قيراطا وثلاثا
وبعد ثلاثين سنة يكون الباقي عشرة قيراط ونصفا

١٠٠٠

وبعد سبع وثلاثين سنة يكون الباقي ثمانية قراريط ونصف
سدس القيراط

وبعد ثلاث واربعين سنة ونصف يكون الباقي ستة قراريط
وبعد خمس واربعين يكون الباقي خمسة قراريط وثلاثي
قيراط

وبعد ثمان واربعين سنة يكون الباقي اربعة قراريط الا
سدس سدس القيراط

وبعد ٥١ سنة يكون الباقي اربعة قراريط الا سدس سدس
القيراط

وبعد خمس وخمسين سنة ونصف يكون الباقي ثلاثة قراريط
وبعد ثمان وخمسين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وثلاثا
وبعد ستين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وربع سدس
قيراط

فاذا تقرر ذلك علمنا عدد من وصل من الاطفال الى سن
احدى عشرة سنة من امة عددها عشرة الاف الف بطرح الباقي
بعد الاحدى عشرة وهو ثلاثة ارباع تقريبا من الاصل الذي هو
عشرة الاف الف فيكون الباقي هو عدد من بلغوا في العمر احدى
عشرة سنة وكذلك لو اردنا معرفة من بلغ عمره عشرين سنة الى
خمس وعشرين نسقط المقدار المقابل للخمس والعشرين وهو الاثنى
عشر قيراطا وثلاث قيراط من المقابل الى العشرين وهو اربعة عشر

قيراطا ونصف قيراط فيكون التفاضل ويكون الباقي قيراطين
وسدس قيراط وهو تعداد من بلغ العمر المذكور ولا بد من
الملاحظة في قسمة العشرة الاف الف الى اربعة وعشرين قيراطا
ولاجل استعمال هذا الجدول في معرفة عدد اهل مصر زمن عمرو
بن العاص نقول حيث كانت الاطفال معافاة من الجزية فيخرج
العدد المقابل لسن الاحدى عشرة سنة وهو خمسة قيراط وثلاثا
قيراط ونصف سدس قيراط فيكون ذلك بالنسبة للعشرة الاف
الف الف الف وثلاثمائة واثنين وسبعين الفا وثمانمائة واثنين
واربعين والباقي وهو سبعة الاف الف وستمائة وسبعة وعشرون
الفا ومائة وواحد وخمسون هو عدد الرجال والنساء معا فعلى
تقدير ان عدد النساء مثل عدد الرجال يكون نصف الباقي وهو
ثلاثة الاف الف وثمانمائة وثلاثة عشر الفا وخمسمائة وتسعون
هو عدد الذكور ثم تنسب نسبة بان نقول نسبة عدد الرجال الى
العشرة الاف الف كنسبة العدد الذي وجدناه من حساب الجزية
وهو الف الف وستمائة وستون الفا الى العدد المطلوب ايجاده
وبالحساب تجد انه اربعة الاف الف وثلاثمائة وتسعة وستون الفا
فباضافة ثمن هذا القدر لزيادة النساء عن الرجال وباضافة جزء
قليل في مقابلة الفقراء والمساكين يعلم ان عدد الاهالي اربعة
الف الف وستمائة وثلاثون الفا تقريبا

فقال الشيخ يظهر من ذلك ان تعداد الاهالي منذ دخل

الاسلام مصر نقص نقصا كثيراً عن المدة القديمة خصوصاً في المدة
الاخيرة من ايام المتصرف بالله فان في وقته تصرفت ايدي العدوان
وزادت اسباب الطغيان وانتهب المحكام ايراد الحكومة واهملت
السياسة بتولي غير المستحق عليها لاحتفال والددة الخليفة وقتئذٍ
بطائفة العبيد فاشتعلت نيران الفتنة اشتعالاً اضرباها الى القطر وطمت
المجاوول والخلجان وعجزت الاهالي عن زراعة ارضها لانه كان اذا
علا النيل غرقت واذا لم يعلُ شرقت لعدم اجراء الطريق اللازم
للري وتصريف المياه فأدى ذلك الى صيرورة كثير من الارض
مناقع ماء وخرب كثير من الجهات البحرية واستمرت هذه الاحوال
بل زادت زيادة فاحشة في زمن الباشاوات الذين كانوا مندوسين
لسياسة الديار المصرية فان من اتى منهم كان لا يستغل في السنة
التي يقيمها الا يجمع المال لنفسه صارفا اوقاته في التمتع واللذات
جاعلاً زمام الحكومة بيد من يوافقه على اغراضه من البيكوات
وبهذا السبب كان الفشل مستديماً وعصا الخلاف بينهم مشقوقة
وكثيراً ما يكون السبب في ذلك الباشا نفسه الذي هو منوط
بإدارة الامور فنشاء من هذا مضار اضعاف ما صار من قبل
وامتدت ايدي الجحد والعرب للنهب والسلب في الجهات البحرية
والقبلية فلم ينج من شرهم الا من دخل في حى قبيلة من العرب
فحصل من هذا نقص كثير وبدأ بالقطر خلل كبير وما يؤيد ذلك
قول العلامة المقرئ انه في زمن المتصرف بالله كان ايراد مصر من

جوالي وخراج الف الف دينار في مبدأ امره وبعد مدة من حكمه وصل الى ثمانمائة الف دينار ثم نقص فوصل الى خمسمائة الف دينار الى ان عجز عن تأدية مرتبات الجند فاين هذا ما ضربه عمرو بن العاص وعبد الله بن سعيد وما كان في زمن الخليفة المأمون والخليفة المعتصم فانه بلغ في ايامها اربعة الاف الف ومائتين وسبعة وخمسين الف دينار اذا بلغ النيل حد الوفاء وهو سبعة عشر ذراعا وعشرة قراريط وكان خراجها ايام الحاكم الف الف دينار وثمانمائة الف دينار ولما تولى بدر الجهمالي وكانت ولايته سنة ٤٨٢ بلغ ثلاثة الاف الف ومائة الف دينار وفي زمن ابنه الافضل بلغت خمسة الاف الف دينار ولم ينقص عن هذا القدر زمن صلاح الدين وكانت مرتبات جنده ثلاثة الاف الف وستائة وسبعين الفا وخمسمائة دينار ومرتب المتقاعدين الف الف دينار وفي زمن الملك الناصر بلغ الخراج تسعة الاف الف دينار وخمسمائة واربعة وثمانين الف دينار ومائتين واربعة وستين ديناراً بالدينار الحبشي الذي قيمته ثلاثة عشر درهما منها ستة الاف الف ومائتان وثمانية وعشرون الفا واربعائة وخمسة واربعون ديناراً تحبى من الجهات البحرية وثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وخمسون الفا وثمانمائة من الجهات القبلية

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان تعداد اهالي مصر وقت دخول الافرنج ارضها كان الف الف وستائة وثمانية عشر الف

نفس وتسعمائة وخمسين نفساً وكان عدد اهالي كل مدينة هكذا

عدد

اهل رشيد	١٥٠٠٠
اهل دمياط	٢٠٠٠٠
اهل محلة الكبرى	١٧٠٠٠
اهل سكندرية	١٥٠٠٠
اهل اسيوط	١٢٠٠٠
اهل قنا	٠٥٠٠٠
اهل جرجا	٠٧٠٠٠
اهل بني سويف	٠٥٠٠٠
اهل قليوب	٠٤٠٠٠
اهل بليس	٠٣٠٠٠
اهل المنصورة	٠٧٠٠٠
اهل طنطا ومنوف	١٥٥٠٠
اهل المنيا وملوي	١١٠٠٠

فعلى هذا تكون اهالي المدن مائة وسبعة واربعين الفا وسبعائة وخمسين نفساً واما اهل القاهرة نفسها فكانوا مائتين وثلاثة وستين الفا وسبعمائة نفس وكان اهل القري والكفور والعزب والنزلات الف الف وسبعة وسبعين الف نفس وخمسمائة فيكون اهل القطر

جميعهم ألفي ألف نفس وستمائة وثمانية عشر ألف نفس وتسعمائة وخمسين وذلك أقل مما كان زمن دخول عمرو بن العاص بألف ألف واحد عشر ألفا وخمسين نفساً

وكان عدد قرى الوجه القبلي وكفورهِ وعزبه خمسمائة وخمسة عشر وعدد قرى الوجه البحري ألف وسبعمائة وتسعة وسبعين فمكون جميع البلاد بالوجه البحري والقبلي ألفين ومائتين وأربعة وسبعين على مقتضى ما وجد في دفاتر الخراج وأما على مقتضى ما وجد على الخرطة فهو ثلاثة آلاف وستمائة والفرق بينهما اثنا حصل من كونهم في بعض الجهات يعدون عدة كفور بلدة واحدة فيقيد في الدفاتر كذلك ويقرب من هذا العدد ما كان في زمن الملك الناصر لأنه كان ألفين ومائتين وتسعة وخمسين بلداً منها خمسمائة واثنى عشرة بلدة في الوجه القبلي في ثمان مديريات وهي بلاد

٠٥٠	بلاد مديرية شرق اطفنج
٠٩٧	بلاد مديرية الفيوم
١٥٦	بلاد مديرية البهنسا
١٠٣	بلاد مديرية الاشمونين
	بلاد مديرية منفلوط
٠٣٢	بلاد مديرية اسيوط

٢٦. بلاد مديرية اخميم

٤٨. بلاد مديرية قوص

والف وسبعمئة وسبع واربعون في الوجه البحري في ثلاث

عشر مديرية

بلاد

٢٠. ضواحي القاهرة

٥٩. بلاد مديرية قليوب

٢٨٠. بلاد مديرية الشرقية

٢١٧. بلاد مديرية الدقهلية

١٢. بلاد مديرية دمياط

٤٧١. بلاد مديرية الغربية

١٢٢. بلاد مديرية منوف

٤٦. بلاد مديرية ابيار و بني نصر

٢٢٢. بلاد مديرية البحيرة

٢٦. بلاد مديرية فوه

٠٠٦. بلاد مديرية نستروية

٠٠٨. بلاد مديرية سكندرية

٢٥٨. بلاد مديرية البحيرة

فمن ذلك يعلم ان اهالي القطر في القرن العاشر من الهجرة

كانوا قريباً من ألف وخمسمائة ألف وهو قريب من عدادهم
 مدة الافرنج وبناء على ذلك يمكن مقارنة الازمان القديمة
 بالازمان التي تلتها ومعرفة تقدم الامة المصرية كل زمن
 وتاخرها

والكلام على مصر كثير فلتقتصر منه الان على ما ذكرنا
 وكان قد دعا الانكليزي بعض احبته ينزه نفسه في جنيته



المسامرة الثامنة والثمانون الفلاحة والزراعة

فقال للشيخ قد دعانا احد المحبين لان نتروح في روضة له خارج المدينة بمسافة يسيرة واني مستصوب قضاء بقية هذا اليوم عنده في تلك الروضة ولنغتنم بهذه الطريقة رؤية جنينة فرانسا وسرايتها وننعم نظرنا بروية بعض ضواحي المدينة وطيب هواء هذا اليوم وصحو السماء ولطافة شمسه ونلحق هذا اليوم بامسه وصاحب المنزل من الذين اجتمعت عليهم بالامس وهو من اعضاء الجمعية المشرقية ورئيس مجلس الزراعة وولي من عهد قريب نظارة الجفلك المعد لتجربة اخبار النباتات الغريبة وطرق نجحها في ارض فرنسا وله ممارسة تامة في امر الفلاحة وتنوع طرقها في جهات مختلفة وله في فن الزراعة كتب مفيدة واختراعات جديدة واغوى باعث لي

على اجابته كون بيته في نفس الجفلك فنطلع هناك على تجرباته
وطرقه التي يستعملها مع استنشقنا الهواء النقي والنظر لوضاحي هذه
المدينة وقد ارسلت يعقوب ليجهز لنا ما يلزم من الاكل وامرته بان
يحضر العربدة بعد ذلك

فقال الشيخ هذا ما قام بفكري فكأنك عالم بسري فما تم
كلامهم الا ويعقوب قد حضر فقال للخوارج ان هناك مسافراً
يسئل عنك فقام الانكليزي متوجها اليه وغاب قريباً من ساعة ثم
رجع واخذ بيد الشيخ وتبعها ولده فقال له الشيخ من هذا فقال هذا
صاحبنا الذي اجتمعنا به في مرسيليا وقد حضر منذ يومين بالمدينة
والان جاء الى منزلنا ليسلم علينا فاخبرته بما عزمنا عليه فطلب ان
يكون معنا فقال الشيخ قد اصاب فانه من خير الاحباب وتم به
انسنا ثم ساروا حتى دخلوا منزلهم وكان المسافر قد سبقهم اليه فقام
لهم وسلموا عليه ثم حضر الاكل فاكلوا وشربوا وكانت العربات
حاضرة فركب الشيخ وصاحبه والمسافر واحدة ويعقوب وولد
الشيخ اخرى وساروا الى ان وصلوا سكة الحديد فنزلوا جميعاً في
عربة واحدة واخذ الحديث بينهم يدور فيما للدنيا من الاحوال
والامور الى ان وقف الوايبر بعد ربع ساعة فنزلوا بالقرب من
محطة وجدوا صاحبهم الذي دعاهم عندها ينتظرهم فسلم على الشيخ
ولده وعلى صاحبيه ثم امر بتقديم العربات فركبوها وبعد بعض
دقائق نزلوا قريباً من قصر مشيد عالي البناء يحيط بثلاث جهات

منه بسايتين فيها من جميع انواع الاشجار المتوجة باحاسن الازهار
 ووجدوا بباب القصر صاحبة المنزل وولدها ومعها بعض النساء
 انراها فلما اقبل زوجها بالشيخ ومن معه قابلتهم بالتحية واجرت ما
 يلزم كعادتهم وبعد ذلك اخذ بيدها حضرة الخواجا الانكليزي
 ودخلوا الى ديوان بهج المنظر فيه احسن انواع الفرش فمكثوا به
 برهة ثم قال الانكليزي لصاحب البيت انما جئنا هنا لنرى سراي
 فرساي وما بارض حضرتكم ليطلع حضرة الشيخ على محاسن مبتدعاتكم
 في فن الزراعة

فقال ذلك قصدي ولكني ارى الباقي من النهار قليلا والذي
 اراه ان تقيموا عندنا الليلة ليتم لنا الانس بكم وفي غد نذهب جميعا
 واطلعكم على ما اعلمه من امر هذه السراية منذ انشئت الى الان
 وما مر عليها من الاحوال

فقال الانكليزي الراي ما رأيت ولكن فيم نغضي بقية هذا
 اليوم فقال بالانس بمحضرة الاستاذ والاطلاع على ارض التجربة
 وانواع آلات الفلاحة القديمة والحديثة

فقال الخواجا نرجوكم السماح في المبيت هذه المرة فان عندي
 بعض اعدار ولا بد لي من العود

فقالت صاحبة المنزل انا ممنونون لك حيث احللت الاس
 بساحنا وشرفتنا بمحضرة الشيخ وحياتكم ان تفضلتم بالمبيت عندنا هذه
 الليلة تم انسنا وانسبطت بكم نفوسنا فشكر الشيخ فضلها ثم دعا لها

وقال الايام بيننا والعود احمد ثم انتقلوا على الحضور في يوم غير هذا وقاموا لينظروا محل التجارب فلما وصلوا اليه وجدوه مكاناً متسعاً يبلغ نحو ثمانين فدانا مقسوما الى اقسام معتدلة بطرقات كذلك حسب الانتظام طولاً وعرضاً كل قسم مربع محاط باشجار في بعضها انواع الخضراوات وفي الاخر انواع من نبات الاقوات كل نوع في حوض ويعرف نبات كل جهة من اوراق ملصوقة في قطع من الخشب قائمة في زوايا الحيطان مكتوب فيها قدر البذر وعمره وسعة الارض التي هو بها والبلد التي ورد منه ووقت بذرهِ ومدة مكثهِ وهكذا فكان هناك قمع مصر الاحمر والابيض وقمع بلاد العرب وقمع المسكوب وبلاد اخرى كل صنف في حوضه في غاية الانتظام والاحكام بحيث تراها متساوية خضرة نضرة اعوادها متساوية ما بينها من البعد قوية غليظة الساق طويلة الاوراق فيها شدة خضرة تدل على قوة ارضها وكان صاحب الارض يقف عند كل حوض ويبين لهم حسن نباته وصفاته وفوائده والبلاد المجلب منها وقدر غلته وقدر الزيادة عن البذر ويبين نسبة ذلك المحصول لغيره من جنسه في البلاد التي يزرع فيها والاسباب التي نجح بها وهكذا كل صنف الى ان وصلوا الى قصر صغير في باب البستان فجلسوا هناك قليلاً ليستريحوا ثم دخلوا البستان فأروا فيه اصناف الازهار وانواع الفواكه والاشجار وغير ذلك مما يبهر العقول وجميعها مجلوبة من بلاد متنوعة وكانوا كلما وصلوا شجرة غريبة بين

لهم ما يتعلق بها الى ان تمت نزهتهم ثم سار بهم الى المكان الذي به
 آلات الزراعة مثل المحاريث ذوات العجل وآلات البذر والمحصد
 والدرس فكانت انواعا منها القديم المتروك باختراع احسن منه
 ومنها المستعمل من مدة وعلمت تتيجنه ومنها ما هو جار تجربته
 وجميعها مخالف لما يعلمه الشيخ في مصر ثم عادوا الى القصر وجلسوا
 فيه ينظرون من شبابيكه الى البستان وما حوله فرأوا الغابات
 على احسن شكل وصورة الارض في غاية البهجة وانواع المزارع تسر
 المخاطر وتروق الناظر فعجب الشيخ كل العجب واستحسن نظام ما
 رأى واثني على الخواجا كل التناء ومدحه كل المدح على اهتمامه
 بهذا الشأن وصرف افكاره في تطبيق قواعد علم الفلاحة النظرية
 على العمل واجرائها بالفعل وقال له ان ثواب اعمال الانسان
 على قدر ما ينتج للخلق من الفائدة خصوصا فن الفلاحة فانه اكثر
 الفنون فائدة واعيا للناس نفعا فمن يحسن طريقه ويعم نفعه ويكثر
 فائدته يكون ثوابه اكثر فاي امة تبعته ضوء مصباحه وسلكت
 سبيل نجاحه عظم ثوابها واشتهر بين الناس فضلها واما الامم التي
 لا ارض لها تزرعها كعرب البادية وكذا التي لم تشتغل به لجهلها
 بامرهم فمثلها كمثل الحيوانات العجم سواء بسواء وهذا القرن اقدم
 الفنون جميعا وبه اشتغلت الامم قبل الطوفان وعنهم اخذ من
 بعدهم يؤيد ذلك ما في الكتب المقدسة ان نبي الله نوحا عليه
 السلام زرع بعد خروجه من السفينة ومنه تعلمت ذريته حتى

انتشر في كثير من بقاع الارض بعد تبلبل اللسان وتفرق اولاده
وكذلك كان معروفًا عند قدماء المصريين وغيرهم كاهل الهند
والصين وبابل وما يدل على فضله معرفة الانبياء له كنبى الله
اسحاق عليه السلام في ارض فلسطين ونبي الله ابراهيم وكيعقوب
واولاده عليهم السلام لانه ارسلهم الى مصر لشراء غلال في زمن
اجدبت فيه ارضهم فحسبك فضلا بفن اشتغلت به الانبياء ولعمري
ان فضله لا يعادل ونفعه لا يماثل وهو اصل التقدم وكل الصنائع
فرع له

فقال له صاحب البستان هذا من حسن اخلاقكم ولطف
طباعكم ثم قال له الشيخ وهل يحتاج في معرفة فن الفلاحة الى كثير
من الاعمال ويلزمه كثير من الممارسة

فقال ليس فن من الفنون يحتاج الى ما يحتاج اليه والمتفكر
فيه الممارس له لا يعرف كيف وصل الاقدمون الى معرفته وطرقه
المتشعبة المتنوعة سيما نبات الاقوات واستنباته والذي يزيد المرء حيرة
اهتدائهم الى حبة القمح من بين سائر انواع الحبوب التي تزرع
وكان بعض الناس يزعم ان جميع الحبوب الغذائية كانت تشتمل
على خواص وصفات وتكرار زرعها هو الذي صيرها اقوانا وهذا
القول لا عبرة به فان ثقليب الصنف بالزراع وان غير بعض
صفاته لا يغير حقيقته بالكلية فالصحيح ان جميع الحبوب على اختلاف
اجناسها من ابتداء الامر بالهيئة التي نراها عليها الان وقد شوهد في

جهات كثيرة جميع انواع الحبوب يخرج من الارض بطبعه من غير استنبات وعدم مشاهدتها في بعض الجهات ربما كان من عدم الدقة في البحث او غير ذلك وعلى كل حال ففن الزراعة انما وصل الى اليونان من المصريين ثم منهم الى الرومانيين ومن ذلك يعلم ان فن الفلاحة لم يدخل اوروبا الا بعد وجوده بافريقيا واسيا بزمان طويل ولذلك كانت سكان اوروبا في تلك الحقب تسكن الآجام والفلوات وتسبح كالحوانات في الغابات للحصول على الاقوات فبالضرورة كانت متوحشة خشنة مع ان كثيراً من جهات افريقيا واسيا في تلك الحقب كان محفوظاً بالنعم مشهوراً بالتقدم

واما ما يوجد في عصرنا هذا من المعرفة بالزراعة فحزناً من فنها والذي يدل على ذلك انه لما تفرق الناس وتبلبلت الالسن بعد الطوفان وانتشروا في بقاع الارض فمنهم من وجد نفسه بارض سهلة الزرع كثيرة الخصوبة فاستعملوا فيها ما تعلموه من اصولهم ومنهم من وجد نفسه بارض ليست كذلك فلم يجدوا سبيلاً الى استعمال ما يعلمونه من فن الفلاحة فمن صادف الارض السهلة زرع وتعيش ومن لم يصادفها هرع الى الاجام وتوحش وربما صادف بعضهم جهات فيها جميع انواع الحيوانات فاخترع طرقاً لتكثيرها ليعتد بها وعلى مقتضى كثرة ما يلزم لفن الفلاحة يوخذ ان من استعمالها بقي مدة يستعملها بحالة بسيطة فلم يكن عندهم محارث ولا كانوا

يستعملون الحيوان في الحرث بل غاية الامر انهم كانوا يستعملون قوى انفسهم كما شوهد ذلك في كثير من بقاع الارض فانه لما استكشفت امريكا كان اهلها يستعملون قواهم فكانوا يمسكون بايديهم الة ينكثون بها الارض ويقطون بها البذر تسمى في بلاد مصر بالمعزقة وللان جهات كثيرة لا تعرف غير الطرق القديمة فسكان جزيرة فرانس الجديدة يحرقون ارضهم بألة جميعها من الخشب وجهات اخرى ليس عندهم غير المعزقة وجهات لا يستعملون في شق الارض غير نوع الفوس وفي جهات من افريقيا على شواطئ نهر جابني قوم اذا ارادوا حرث الارض اجتمعوا اربعة اربعة او خمسة خمسة وشقوها بسيوفهم وكان سكان الكانادا في الزمن السابق يشقون الارض بقرون الحيوانات وفي المدة التي كانت اكثر الامم غارقة في بمار الجهل كانت مصر منعمة بالبال ممتعة بالخيرات فان الفلاحة كانت عندهم على ما نراه الان لم تتغير فكان عندهم المحراث واللواطة وباقي الالات ومما يؤيد ذلك احترامهم للثور المسمى ابيس وما ذاك الا لما راوا فيه من المزية

فقال الشيخ وهل يعرف اول من اخترع آلات الفلاحة فقال نعم ورد عن المؤرخين ان اول مخترع للمحراث احد فراعنة مصر المسمى اوزريس وهو الذي علم سكان ما وراء النهر استعمال الثور في الفلاحة ولا ينكر استعمال الحراثة بمصر زمن

يوسف عليه السلام ولا استعمال الثور بارض العرب زمن ايوب
عليه السلام

وكان المحراث في الاصل مركبا من قطعتي خشب احدهما
قصيرة منبجحة على الارض تسمى البسجة وفي طرفها حديدة عريضة
تسمى السلاح وهي التي تشق الارض والثانية طويلة ممتدة الى امام
تسمى القوس وعند زاويتيها الحادة حديدة عريضة لتثبيتها ببعضها
تسمى البلجة وعند موخر الخشبتيين ثلاثة طولها نحو ستة اشبار تسمى
الرمح وهي التي تكون بيد المحراث يزن بها المحراث حيث شاء وبقي
له اجزاء اخرى غير ما ذكر كنت اسمع بها من اربابها وهذا هو
الذي كان يحراث به اليونان والرومانيون واما بعض
جهات امريكا فكانت آلات حراثهم عبارة عن قطعة خشب
معوجة ثم عملوها فيها بعد من قطعتين ويؤخذ من قول ديودور
ان اليونان كانت تحراث على الحمير وان موسى عليه السلام نهى
عن ذلك

فقال الشيخ في بعض جهات الوجه البحري كالشرقية يستعملون
الى الان آلة تسمى المعزقة فيجمع اربعة رجال او اكثر ويبد كل
واحد منهم معزقة وينكثون الارض بعد بذرها فيتغطى البذر
والتلويط الى الان مستعمل في الوجه القبلي وهو عبارة عن امرار
قطعة خشب من نخل او غيره على وجه الارض اذا كانت كثيرة
الوحد بعد بذرها ولست اعرف طريقا ابسط من ذلك واظن ان

جميع الاراضي التي تزرع بهذه الكيفية هي اول الارض عماراً
واستنباتاً لان هذه الكيفية اول ما يخطر بالبال وليس فيها كلفة
فقال الخواجا جميع الطرق المستعملة بمصر الى الان قديمة
جداً ومرسومة في البرابي وهي عشر طرق ذكر منها قدماء المؤرخين
طريقة وهي ان بعض الجهات بعد القاء الحب في الارض يأتون
بالخنازير ويدورون بها حتى يتوارى الحب ولم تكن عقولهم قبل
الطوفان قاصرة على معرفة الحرق والقاء البذر بل كانوا يعرفون
ايضاً كل ما يزيد لها في صلاح الارض كشبدها بالرماد واثاث
الحبوانات وكتعيمها بالمياه الكدرة كما هو جارٍ بمصر الى الان وذكر
المؤرخون ما لقدماء المصريين من الاعمال الجسيمة مثل بحيرة
مورس التي بارض الفيوم والجسور العظيمة التي اشاها فراعنة
مصر لحفظ الارض من الغرق وقت فيضان النيل وكالمجداول
التي بواسطتها تتفرق المياه على جميع الارض وهذا اقوى دليل على
ان الفلاحة وتثريد الارض كان امراً معلوماً عندهم ويلزم من ذلك
معرفتهم كيفية المحصاد وان كان لا يدري الزمن الذي اخترع فيه
الاكتان المعوجنان المعروفتان عند المصريين بالمنجل والشرشرة
ولعلمهم كانوا قبل اختراعها يقلعون النبات بايديهم لوجود ذلك الى
الان في جهات كثيرة واما الدرس الذي يستعمل الان لفصل
الحب من عوده فلا بد انه تاخر زمناً طويلاً لان معرفته تحتاج الى
زيادة تقدم لما فيه من الصعوبة والذي كان مسنعها عند المصريين

وغيرهم في هذا الامر هو جعل الزرع بعد حصاده حزمًا ينقلونها
لارض متسعة منتظمة اعدت لذلك ويديرون البهايم فوقها حتى
ينفصل الحب عن غيره وبعض الناس كان ياخذ قطعاً من الخشب
ويسمر فيها احجاراً ويدورونها فوق تلك الحزم فينفصل الحب من
غيره واهل فلسطين كانوا يستعملون عجلات ثقيلة فيدورونها
بالبهايم وهذه الكيفيات باقية الى الان في جهات كثيرة من ارض
فرانسا وغيرها واما الصينيون فكانوا يستعملون مهرسة من رخام
وكيفية التذرية لتمييز الحب عن التبن بواسطة الهواء باقية عند
اغلب جهات الشرق وارض مصر واغلب البلاد الحارة وآلة
التذرية المسماة بالمذرى قديمة جداً لا يعلم وقت اختراعها ولا شك
ان اختراعها من يوم اختراع الفلاحة فهو واصل اليها من تقدم
على الطوفان وبالجملة فجميع انواع الفلاحة وكذلك آلاتها واتقانها
انما حصل تدريجاً على حسب دقة الصنعة وكثرة لوازمها ومن
ذلك جعل الحب خبزاً والاققيات به فانه يتوقف على اعمال
كثيرة كالغربلة والطحن والنخل والعجن ثم تقطيع العجين وتسويته
الى ان يصلح للاكل فان لكل عمل من هذه الاعمال آلات وكل
آلة متوقفة على غيرها وغيرها متوقفة على غيره وهكذا فلا بد انه
مضى على النوع البشري زمن وهو جاهل بجميعها ثم اضطرته
الضرورة الى اختراعها شيئاً فشيئاً الى ان عرفها جميعها الا اننا لا
ندري كيف اهتدى الاقدمون لمعرفة ما في القمح من المادة الغذائية

وان كان ذلك لا يمنع من عزو هذه الفنون الى من كان قبل
الطوفان فانهم حين رست بهم السفينة وانتشروا على وجه الارض
منهم من وقع في ارض قحلة لا تنبت شيئاً فاكثف بما يجده في
وهادها من الكلاء وما يقدر على صيده من نجودها وما يقذفه البحر
من السمك ونحوه ومنهم من صادف ارضاً صالحة فزرعها وتقوت
بما يخرج من نباتها من غير طحن ولا خبز فان ذلك مما اهتموا
اليه على ما حكاه بعض الفلاسفة مما راوه من فعل الاسنان
بالحب حتى يصير كالدقيق ثم تلويك اللسان له حتى يمتزج بالريق
ثم ازدراده وبلعه فلما رأوا ذلك اتوا بمجربين كالرحى ووضعوا الحب
بينهما واداروا احدهما عليه ثم اخذوه ومزجوه بالماء ثم وضعوه في
النار ليحف ويصلح للغذاء الى ان اهتموا الى ما يلزم له من الآلات
كالمنخل والغربال والتنور كما ذكرنا

فقال الشيخ ومما يؤيد ذلك ما يفعله عرب البادية خصوصاً
في اسفارهم فانهم لا يتزودون بغير الدقيق فاذا ارادوا الاكل عمدوا
الى جانب منه فلتوه بالماء ثم اضرموا ناراً وصبروا عليها حتى يهدأ
لهبها فاذا هدأ وضعوا عليها العجين حتى يحف بعض جناف
فياخذونه ويسونه ثانياً بما تيسر لهم من اللبن او العسل هذا دأبهم
في اسفارهم ومنهم من يثلي الحب ويستغه ومن المصريين من يلدده
بالنار قبل صلاحه ويدخره للطبخ ويسى عندهم بالفربك

فقال الانكليزي وكذلك قبائل كثيرة من السودان لا يعرفون غير ذلك وكانت هذه الطريقة كثيرة الاستعمال في بلاد الهند بناء على قول هيرودوط ولكن هذه الطرق اخذت في الاندثار لتقدم الناس كل زمن فعلموا ان الغرض من الزراعة السنوية والانتفاع بها مدة السنة وان هذه الطريقة لا يتتفع بالبر بواسطتها الاّ مدة قليلة كسهر مثلاً فلا بد انهم بحثوا عن الطرق التي تعم النفع ولكن يلزم انهم لم يصلوا اليها الاّ على التدرج وحيث كان في اكل الحب بغلافه عسر والنفس تأنف منه فلا بد ان اول شي اشتغلوا به انفصال القشر عن لبه وان اول شي استعملوه لذلك التخميص لان جميع القبائل المتوحشين من افريقيا وامريكا تستعمله الان واجمع المؤرخون على ان اول صنف اقتات به الاقدمون الشعير وحيث كان قشره لا ينفصل عنه الاّ بالطحن وكانوا وقتئذٍ لم يعرفوه استعملوا التخميص لذلك والسياحون الى الان في بلاد الحبش لا يتزودون بغير الشعير المحمص وكانت الناس قبل اهتدائهم الى اختراع الرحي والطواحين تهرسه في اهوان فكان التخميص يسهل عليهم ذلك واما كيفية نقعه في الماء وتصفيته فقديمية وقد كان اليونانيون والرومانيون يستعملون ذلك ويتغذون به كما يفعل اهل الشرق بالارز واللان كثير من الناس تستعمل ذلك مثل قبائل الكموكيين فانهم لا يتقوتون بغير الشعير فيضعونه في الماء اولا الى ان يلين ثم يعصرونه ليميز

عنه قشره ثم يضعونه في قدور ويوقدون النار تحته الى ان يقل
 ثم يتناولونه بايديهم وليس لهم قوت بغير هذه الكيفية
 ومن اليونان والرومانيين من كان يهرس الحب في اھوان من
 خشب او من حجر لاجراج الدقيق وفصل اللب من قشره وقد
 بقيت هذه الطريقة الى الان عند خلق كثيرين وقال هيرودوط
 ان سكان جزائر الانكليز كانوا لا يستعملون غير هذه الطريقة
 فكانوا يفركون السنابل بايديهم لينفصل الحب ثم يهرسونه في اھوان
 ثم يعجنونه وياكلونه نيئاً واما اهل بيرو من امريكا فكانوا يحفونوه
 اولاً على النار ثم يدقونه ويتناولونه بقطعة خشب كالمعلقة لا يفصلونه
 من قشره وعلى ذلك كثير من المتوحشين الى الان واما عند تمدن
 المخلق فكانوا قبل اختراع صنعة المنخل المعروف يعمدون الى بعض
 اغصان دقيقة فينسجونها ويخلون بها ومنهم من كان ينخل بمخرق
 من القماش المنخل النسيج وما يشبهه قال بولين ان منخل اليونان
 والرومانيين كان من السمار ومنخل اهل الاندلس من الغزل ومنخل
 الجول من شعر الخيل وكانوا جميعاً يعجنونه ثم يلعقونه نيئاً كما
 يفعل بعض سكان جزائر الانكليز ولم يهتدوا الى كيفية انصاجه
 بالنار الا بعد زمن طويل ومنهم من كان في ذلك الوقت يمزج
 الدقيق بالماء كالعصيدة ويضعه على النار حتى يغلي ثم ياكله
 ومنهم من كان يضع فيه لحماً ثم يسويه وذلك كان قوت قدماء
 الفرس والرومانيين واليونان واهل العراق كما قاله بولين ومنهم

من كان يقطع اللحم قطعاً ثم يلقيه في الدقيق ويسويه على النار فيعلم من ذلك قلة انتفاعهم وقتئذٍ بالبر لان تمام فائدته لا تكون الا بعد عجنه وخبزه وذلك يحتاج الى فكرة كبيرة واعمال كثيرة لم يهتدوا اليها الا بعد زمن طويل وان كانت تلك الصنعة بالنسبة الى زمننا قديمة لما ورد في التوراة من ان ابراهيم عليه السلام قدم لضيفه خبزاً مرققاً

فقال الشيخ هكذا خبز اهل البادية الى الان ولهم في تسويته آلة من فخار يسمونها النيغة يخبزون فيها اذا حلوا ويجهلونها اذا ارتحلوا فاذا ارادوا الاكل عجنوا الدقيق ثم قطعوه قطعاً صغيرة ورقفوه بايديهم على الواح من خشب ثم اوقدوا النار تحت النيغة حتى نحمر من داخلها فاذا انقطع الدخان اخذوا ما رقفوه شيئاً فشيئاً ووضعوه على النيغة حتى ينضج

فقال الانكليزي هذه الكيفية لا باس بها وربما دلت على تقدم او تمدن اربابها واما القدماء فمنهم من كان يضع العجين على احجار محمأة ثم يغطيه بالرماد الحار ولعل ما قدمه ابراهيم الخليل لاضيفه من هذا القبيل وعلى ذلك بعض اهالي اسيا الى الان الا انهم يلفون العجين ببعض حشيش وقاية من الرماد وربما وضعوا فوقه جرات كبيرة ومنهم من يضعه بين حجرين ثم يدفنها في الرماد الحار ومن النار من يعجنه كالعصيدة ويضعه في اناء ويوقد تحته ناراً حتى يفور ثم يتناوله الى غير ذلك مما لا حصر له وذلك

كله لا ينافي قدم التنور المسمى بالفرن وتقدمه على زمن ابرهيم عليه السلام وذكر بعض المؤرخين ان اول من اخترعه رجل مصري يقال له عنوس واما ما حكاه حضرة الشيخ عن العرب فليس خاصا بهم بل ذلك طريقة قبائل كثيرة من التركمان وغيرهم الا انا لا ندري متى كان اختراع التخميرة واستعمالها والظاهر انها من الامور الاتفاقية كأن يكون عند بعض الناس قطعة عجينة حامضة فاضافها الى عجينة جديدة ثم سواه فوجده ألد من الاول طعماً واسرع هضماً فاعناده واخذه عنه من بعده وإن كان كثير من اهل اسيا وافريقيا وامريكا لا يستعملونها الى الان وقيل انها كانت موجودة على عهد موسى عليه السلام وروي انه نهى قومه عن أكلها حين خروجهم من مصر واول آلة استعمالها الانسان في طحن الحب الحجارة ثم الرحي ثم الطاحون وبين اختراع كل آلة والتي تليها زمن طويل ونحن وان كنا لا نجزم بوجود الرحي زمن ابرهيم التحليل عليه السلام لكن نجزم بوجودها من ايوب عليه السلام وباستعمالها هي والطواحين عند المصريين كما يظهر ذلك من التوراة فانه ذكر فيها منع بني اسرائيل من ان تاخذ حجر الرحي الا برهن وكان الذي يديرها الخدم والعبيد وكانت مستعملة عند اليونانيين والرومانيين وجميع الامم الماضية

قال ناقل الحديث وكانت العربات قد اعدت للجماعة على الباب فركبوها وسارت بهم نحو فرساي وهم يتحدثون بامر الزراعة

والفلاحة وما ينشأ عنها من تقدم البلاد وأهلها الى ان جزم الشيخ بان مدار العارة على الزراعة فوافقه الجميع على ذلك وقال الانكليزي ان هذا هو القول الحق فانه لا تحل الثروة بجهة الا اذا تقدمت فيها الزراعة ففي ارض فرنسا مثلاً تقدمت الزراعة تقدماً جيداً حين بحثت الحكومة عن هذا الخصوص وذلك التقدم من ابتداء سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٤٦ فكان محصول زراعة القطن سنة ١٧٩٠ مليارين ونصفاً وفي سنة ١٨٤٦ وصلت قيمته ضعف ذلك وفي العشرين سنة التالية لسنة الف وسبعمائة وتسعين كان الربح غير محسوس لكن من ابتداء سنة ١٨١٥ شعر ان الربح ثلاثون مليوناً في السنة الواحدة ومن خمسة عشر الى ست واربعين صار يزداد حتى بلغت الدرجة المتوسطة ستين مليوناً كل عام

وبسبب هذا الفرق زادت اهالي القطن فان عددهم من سنة ١٧٩١ الى سنة ١٨١٥ كان يزيد في كل سنة عن التي قبلها مائة وعشرين الف نفس ومن سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٦ مائتي الف نفس واما من سنة ست واربعين الى خمس وخمسين حصل تاخير فلم تبلغ زيادة كل سنة غير ستين الف نفس

واما بالنسبة للمحصولات فقد وجد ان صنف الغلال ضوعف من سنة ١٨١٥ الى خمس واربعين فكان في سنة ١٨١٥ اربعين مليون اكتوبر وفي سنة ٤٥ ثمانين مليوناً ومحصول البطاطس ضوعف ايضاً حتى وصل الى خمس عشرة مرة زيادة عما كان في

سنة خمس عشرة وكذلك نوع الحيوان فقد بلغ عدد الحيوان الكبير تسعة ملايين الى عشرة وعدد الخيل من مليونين الى ثلاثة وعدد الضان ما بين اربعة وعشرين مليوناً وست وثلاثين مرة من الملايين

وفي سنة ١٨١٢ كانت قيمة الاراضي المملوكة ومنها العقارات الفا وخمسمائة مليون وفي سنة خمس عشرة بلغت الفين وثمانمائة وثلاثة واربعين مليوناً ومع هذا فقد زادت قيمة الارض في قريب من ثلاثين عاماً قدر خمسين في المائة هذا وان كان حسن الارض وارتفاع قيمتها لا بد له من نقبات الا اننا يمكننا تقديرها ولو على وجه التقريب فنقول على فرض ان فائض المائة عشرة في كل سنة تكون الستون مليوناً التي هي فائض ستمائة مليون مصروفة على الارض فلو وزعت على الارض المنزرعة بالقطر لوجد انه صرف على كل اكتوبر من المساحة اثني عشر فرنكاً عشرة منها في اصلاح الارض واثنان في اصلاح حال الزراعة

وبعد ان كانت قيمة الاكتوبر سنة ١٧٩٠ لا تزيد عن خمسمائة فرنك صارت الان تساوي الف فرنك فتمتد قيمة ارض الزراعة بالقطر خمسون ملياراً وكانت قيمة موجود الزراعة لا تزيد عن الف مليون فصارت الان خمسة امثال ذلك نصفها قيمة حيوانات ولاات زراعة والنصف الاخر قيمة بذروما يتبعه من سباخ وغيره ومن هنا يعلم ان ربح الزراعة من ابتداء سنة ١٧٩٠ وصل الى اربعة

امثال ما يصرف عليها واجرة العمال وان زادت الا انها لم تبلغ ما يخصها وحيثئذ يلزم من يسوس الام ان يجعلوا عدد الاهالي قاعدة لجميع ما يدبرونه وان يجتهدوا في ما به زيادة عددهم ليتحصلوا على زيادة البركة والطريق في ذلك سهل لانا نعلم ان الله سبحانه لما خلق الخلق اودع فيهم اسراراً ينمون بها ويملئون الارض وجعل تلك الاسرار متعلقة بالاقوات كما هو مشاهد فانك لو قطعت عن اي شي مادته التي يتغذى بها لاخذ في الجفاف ثم مات فيلزم الاعثناء بالامر الذي منه القوت وهو الفلاحة لاجل نمو الاهالي ولذلك ترى بعض الناس اذا راوا امة قد اضمحل حالها ونقص عددها قالوا ان ذلك ناشئ من كثرة الرهبانية فيهم ومحاربة الجيوش البرية والبحرية لهم فتراهم في تلك الاوقات يكثرون من البحث على الزواج وربما ساعدوا من عجز عن مؤنه وعاقبوا من اصر على العزوبة ومع ذلك لا يحصلون من مقصدهم على كبير فائدة لان ما ظنوه سبباً ليس بسبب فيكون مثلهم كمثل من يعالج بدواء من غير وقوف على اصل الداء فانهم لو امعنوا النظر وقارنوا امور الامة المحاضرة بالماضية لظهر لهم ان اسباب الفساد ليس الا اهل فن الفلاحة وميل الكثير الى الزهو والتعلق به وكثرة ما يستهلك ويصرف على القليل من الناس واثبات ذلك بان نقول لو سلمنا ان ازدياد اي نوع بخصوصه ليس الا لوجدنا فوق الارض ذئبا اكثر من الغنم لان الانثى من الذئاب تلد عدداً كثيراً في

بطن واحد ويكرر ذلك منها في السنة الواحدة والغنم ليست كذلك سيما والعادة جارية بخصاء كثير من ذكورها وذبحها وليس ذلك جارياً في الذئاب فلو كانت خصوبة النوع في ذاتها سبباً في كثرته لكان عدد الذئاب لا حد له وربما ملا الأرض مع ان الامر ليس كذلك فانا نرى الغنم تزداد مع استمرار الاخذ منها وما ذلك الا لكثرة مرعاها وقلته للذئاب

ومن ذلك بعض متوحشي امريكة وافريقة فان حالتهم كحالة الذئاب لان تعيشهم ليس الا من الصيد والقنص فتري العدد القليل منهم شاغلا لسعة عظيمة من الارض بحيث لو زرعت وخدمت حق الخدمة لكفت اضعافهم ومع هذا لا تقطع الخصومات بينهم وليس عندهم رهبانية ولا عفة وما ذلك الا لقلّة القوت عندهم وقد ثبت في كتب التاريخ ان الفدان الواحد عند الرومانيين يكفي العائلة الكبيرة مع ان المتوحشين لا يكفي لقوته اقل من خمسين فداناً حيث كان جل همهم الصيد والقنص فمن هذا تكون الالف فدان مزروعة كافية لالف شخص وغير مزروعة لا تكفي خمسين من المتوحشين فظهر بذلك ان كثرة الاهالي تابع لاتساع دائرة الزراعة فكما حصل الاجتهاد في خدمة الارض واصلاحها ازداد المحصول وكثر الجنس وكما اهملت وتركزت قلت الاقوات ونقص العدد وان كل ما يستهلك في امر الزهو مضاد لمنفعة الامة

فيلزم مدير امر الامة ان يصرف جميع هتمه في توجيه افكارها نحو
البساطة والقناعة

وفي سنة ١٨٤٠ بلغت قيمة محصول الزراعة في ارض دولتنا
خمسة الاف مليون فرنك منها الف وستائة مليون قيمة محصول
اللحم والصوف واللبن والفراخ والباقي وهو ثلاثة الاف واربعائة
مليون قيمة محصول الحبوب والمحشائش وغيرها وكانت موزعة
بالنسبة لعمارة الارض المضروب عليها الخراج فنخص كل اكنار
في الجملة مائة فرنك وايضاً بالنسبة لتفاوت الاهالي قلة وكثرة في
المجھات فكان ربع الارض يتحصل منه مائة وخمسون فرنكا ونصفها
مائة فرنك وربعها خمسون فرنكا فقط وسبب هذا الفرق ان
الربع الاول كان في كل مائة اكنار منه مائة نفس واما النصف
فكان لا يوجد في المائة اكنار الا خمسة وستون نفساً وكذلك
الربع الاخير كان لا يوجد في الاكنار منه الا اربعون نفساً وجمھات
العمار في الغالب تكون بالقرب من التخت والمدن وشواطئ البحر
والمجھات القليلة العمار الجنوب والوسط ونهاية العمار جمھات الشمال
ويوجد في المائة اكنار منه مائتا نفس ونهاية القلة في العمار جهة
جبال الالب فلا يوجد في المائة اكنار هناك اكثر من عشرين
نفساً ولو جعلنا الدول مرتبة على حسب تعداد الاهالي نجد ان
بلاد الفلمنك يخصص كل مائة اكنار منها مائة وخمسة وعشرين شخصاً
وبلاد الانكليز تسعين والمانيا واطاليا ثمانين وفرنسا ثمانية وستين

واسبانيا وبرتغال اربعين والدولة العلية خمسة عشر وكذا
المسكوف

ثم قال الانكليزي ان بلادنا وان كانت بعد الفلمنك في
الدرجة المذكورة الا انها مشهود لها بزيادة الاعناء بامر الزراعة
والفلاحة ولذلك كان محصول ارضا اكثر من محصول ارض
فرانسا وليس ذلك من جودة ارضا وانما هو من جودة الطرق التي
نستعملها والتفات الحكومة لما يحصل منه زيادة المنفعة والربح للاهالي
وان حصل في هذه الايام تقدم كبير للزراعة في فرانسا عن السابق
لكن بين المحصول عندنا وعندهم بونا بعيدا وها انا اوضح لحضرتكم
طريقة كل من الدولتين واقارن بين الطريقتين ليظهر الفرق
وقبل كل شي اقول من المعلوم ان اهم الامور القوت فان به قوام
البنية الادمية وهو انواع فمنها ما هو جيد للغذاء مفيد لقوة الانسان
ومصلح لبنيته ومنها ما هو غير ذلك وحيث كانت الانواع المتخذة
من دقيق الحبوب ليست كافية لقوام البنية وصحتها فيلزم ضم اللحم
اليها لانها احسن شي في هذا المعنى وحيث يلزم ان كل بلدة يكون
بها زيادة عن الحبوب قدر ما يلزم للغذاء من اللحم وهو عبارة عن
مائة درهم لكل شخص كما استدل على ذلك الباحثون من ارباب
الدراية فاذا تقرر ذلك نقول قد نتج من الاحصاءات الرسمية التي
اجريت في بلادنا ان كل انسان من الانكليز يخصه كل يوم خمسة
وسبعون درهما ما يذبح واما الشخص الواحد من فرانسا فلا يخصه

غير تسعة عشر درهما فتكون النسبة بين تقدم الفلاحة عند الانكليز
والفرنسيس كالنسبة بين خمسة وسبعين وتسعة عشر

وهذا يدل على ان اعتناء الانكليز باقتناء الحيوانات ازيد من
اعتناء الفرنسيين وان علمهم بالقاعدة الاساسية لتقدم الزراعة اكثر
لانه اذا ازداد الحيوان امكن الحصول على احسن الغذاء واخصبت
الارض بواسطة السماد الموجب لازدياد المحصول والمرعى ومن
زيادتهما تزداد الثروة فاذا نظرنا لصنف الاغنام مثلا عند الالمين
وجدنا عند كل واحدة منهما خمسة وثلاثين مليونا مع ان ارض
بلاد الانكليز ليست مساحتها الا ٢١ مليونا من الاكتار بخلاف
ارض فرنسا فانها ثلاثة وخمسون مليونا فيخص كل اكتار من
ارض الانكليز رأسان ومن ارض فرنسا رأس واحد والمتحصل من
الصوف عند الانكليز ستون مليون كيلو جرام وعند الفرنسيين
كذلك ومن صنف اللحم كل عام عند الانكليز ثلاثمائة وستون
مليون كيلو جرام وعند الفرنسيين مائة واربعة واربعون مليونا
وبهذا يعلم ان نسبة اللحم المتحصل عند الانكليز الى اللحم المتحصل عند
الفرنسيس كالنسبة بين عددي ثلاثمائة وستين ومائة واربعة
واربعين وهذه المقادير هي مقادير التوسط لجميع جزائر الانكليز
اي ايرلندة وايكوسا وبريطانيا فلو نظرنا الى بريطانيا وحدها
لوجدنا في كل اكتار راسين من الغنم مع انه لا يوجد في الاكتار

من فرنسا غير ثلثي رأس هذا ومحصول الرأس الواحد في بلاد
الانكليز ضعف محصوله في فرنسا فيعلم من هذا ان ربح الفلاح
الانكليزي ضعف ربح الفلاح الفرنسي في هذا النوع

وعلى ذلك نقاس ارباح البقر في كل من الجهتين وقد احصي
ثمن الجبن المبيع بمديرية شيستين خاصة في السنة الواحدة فبلغ
خمسة وعشرين مليوناً من الافرنكات ولبن بقر جميع فرنسا لم يبلغ
الآلاف مليون لير وثمان الليرة عشرة فرنكات واما المتحصل من
بقر الانكليز فضعف ذلك قدرًا وثمانًا فعلى هذا يكون ربح الفلاح
الواحد من الانكليز اربعة امثال ربح الزراع من الفرنسيين واغرب
من هذا تفاوتهم في عدد البقر بالنسبة لارضهم فان بقر الانكليز ثمانية
ملايين في واحد وثلاثين مليوناً من الاكتارات وبقر الفرنسيين
عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليوناً منها فلو نسبنا بقر كل قوم
الى ارضهم لكان بقر الانكليز بالنسبة لارضهم اكثر من بقر الفرنسيين
بالنسبة لارضهم وان كانت ذبائح الفرنسيين اكثر عددًا لانهم
يذبحون من البقر في كل سنة اربعة ملايين فيها من اللحم اربعمئة
مليون كيلوجرام واما الانكليز فلا يذبحون من البقر الا مليونين
الا ان فيها من اللحم خمسمئة مليون كيلوجرام فاذا ناملنا ذلك علمنا
ان ما يذبحه الفرنسيين وان كان في العدد ضعف ما يذبحه الانكليز
الا انه ينقص في اللحم نحو الربع وسبب ذلك ان الانكليز لا تذبح
الصغير ولا المهزول وذلك لامرين الاول كونه غير مستوف لشروط

الغذا والثاني ان ذبحه حينئذ يكون كضياح راس المال من قبل تربيعه سواء بسواء بخلاف الفرنسيين فانهم يذبحون من العجول الصغيرة اكثر مما يذبحونه من الكبيرة ولقلة هذا النوع عندهم لا يمكنهم الصبر الى ان تكبر الصغير فتضيق عليهم بذبحه فائدتان الاولى جودة اللحم والثانية الانتفاع به وايضاً فان الانكليز من عادتهم اراحة البقر من الاشغال وتسمينها واما الفرنسيين فانهم يستعملونها في جميع الاعمال الشاقة ولا يذبحون الكبير منها الا اذا هزل لحمه وضعفت قوته مع انا لو تاملنا فيما يكتسبونه من استعماله وفيما يضيع عليهم به لوجدنا ان استسمانه واستثاره ارجح لهم من استعماله لانه بالبحث عن ذلك وجد ان قيمة البانها بفرنسا نحو مائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم اربعمائة مليون وما يقابل شغلها مائتا مليون فيكون جميع ايراد البقر بفرنسا سبعمائة مليون

واما الانكليز فان ثمن البان بقرهم اربعمائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم خمسمائة مليون فجميعه تسعمائة مليون فتري ايراد هذا النوع عندهم قد زاد على ايراده بفرنسا مائتي مليون وان اعتبرنا ربع كل من الجهتين على حدته وجدنا مجموع ايراد الفلاحة بفرنسا خمسة الاف مليون من الافرنكات منها قيمة اللحم ثمانمائة مليون وقيمة الخنطة ستمائة مليون فباعتبار هذه المقادير تكون قيمة اللحم في فرنسا نحو السدس من ايرادها مع ان قيمته عند الانكليز

تبلغ ثلث إيراداتها تقريباً وما ذاك إلا لكون احوال الزراعة عندهم متقدمة تقدماً زائداً

فقال صاحب المنتزه ان ما ذكرتموه صحيح ولكن قد تفتنت المخلق الان لامر الزراعة ونمائها لوجود الخلطة العامة وحصول الالفة الثامة فاننا نجد كل انسان قد تحصل على ما فيه منفعة له ولو كان على بعد منه لسهولة السفر وقرب المسافة بما حدث من الآلات البخارية براً وبحراً فجميع الآلات التي كانت لا توجد إلا عندكم قد صارت موجودة عندنا وربما تحسنت زيادة عما عندكم فتقدمت الزراعة واتسعت اصناف البضاعة وان كان لتأخير الزراعة اسباب كثيرة واقواها تأثير الاحتقار باهل الفلاحة وعدم الالتفات اليهم وترك التبصر في احوالهم وارتركاب ما تضع به ثمرات الفلاحة من تسخير اهلها بالعسف والتهر والتعدي عليهم بما يهقر حالهم ويفسد عليهم اعمالهم وكالتغالي في الزينة والزهو والاكباب على اللعب واللهو خلافاً لما يزعمه اخساء العقول من ان ذلك من لوازم الثروة فان بطلانه لا يخفى على كل ذي بصيرة لانا لو اخبرنا ما كانت تستهلكه اي امة في الزمن الغابر وما تستهلكه في الزمن الحاضر وقارنا بين الزمنين لوجدنا بينهما فرقا عظيماً مثلاً النور كان لا يوجد بمدينة باريز الا في بعض اماكن منها كالذي يخص رب المنزل واما الان فترى جميع اماكن البيوت مضيئة وعلى ذلك لا شك انه يلزم لها الان استصباح اكثر مما كان يلزم لها في سالف

الزمان ولا يتيسر الحصول على ذلك الا بزرع ارض له زائدة عما كان يزرع في الاول وذلك لا يكون الا بنقص جزء مما كانت تزرعه لغوتها وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى فضلا عما يلزم لجلبه الى المدينة من رجال الزراعة وحيوانات الفلاحة وما يلزم لهذه الحيوانات من زرع ارض لمرعاها ينقص بقدرها من ارض الحبوب فاذا نقصت ارض الحبوب نقص القوت فينقص عدد الاهالي فان قيل لا يلزم ما ذكر لانه كان فيما مضى غابات مهملة وبرك ومناقع كثيرة معطلة وقد عمرت الان وزرعت فهلا تكون عوضا عما نقص من ارض الحبوب قلنا ذلك مسلم لو كان عاما في جميع الجهات فانا نجد بعض جهات كانت عامرة بالخلق فلما زرعت فيها هذه الاصناف ونقصت مزارع حبوبهم نقص عددهم فحيث لا شك ان الاكثر من الزينة وانواع التفاخر موجب لنقص ارض الاقوات فاما ان تتم من الخارج والا هاجرت الاهالي وتعطلت فضرر حب الزهو والفخر كضرر المحاربة بل اضر لان المحاربة وان كانت تضر بارض الزراعة لا تضر بالامة وان اضررت فضررها وقتي وما يؤيد ذلك انك ترى بعض جهات وقع فيها محاربات كثيرة وهي الان احسن مما كانت قبل الحرب لان الغالب ان الحرب اذا كانت في جهة وانلفت منها شيئا زاد عمار الاخرى بقدر ما تلف من الاولى وقد يتنبه الجميع بعد انتضاءها فيتركون الرفاهية فيعودون الى احسن مما كانوا فعلمنا من ذلك ان

الحروب وكذا الأمراض الوبائية ليست السبب في تدمير الام اصلا بل السبب فيه حب الزهو والزينة ليس الا لانا لو فرضنا ان فرسا واحدا دخل مدينة للخيلاء به لا لعمله لم نشك انه ياخذ من ريع تلك المدينة لمؤنته ما يعدل مونة اربعة من نوع الانسان وهذا فرس واحد فما بالك بافراس او ما بالك بغيره من الحيوانات التي لا فائدة فيها الا النظر لذاتها او التامل في الوانها وهيئاتها ولا يقال ان اقتناء الحيوانات وان كثرت مؤنتها لا ضرر فيه لما يترتب عليه من تسميد الارض بروثها فتزيد في محصولها بقدر مونة الدواب والحيوانات التي بها لان ذلك انما يقال في الدواب والحيوانات التي بالقرى وارض الزراعة واما الحيوانات التي بالمدن فلا لان روثها بها لا قيمة له بل قد يصرف عليه دراهم لاجراجه من محله مع ما يلزم لذلك من تعطيل اشخاص من اهل الفلاحة لخدمتها وجلب مؤنتها وقد توهم بعضهم ان كثرة الامة وقتلتها تابع لما يستهلك قلة وكثرة اعني انه كلما كثر المستهلك كثرت الامة وكلما قل قلت وهذا التوهم لا يسلم به الا لو اقتصر على ما لا بد منه والواقع غير ذلك فانا نرى القليل من الامة يصرف اضعاف ما يصرفه الكثير منها فاذا تأملنا ذلك وجدنا ان معيار الثروة وعدمها تابع لكثرة المشتغلين بالزراعة وقتلهم فكلما كثروا اخصبوا وكلما قلوا اجدبوا فاي قوم لم يشتغلوا بامر الزراعة وتوابعها كانوا وبالا على الامة عموما وعلى المشتغلين بها خصوصا فحيثئذ يجب على ولاية

الامر التنبه لذلك وحمل اهل البطالة على العمل ولا سيما الشحاذين الذين اتخذوا التكسف صنعة فانهم يتفننون في الحيل ويتعللون بما تسوله لهم انفسهم من العلل فلا يمضي على الواحد منهم زمن قليل الا وقد تحصل على جزء من المال فثل هؤلاء يجب منعهم وامرهم بالتكسب لئلا يقتدي بهم من يميل الى البطالة والكسل ليستغني بهذه الصنعة الخبيثة عن التكسب بالعمل فاذا تمهد هذا علمنا ان فن الفلاحة والزراعة هو الاصل بل هو اساس ثروة البلاد وعمارها واصل رفاهية اهلها فيجب على كل حاكم احترام المشتغلين بها والالتفات اليهم كل الالتفات ومساعدتهم بانواع المساعدات وتطبيب قلوبهم والرافة بهم والا كان كمن هدم اساس بيته بفاسه لان مثل كل ملك مع رعيته كمثل شكل هرمي الملك كراسه والرعية كقاعدته واسه ورجال الدولة ما بين ذلك على قدر درجاتهم فكما ان كل جزء من اجزاء هذا الشكل حامل لثقل ما فوقه وهكذا الى الطبقة السفلى فتكون هي التي عليها ثقل الجميع كذلك ارباب الحكومة السياسية على اخلاف درجاتهم كلما فسدت درجة سرى ضررها الى من دونها وهكذا حتى تجتمع جميع المضار على الضعفاء واهل الفلاحة فلو قصر الملك نظره على من بليه من رجال دولته وصرف عن دونهم نظره فسد نظامه واخملت مملكته واحكامه فكما انه لا بقاء للشكل الا بقواعده كذلك لا بقاء للملك الا برعته فان تنبه الحاكم وانصف من نفسه عرف كيف يصون ولائته

من الخلل بان يشمل بنظره جميع رعيته لا يفرق بين الاجانب منهم
وذوي قرابته ولا بين ضعيف منهم وقوي وخص من بينهم اهل
الفلاحة بمزيد العناية والالنفات لانهم الحاملون لاثقاله القائمون
بمصالحه واعماله اذ لولا هم ما كان للملك قوام ولا تم له نظام وحيث
كانت الارض لا تفيد الاّ بقدر ما تستفيد لا فرق عندها بين
عظيم فتكرمه ولا فقير فتحرمه بل ان قام صاحبها بما يجب لها
وخدمها انتفع بها والاّ عدمها وهي على اختلاف انواعها لا يخلو شي
من اجزائها عن فائدة حتى الرمل الذي لا يصلح للزراعة لو وضع
منه شي في الارض السجّة او البرك المألحة لاصلحها وكذلك اخراس
الارض لو نقيت منها فيها وحرثت لكانت اصلح من غيرها وكذلك
الارض الحجرية يؤخذ منها احجار للمباني العظيمة ذات الاسوار فما
من انسان اقام في اي مكان وتيسرت له اسباب الراحة وانتفت عنه
الموانع الاّ تيسر له منه اضعاف قوته وتحصل على ما لا يتحصل عليه
غائص البحر لياقوته فلو فرض ان فداناً غرس اشجاراً لا تثمر وترك
الى نحو عشرين سنة لكان فيه من الخشب والفحم ما يقوم بهال عظيم
مع انه لم يلزم له الاّ قليل من العمل والعمال فما بالك لو غرس
اشجاراً ذات ثمر فلو فرضنا ان ذلك الفدان بعينه كان في المدة
المذكورة يزرع حبوباً لكانت فوائده اكثر منها في الحالين السابقتين
فعلم من ذلك ان الناس نابعة للزراعة كثرة وقلة ولو كان ذلك
الفدان بعينه في ضاحية من ضواحي المدن قد هيا له صاحبه

محابس لريه وغرس فيه اشجاراً واجرى اليه انهاراً وجعل فيه عروشا
أما كان بذلك يساوي اضعاف مثله من ارض القرى والارياف
وما ذاك الا لكثرة عماله واحنفاف الناس به فهذا دليل ايضا على
انه كلما كثرت الناس بارض زاد محصولها وان الانسان لو خلى
ونفسه لجعل من الارض المحجرة بساتين وكروما الا ترى ارض
مرسيليا فانها كانت اولا جبالا وربما لا فاجتهد اهلها حتى حفروا
فيها خنادق وطموا ارضها بالتراب واجروا اليها الماء ثم غرسوا فيها
من انواع الفواكه والاشجار ما يستغل منه اموال عظيمة فلوا حصينا
عدد قرية وفرضنا انهم قائمون بخدمة ارضهم حق القيام لكان عددهم
دائماً في زيادة لان الجمع عليه عند ارباب الفلاحة ان الارض
كلما خدمت زاد محصولها فليس محصول المحروث مرة كحصول
المحروث مرتين ولا محصول الارض التي تسقى بماء المطر كالتي
تسقى بماء العيون ولا محصول الارض التي سقيت كحصول الارض
التي لم تسق وهكذا من محسنات الزراعة فالفلاحة لا شك انفع
الصنائع اذا توفرت اسبابها وانتفت الموانع عن اربابها خلافا لقوم
ذموها واستعجوها وعدلوا الى ذماء الناس واموالهم فاستباحوها مع
علمهم بان فوائد الفلاحة لا تعدلها فوائد وادرار ارزاقها دائماً
متزايد وهم الاتينيون وسكان اسيا فكانوا يزعمون ان الفلاحة
والتجارة ما يوهن القوى البدنية ويورث الذل للذرية فتركوا جميع
الصنائع ولم يلتفتوا لما فيها من المنافع وعدلوا الى نهب الاموال

واسرما قدروا عليه من نساء ورجال وعم ذلك جميع اوروبا
فاتج خرابها وافسد العمار الذي كان بها وكان المنقطع للفلاحة
وقئذ الارقاء ومن يأوي اليهم من الغرباء فارتحلت عنهم حينئذ
الفضائل الدثرية وقد كانت بقعهم عين منبعها ومرج مرتعها وانظر
الى الرومانيين وما كانوا فيه من الخمول والتوحش فلما افاقوا
من خمولهم وفتنوا في الفلاحة علت شهرتهم وقويت شوكتهم ثم تقدم
بهم الزمن واهملوا امر هذا الفن واشتغلوا بالحجارات فال امرهم الى
الخراب وضعفت دولتهم وانحطت صولتهم وانتهى بهم الحال الى
ان تقاسم ارضهم المتبريرون وبالجملية فلم تر جهة اهتمت فيها الزراعة
الا حل باهلها القحط والمجاعة

فقال الشيخ احسنت الا انه بغير العدل لا يتم صلاح اذ لولاه
ما قدر مصل على صلاته ولا عالم على نشر علمه ولا تاجر على
سفره وهو صفة في الذات تقتضي المساواة وهذه الصفة اكمل
الفضائل لشمول اثرها وعموم نفعها واليها الاشارة بقوله صلى الله عليه
وسلم بالعدل قامت السماوات والارض وتوضيح الكلام يحتاج الى
مقدمة في هذا المقام ذلك ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها
واخرج منها ماءها ومرعاها وبث فيها من كل دابة فكان فيما خلق
نوع الانسان ولعلمه انه ليس كغيره من سائر الحيوان احوج بعضه
الى بعض في ترتيب معاشه وموئنه وتحصيل ملبسه ومسكنه لانه
ليس كسائر الحيوانات التي تحصل بنفسها ما تحتاج اليه من غير

صنعة بل خلقه ضعيفاً لا يستقل وحده بامور معاشه

ثم مست الحاجة بينهم الى سايس عادل وملك عالم عامل يضع فيهم ميزاناً للعدالة وقانوناً للسياسة توزن به حركاتهم وترجع اليه معاملاتهم وكان مباشرة هذا الامر من الله تعالى بنفسه من غير واسطة على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة فاستخلف عليهم من الادميين خلائف وضع في قلوبهم العلم والعدل ليحكموا بها بين الناس حتى يصدر ترتيبهم على قانون مشروع وتجمع كلمتهم على امر متبوع ولا تتحقق العدالة الا بعد العلم باوساط الامور المعبر عنها بالصراف المستقيم ولا تؤثر عدالة الشخص في غيره الا ان اثر اولاً في نفسه اذ التأثير في البعيد قبل القريب بعيد قال تعالى أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم فمن عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق وإطاعه الخلق وصفت له النعماء وإقبلت عليه الدنيا فنيء بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمن المحروب ولم يخلق الله تعالى احلى مذاقاً من العدل ولا امر من الجور لان اسر المملكة واركانها وثبات احوال الامة وبنائها العدل والانصاف سواء كانت الدولة اسلامية او غير اسلامية فهما قاعدة كل مملكة واصل كل سعادة ومكرمة

فالواجب على الملوك وولاة الامور ان لا يقطعوا في حكم الا من القانون المصنوع لهم سواء في ذلك العادات والزواج والامر والمعاملات لانهم متصرفون في ملك الله وعباد الله بشريعة الله

ولذلك قالوا صنفان اذا صلحا صلت الامة واذا فسدا فسدت
 الملوك والعلماء وقالوا اذا همّ الوالي بالجور او عمل به ادخل الله
 النقص في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات
 واذا همّ بالخير او عمل به ادخل الله البركة في اهل مملكته وفي كل
 شي حتى في التجارات والزراعات فلا يصلح لهذا المنصب الاّ من
 قطع من الطمع امله ووافق قوله عمله وكذلك عماله ونوابه والا
 كان كما قيل

ومن يربط الكلب العقور ببابه
 فعقر جميع الناس من رابط الكلب



المسامرة التاسعة والتماثون

فرساي

وما وصلوا الى هذا المقام من المقال حتى وقفت بهم العربية على باب الجنيينة التي قصدوها فنزلوا وقصدوا القصر اولاً ليروا ما فيه من العجائب فدخلوه ولم يتركوا محلاً منه حتى نظروه فرأوا فيه صوراً وتماثيل واشياء كثيرة من هذا القبيل منها ما هو على صورة عساكر مصطفة ومنها ما هو على صورة طير كأنه يناغي الفه ومنها ما هو على صورة نساء في غاية الجمال ومنها ما هو على صورة خيل مسومة وكأنها متهيئة لنزال او هجوم

ومنها ما هو على صورة بعض الملوك الاول ورجال الدول فكانوا كلما مروا بصورة شرحها الخواجا الشيخ ولو لم يسأله عنها فلما خرجوا قال الانكليزي للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى بما فعلت

حوادث الزمان وخطوب المحدثان وتحول الأشياء عما كانت عليه
وخروجها عن موضوعها

فقال الشيخ كيف ذلك وما الذي خطر ببالك فقال ان
هذا القصر كان محلا للملوك لا يصل اليه شريف ولا صعلوك فلما
تقلبت به الايام وامتدت اليه يد الزمن عاما بعد عام اضمحل حاله
وآل الى ما ترى مآله والذي وضع فيه الصور والرسوم التي رأيتها
هو لوي فيليب فلورأينه قبل قيام الفرنسيين حين كان مركز دائرة
الحكومة ومحل فصل كل مشكلة وخصومة فكان غاصا في النهار
باصحاب الحاجات والليل بانواع الملاهي والمستلذات ولولم يضع
فيه هذا الملك هذه الرسوم ما جنح اليه احد

فقال الشيخ ليس ذلك من الدهر بعجيب ولا عدد ارباب
المعارف بغريب فكم لعبت الايام بمثله حتى ازالته من اصله كما
قال

هي المتادير تجري في اغنتها

فاصبر فليس لها صبر على حال

يوما تريك خسيس العقل ترفعه

الى السماء ويوما تخفض العالي

اذ من المعلوم ان الدهر لا يبقى على حاله بل لا بد له من
اعطاء ومنع وخفض ورفع وحركة وسكون وظهور وكون وصحة

وعلة ويسار وقلة فلا يدوم على حال الأ الكبير المتعال
وأمّا الكون أجمع وما حوته جهاته الأربع فلا يخلو عن
صحة وفساد وضلال ورشاد على حسب ما اقتضته ارادته العلية
ودبرته حكمته الخفية فترى الشيء قد كسي حلل البها وعلاه رونق
الحسن والأزدها وعن قريب تراه قد حل به القضا كل ذلك
لحكم واسباب منها ما علم ومنها ما ضرب دون العلم به الحجاب
ومن تصفح تواريخ الام وتنبع اخبار الناس من عرب وعجم وجد
ان كل زمن لا بد فيه من تغير ومحن ومن يطلع الآن على هذا
المكان ويتأمل في بنيانه واتساعه وإتقانه وما اخذه من الارض
بحكم على واضعه بالغرور ولكن هكذا دأب الأسان على ممر
الدهور فانه كلما تمنى حالة وبلغها تمنى اعلی منها وهكذا الى ان
يأتيه هادم اللذات ومشتت الجماعات فيجده غريقاً في بحر شغلته
فيجذب به من بين اهله واحبته فهناك تنقطع علايق اوهامه وتنبت
حبال اغتراره بأيامه ولنترك الآن الكلام في هذا الشأن وادخل بنا
البستان نرج الخاطر باستنشاق ارجه العاطر وتنتع الباطر بزهره
الزاهر فساروا حتى دخلوه فكانوا كلما مروا بنوع من ازهاره او
ناحية من نواحيه او شجرة من اشجاره ساله الشيخ عنها فيطلب له
في وصفها وخواصها ولطفها الى ان وصلوا كهفا حوله اشجار يسمع
منه تغريد اطياف فوجدوا عنده مصطبة من حجر للجلوس كل من

رَفَجَلَسُوا وَانْفَقَ أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَجَارِي الْمِيَاهِ بِجَمْعٍ فِيهِ خَلَقَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ بَارِيْزٍ وَغَيْرِهِمْ فَخَصَلَ عِنْدَ الشَّيْخِ مِنَ الْعَجَبِ مَا ذَهَبَ بِهِ كُلُّ مَذْهَبٍ فَسَالَ صَاحِبَهُ الْإِنْكَلِيزِيَّ عَنْ أَصْلِ هَذَا الْمَكَانِ وَعَمَّنْ زَخْرَفَهُ وَاتَّقَنَهُ هَذَا الْإِتِّقَانُ

فَقَالَ لَهُ الْأَوَّلَى أَنَّ تَسَالَ فِي ذَلِكَ صَاحِبِنَا الْفَرَنْسَاوِيَّ لِأَنَّهُ أَدْرَى بِأَحْوَالِ بِلَادِهِ فَقَالَ لَهُ الْفَرَنْسَاوِيَّ هَذَا مِنْ حَسَنِ اخِلَافِكُمْ وَالْأَفْتَارِ بِخِزْمَةِ هَذِهِ الْبَقْعَةِ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ مِنْ أَهْلِ أَوْرُوبَا لِأَنَّ لَهُ حَوَادِثَ جَسِيمَةً فِي أَزْمَنَةِ مُخْتَلِفَةٍ تَرْتَبُ عَلَيْهَا تَقْلِبَاتٌ كَثِيرَةٌ فَيُغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أَنَّهَا بَعْضُ مَعْلُومَاتِكُمْ وَلَكِنْ هَكَذَا يَكُونُ الظَّرْفُ عِنْدَ أَرَبَابِهِ فَأَقُولُ أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَصْلِ كَمَا تَرَاهُ الْآنَ بَلْ كَانَ بَقْعَةً لَا تَوَلَّفُ وَلَا تَسْكُنُ مَا بَيْنَ مُنْخَفَضٍ وَعَالٍ وَمَجَارِي مِيَاهٍ وَتَلَالٍ لَا شَيْءَ بِهَا سِوَى غَابَاتٍ وَلَا يَأْوِي إِلَيْهَا إِلَّا الْحَيَوَانَاتُ وَكَذَلِكَ الْمَدِينَةُ الَّتِي تَرَاهَا عَلَى مَا تَرَاهَا عَلَيْهِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا عِبَارَةً عَنْ كَفَرٍ صَغِيرٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى قَلِيلٍ مِنَ الْبُيُوتِ كَالْعَشَشِ لَا يَسْكُنُهُ إِلَّا أَوْغَادُ النَّاسِ وَطِفَالُهُمْ هَكَذَا كَانَ أَصْلُ هَذِهِ الْبَقْعَةِ ثُمَّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنَ الْمِيلَادِ انْشَأَ بِهِ كَنِيسَةٌ ثُمَّ مَارِسْتَانٌ لِمُعَالَجَةِ مَنْ يَمْرُضُ مِنْ خَدْمَتِهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا رَهْبَانًا لَا مَأْوَى لَهُمْ سِوَاهَا فَبَقِيَتْ كَذَلِكَ مَدَّةً وَاعْظَمَ مَحَلَّ كَانَ بِهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بَيْتٌ لِأَحَدِ الْبُرُوسْتَانِيَّيْنِ الَّذِينَ نَجَّوْا مِنَ الْقَتْلِ فِي وَاقِعَةِ

برتلي ثم قبض عليه وقتل واستولت الحكومة على جميع متروكاته
وانعم ببنته على بعض من يلوذ بالملك الى ان تولى لويز السادس
عشر فاخذ ارض ذلك البيت واطاف اليه ما بجواره من الارض
وانشأ في الجميع قصراً وحديقة

فقال الشيخ اذا كان هذا المكان في الاصل على ما ذكرت
من الصفة فما الذي اعجبه منه حتى الفه

فقال الفرنسي لا شيء الا انه كان يهوى الصيد وكان
ذلك المكان بطريق غابة مشهورة بالحيوانات الغريبة ولم تكن
سكك الحديد وقتئذ موجودة فانفق انه ذهب مرة ليصطاد
فامسى عليه الوقت فبات فيه في طاحونة مهجورة وامسى عليه
الوقت مرة اخرى فبات في خماره فاشترى تلك الارض وما يجانها
ووضع فيه ما يلزم له لياوي اليه اذا حصل له مثل ذلك ثم لما
اتم القصر والحديقة شرع في عمل سكة الحديد بين قصره وباريز
واجتهد في تصفية هوائه فجمع العمال من الرجال وازال ما كان
حوله من التلال وطم المنخفض وردم المناقع فألفه الناس واتخذوا
لم به مساكن فانتسعت عمارته وتغيرت صفته ثم مرض الملك
مرضاً شديداً فوكل امر الملك الى امه ماري ميديسي فاسأت
التدبير ولم تعمل في امر الملكة على وزير ولا مشير بل سلكت
طريق العسف ففسد ما بينها وبين رجال الحكومة خصوصاً
ريشليو وكان من اعيان رجال الدولة واقربهم الى الملك فانها

فعلت معه ما لا ينبغي فعله مع مثله فلما برىء الملك من مرضه وجلس محله راودته أمه في طرده وطرده من يتي اليه فلم يوافقها على ذلك بل ارسل اليه ليرده الى ما كان عليه فوجده متأهباً للخروج من البلد خوفاً على نفسه من سعاية ام الملك به فامته فعذل عما كان عازماً عليه وحضر الى الملك وترجاه في ان لا يعود الى الخدمة لئلا يقع بين الملك ووالده شيء بسببه فلم يقبل عذره بل الزمه المقام معه لعلمه بصداقته وكفايته فلما لم يجد له مخلصاً من المقام معه قال له ان كان لا بد من ذلك فاول ما اشير به عليك ان تعمل طريقة نأمن بها شر هؤلاء المفسدين اشارة لقوم ساهم وفيهم والدة الملك فقال له الملك هذا رأي سديد وكلما اشرت به في حقهم قريب غير بعيد فقال ينبغي نفي فلان وفلان حتى الوالدة ففعل كما قال وامر بنفيهم في الحال حتى والدته فلم تعد للمملكة بعد ذلك وجعل الحل والعقد بيد ريشليو فنفذت كلمته وقويت شوكته وقام بتدبير المملكة وحده وبلغ من نفوذ الامر وحسن الراي حداً لم يبلغه احد قبله ولا بعده فاكسبت هذه البقعة في تلك المدة من الروتق واليها ما يجلب عن الاحصاء ثم لما مات الملك وجلس محله ابنه لويز الرابع عشر احتفل بها وصرف فيها اموالاً كثيرة حتى ثقلها الى حال احسن من حالها الاول فكان هو الذي انتبهها هذا الاتفاق وجعلها على هذه الصورة التي تراها الان فان الملوك الذين

اتوا بعده وإن كان لهم بها اثار الا انها ليست شيئاً بالنسبة لما ابتدعه هو كما هو ظاهر فجميع ما تراه فيها مما يسر الناظر ويشرح الخاطر ليس الا من اثنان الملك المذكور وكان الذي اغراه على هذا المكان حتى ابرزه في غاية من الحسن والاتقان عشقه لاحدى تواع الملكة وكان لا يتمكن من منادمتها الا في هذا المكان فاغراه واغواه الا داء الحب الذي اعتراه ففصل هذه البقعة تفصيلا غير تفصيلها الاول وجمع فيها الرسوم الهندسية وصور الحيوانات وغرس حول بعض الاقسام ازهاراً وحول بعض اخر اشجاراً ورتب في كل جهة فساقى وحيضانا ونوافير وخلقنا ومغارات وصخوراً ونحو ذلك من كل ماله نظير في البراري والبحور وجعل فيها اماكن لمن اراد ان يستريح من التعب واماكن لمن اراد اللعب واماكن للحيوانات البرية ومثلها لانواع الطير وكان يعمل بها في بعض الاوقات ولائم يصرف فيها ما لا يصرفه ايام المواسم ولما رأى ان ماء البرك المجاورة لها لا يفي بما انشاء فيها من الفساقى والخلقان وسقى الاشجار جمع المهندسين وامرهم بعمل طريقة لتكثير الماء بها فصنعوا لها آلات جسية تنقل الماء من نهر السين اليها وصرف على ذلك اموالاً عظيمة حتى وصلت اليها فلم يكتف بذلك بل جمع العساكر والعمال وامرهم بحفر النهر المعروف بنهر الاور فاقاموا في حفره مدة كابدوا فيها انواع المشاق ومات كثير منهم

١١٤ ك . لا . لله ولا يرأف بهم بل كان يتهدد

المأمورين ويتوعدهم ويعاقب كل من تأخر عن العمل
قال بعضهم انه اجتمع في حفر هذا النهر ما ينيف على
ثلاثين ألفاً واما قدر ما صرف على القصر فلم اتحققه الا اني
رأيت بعض اوراق تدل على ان ما صرف فيه مائة وتسعون
مليوناً وقتئذٍ هذا ومع قيام الحرب واشتعال نارها كانت العملية
في القصر مستمرة ما بين نقاشين وبنابين ومصورين الى ان اشرف
الملك على الارتحال وقربت اليه اوقات الزوال فبنى كيسة رتب
فيها قسسا وخداما فكان يحضر اليها كل يوم احد وخميس فقلده
في ذلك اتباعه وخواصه فكان اذا حضر اليها تبعوه وازدحموا عليها
واذا تحلف لم يحضر منهم احد وكان غالب ايام ذلك الملك مصروفة
في تنظيم هذا المكان فكان يقسم اوقاته فيجعل وقتا لنومه ووقتا
للمطالعة في اخبار دولته وقومه ووقتا لخلوته واجتماعه باحبته
ووضع بجانب سريره لوحا عليه رسم صورته وصورة امه وزوجته
فاذا اتبعه من نومه كانت تلك الصور اول ما يقع بصره عليه وكان
اذا جاء وقت قيامه من نومه دخل عليه الموكل بخدمته فينبهه ثم
يخرج ويدعوه بالحكيم ومن يلوذ به فيغزون رجله ويلقون عليه
بعض عبارات غزلية وكلمات هزلية حتى يعود اليه نشاطه وتراجع
اليه حواسه ويتم انبساطه ثم ترفع الستارة فيدخل عليه احد خواصه
ومعه كتاب الدعوات فياخذه منه ويدخل به خلوة فيمكث فيها
ما شاء ثم يعود الى مكانه ويلبس ثيابه ويخرج فيجد القسس والعمال

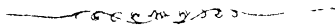
في انتظاره فاذا وقع بصره عليهم وقعوا له ساجدين ثم يامر كلا من
عماله بالانصراف الى اعماله فينصرفون ويبقى هومع بعض خواصه
يتحدثون في حيل الصيد وانواع المصيد هكذا كان دابه فانظر الى
هذه المدينة بعد ان كانت في اول امرها كفرة لا يذكر كيف صارت
احسن مدينة في الدنيا وما ذاك الا لاقامة الملوك بها واحفالم
بشأنها وتنظيم شوارعها وجمع انواع الملاحى في مراتعها فعمرت
ضواحيها وملأت الخلق نواحيها وانشي بها خمائر كثيرة ومحلات
مزخرفة لمبيت الاغراب وورد اليها الخلق من كل جهة خصوصاً
ايام اطلاق المياه وغلت اجرة البيوت بها غلوا لا يخاطر بال وقل
ان يوجد بها محل للاجرة خال فكانت فرساي مدة جلوس لوبز
الرابع عشر على التخت محل انس وانسراح وولائم وافراح ثم اتى
ولده من بعده فلم يجر على سنن والده في تقسيم اوقاته على ما قدمنا
بل صرفها جميعها في حظوظه النفسية ما بين مخادنة نساء وفجور
ولعب ولهو وشرب خمر حتى كان من شدة اكبابه على المنكر مع
احبابه يجعل له آلة توصل اليه ما لزم من غير احتياج الى خدم
فاقبل عليه المفسدون من كل حدب وحسنوا له التبيج من الشهوات
واغروه بسائر المنكرات فعم الفساد وانتشر بين العباد ولا تسل عما
كان يهديه الى النساء فانه ما يجمل عن الاحصاء وقد بلغني من
فعله التبيج واسرافه انه اهدى مرة الى بعض صواحيه قلادة ثمنها
مليون وستائة الف فرنك فانظر كيف كانت هذه البقعة مدة

لوزير الثالث عشر ومدة من جاء بعده وكيف صارت مدة لويز السادس عشر من حسن حالها واستقامة احوال نساءها ورجالها حيث كان حسن السيرة ممدوح الفعل والسريرة يحب العلم واهله ولم يرتكب شيئاً مما ارتكبه من كان قبله الا ان الزمن الذي كان تصرّم في الفساد قد الزم الرعية وكذا الحكومة بديون لا يرجى لها سداد فشكوا اليه ذلك فرق الحالم واخذ يجمع ما تشتت من شملهم ويهون عليهم الامور ويعدم وينهم بما يجلب لقلوبهم السرور وكان الذي قبله قد شرع في اعمال جسيمة نافعة كبناء مينا شربور وحفر خليج سربوني مع خلو خزينة المصلحة من الدرهم والدينار واضطرار الرعية الى من ينظر في احوالهم اشد اضطرار فجمع النواب وكل من اشتهر من روساء الطوائف فكانوا العا ومائتين واربعة عشر وجعلهم ثلاث درجات

الاولى القسيسون ومن يلهم فكانوا ثلاثمائة وثمانية الثانية اعيان المدينة ووجوهها فكانوا مائتين وثمانية وتسعين الثالثة اعيان الزراع وعرفاء القرى وارباب الضياع فكانوا ستمائة وسبعة وامر بتهيئة محل لهم يجتمعون فيه فبيئوا لهم المكان الذي هو مدرسة ابتدائية الان وعينوا يوماً لافتتاحه فحضر الملك وكان عن يمينه اهل الديانة وعن يساره وجوه اهل المدينة وجلس الوزراء على قدر مراتبهم وكانوا جميعاً في ذلك اليوم قد حضروا وعلمهم ملابس الزينة الموشاة بالذهب وغيره ما عدا الاهالي فكانوا

بهيأتهم المعتادة وبعد ان كان هذا المجلس يسمى بمجلس النواب
 اطلقوا هذا الاسم وسموه بمجلس الأمة ولما كان من عادة امثالهم في مثل
 ذلك ان ينزعوا رانظهم ويظلوا واقفين ولم تراع تلك العادة في
 ذلك الوقت قال بعض المحاضرين هذا خروج عن العوائد
 الرسمية وخلل في القوانين السياسية واكثروا من الكلام في ذلك
 فلم يلتفت الملك اليهم وشرع في مقالة تلاها عليهم فذكر فيها مسألة
 الدين وعدم انتظام عوائد الفردة ونحو ذلك من الامور التي تضرر
 منها الاهالي ثم ختمها بامر النواب بالاتفاق على طريقة لاصلاح
 خلل هذه الانواب ثم قام ناظر الخاصة وتلا مقالة بين فيها ما
 اجمله الملك في مقالته فذكر ان قدر الدين ثلاث مليارات وتسعون
 مليوناً وان الايراد لا يقوم بالمنصرف بل ينقص عنه في كل سنة نحو ستة
 وخمسين مليوناً وخمسمائة الف فرنك وان قدر الايراد خمسمائة
 وواحد وثلاثون مليوناً واربعمائة واربعون الف فرنك وان من
 العدل والانصاف ان تكون وجوه الناس كثيرهم في الفردة وان
 جميع ما يلزم للحكومة يوزع على جميع النفوس من غير تمييز بين رئيس
 ومروءس ثم قال فاما ان نتفقوا جميعاً على كلمة واحدة واما ان
 تبدي كل طائفة ما يظهر لها وعلى كل لا بد من اعمال الفكر في
 تخليص الحكومة من ورطة هذا الامر ثم اذن لهم بالانصراف
 فانصرفوا فلما كان اليوم الثاني حضروا فقالوا الصواب صرف
 النظر عن اراء رؤس الطوائف وان يؤخذ رأي كل شخص على

حدثه فمن كان اكثر عمل برأيه فنفر بعضهم من هذا الراي فلما بلغ الملك ذلك امر بعدم تغيير المعتاد ونهى عن الدخول في كل امر يوقع بين الناس الفساد واذن لهم بالانصراف فانصرفوا واغلقت الابواب فنشأ من ذلك امور لا يحصرها لسان ولا يحيط بها جنان كما هو مذكور في تواريخ الامة الفرنساوية فترتب على ذلك تدوين الاحكام السياسية والتوانين الفرنساوية وظهر نابليون بونابرت وتعصبت الدول على الامة الفرنساوية فانتصر عليهم وسنتكم على ما وقع بين هؤلاء القوم في يوم بعد هذا اليوم



المسامرة التسمون
الجيولوجيا
او علم طبقات الارض

ثم ركبوا سكة الحديد وتوجهوا الى باريز فصادف دخولهم غروب الشمس فاستأذن صاحبهم الفرنساوي وتوجه الى منزله وبقي الشيخ مع صاحبه الانكليزي ولما لحق كلا منهما من التعب من كثرة المشي طول يومه استأذن كل منهما صاحبه ودخل محل نومه وعند الصباح اتى الفرنساوي الى الانكليزي فاخذه وذهب به الى الشيخ فتلقاها بالقبول واحسن لها في القول ثم قال الفرنساوي للشيخ كنت كتبت الى صاحبنا الانكليزي كتابا رجوته فيه تبليغ السلام الى حضرتكم وان يترجاكم في قراءة دروس لنا في علم العربية بالمدرسة المشرقية وقد سأله البارحة عما تم عليه الامر فاخبرني انكم

قبلتم رجاءه فارسلت الى اعضاء الجمعية ابشرهم بذلك فسروا جميعا غاية السرور وكانوا يظنون ان اجابتم الى ذلك من ابعد الامور

فقال الشيخ قد نجت مقاصدكم لا خاب قاصدكم وكيف امتنع من ذلك والعلم بنهى اهله ان يمنعوه اهله وهما انا مستعد لما ترومون ومتهيئ لما ترغبون ولم يكن الباعث لي على اجابتم ما ذكرتموه في المکتوب الذي حررتموه بل اقول كما قال انا موصول بنعمة من حبله بالود موصول ثم اتفقوا على اليوم والساعة وقام الفرنسي مع الانكليزي واذا بابن الشيخ دخل عليه وقبل على عادته يديه فاخبره والده بما صار وبما انخط عليه القرار وانه عازم على انجاز الوعد ومتوجه اليهم في بعد غد

فقال له ولده ان يعقوب اخبرني حين استشعر بهذا الخبر ان له رغبة في حضور هذا المجلس ولكنه يخشى ان لا يأذنوا له فقال له الشيخ قل له عني لا عليك من ذلك ولا مانع من حضورك معنا هنالك ثم اذن لابنه بالانصراف وحذره من تضييع الوقت اذا اراد الطواف وكانها كانت كرامة للشيخ فان يعقوب كان قال له قبل دخوله على والده ان هنا مكانا على نحو ساعة من باريز يعمل فيه في مثل هذا اليوم كما يعمل في الموالد في بلادكم وفيه ما يشرح الخواطر ويسر النواظر فلما خرج من عند والده واخبره بما قيل في شأنه تم انبساطه وتنبه نشاطه وقال له هل لك

في الذهاب الى هذا المكان لنرى ما فيه وتنشق سمات هاتيك
الجنان فلم يجد له بدا من الموافقة عملا بقولهم شرط المرافقة الموافقة
فركبا غربة وسارا فقال له ابن الشيخ اذكر ايام كنا راكبين البحر
حين كنا نرى دخانا صاعدا الى السماء فكنا نراه في الليل كأنه
مخلط بشهب ولهب وكان الخواجا يقول لوالدي انه خارج من
جوف الارض فاطم ان هذا من ذلك وذلك يقضي بوجود حرارة
شديدة في جوف الارض حتى تذوب منها هذه المعادن والاحجار
وتندفع على وجه الارض وتترس سلما ذلك فكيف وصل الانسان
الى جوف الارض حتى علم ما هناك

فقال له يعقوب قد سألت عن مسائل مشكلة والاجابة عنها
على مثلي معضلة ولكن على حسب الامكان اذكر لك ما يحضرني
فيها الان مما سمعته من بعض العلماء واطلعت عليه في كتب
الفلاسفة الحكماء انما يجب ان تعلم اولاه انه لا ينبغي للانسان ان يحكم
على الاشياء بظواهرها وانما كانت كذلك من اول امرها فان
الارض التي تراها مكسوة باصناف النبات مملوءة بانواع الحيوانات ثم
تكن قبل ذلك كذلك حتى المدن التي تراها الان عالية البنيان
معمورة بالسكان لم تكن كذلك بل لا بد وان يكون قد تداول
عليها ثلثيات منها ما اوقع اهلها في مضرات ومنها ما البسهم ثياب
ثروة وسعادات فاذا كان هذا فيما على ظاهر الارض فلا مانع من
ان يكون ما في باطنها كذلك فاننا لو نزلنا الى ما في جوفها من مغارات

عميقة كمفارات الفحم الحجري مثلاً لوجدنا حرارة باطنها اشد من حرارة ظاهرها وهكذا كلما نزلنا ثلاثة وثلاثين متراً نجد حرارة اشد مما فوقها وايضاً فان الارض مركبة من طبقات ومعادن بعضها فوق بعض منها المستقيم وغيره وقد يكون بعض الطبقات مفصولاً عن بعضه بمادة ليست من جنسه وغير ذلك مع اننا لو نزلنا الى باطن الارض وامعنا النظر لوجدنا في خلال مادتها بعض عظام واثربعض نبات فمن اين كان هذا النبات والحجوان واي حيوان كان ومتى كان في هذا المكان أفلا يدل ذلك على وجود تقلبات مضت في الاعصر والازمان التي انتقضت وقد اعنى علماء كل زمان بالبحث عن هذه العظام فظهر لهم انها عظام حيوانات كانت في ازمان مضت ثم انقرضت عن اخرها

وحيث كانت تلك العظام غائرة في جوف الارض وعلى بعد عظيم من سطحها ينبغي القطع بمرور تقلبات عظيمة وادوار مختلفة اوجبت بلاءها وامتزاج ما بقي منها بالمواد المعدنية والحجرية فقال له ابن الشيخ واي علم يشرح هذا الحديث وهل هو قديم او حديث

فقال يعقوب العلم الذي يذكر فيه ذلك يسمى باللغة الفرنجية علم الجيولوجيا ومعناه علم طبقات الارض او علم تكوين الارض وهو علم حادث لم تؤسس قواعده ولم تنتشر فوائده الا في القرن السابع عشر من الميلااد ومستنده المشاهدات والاطلاع على ما خفي من

طبقات الارض فكانوا كلما كشف لهم شي اثبتوه واستنجوا منه
غيره ولذا ترى هذا العلم دائماً يتسع شيئاً فشيئاً وهو علم نفيس اذ
به يمكن نسبة كل طبقة من طبقات الارض الى الزمن الذي
تكونت فيه واخشى ان تكلمت معك فيه ان تسأم من طول
المقام او كثرة الكلام

فقال قل ما شئت ولا تقصر في الايضاح ولا تبخل بالافصاح
فاني لكلامك سامع

فقال يعقوب اذ قد الزمنني بالاجابة وان ابين لك خطأ
الراي وصوابه فانول

اعلم ان علماء هذا الفن يقولون بتغير ظاهر الارض وباطنها
اما تغير ظاهرها فبما هو مشاهد لكل احد واما تغير باطنها فقد استدلوا
عليه بشيئين احدهما ما وجدوه في خلال طبقاتها من الاثار
الحويانية والنباتية والثاني الاتقاد والاستعمال الذي وجدوه في
باطنها كالذي رأيناه حين كنا بالبحر فلما رأوا ذلك قالوا لا بد
ان يترتب على هذا الاتقاد فوران وغليان يوجب تعدد
الطبقات وارتفاع كل طبقة على التي فوقها وان تتخلل بعض
اجزاء الطبقات السفلى بين اجزاء الطبقات العليا ومن ذلك
العظام ونحوها وكان البحث عن هذا الامر في اول الزمن
مجهولاً فكان بعض القدماء اذا رأوا اثر حيوان او نبات اكنفوا
برؤيته ولم يجنوا عن سببه وبعضهم بعده جزء من اجزاء الارض

وبعضهم ينسبه الى ما يشبهه من الحيوانات الا انه كان يخترع له بعض حكايات خرافية واقوال وهمية فينقلها عنهم من ياتي بعدهم ثم من بعدهم وهكذا فمن ذلك ما نقل عنهم وكانوا قد رأوا عظاما يشبه بعض اعضاء الانسان فنسبوه اليه وقدروا له طولاً وعرضاً غير طولله وعرضه المعروفين

واول من تكلم في هذا الفن العالم الشهير الفرنسي المسمى بيرنار باليس وكان في القرن السادس عشر من الميلاد فانف في ذلك كتابا بين فيه ان جميع الاثار النباتية والحيوانية التي توجد خلال الاحجار لم تكن الا بقايا حيوانات واشجار كانت مخلوقة في قيعان البحر ومحلها الان هو الذي كانت خلقت فيه من قدم الزمان ثم اتى من بعد هذا العالم في القرن السابع عشر علماء ايتاليون فافتقوا اثره وقالوا برأيه وصاروا يكتبون كلما رأوه من الاثار وينسبوننها الى اصولها ومن ذلك العهد اتسعت دائرة هذا العلم وكثر اهله ثم انهم اتقسموا قسمين قسم ينسب تكوين الارض الى النار وقسم ينسبه للماء وكل اقام على مذهبه دليلا اسس قواعده واثبت بالبراهين فوائده مع اجماعهم على ان جميع ما يوجد من اثار الحيوانات والنبات كان له اصل في الخلقة وطريق الاستنباط من هذه الاثار طويل لا حاجة لنا به الان فعلى اي حال لولا وجود هذه الاثار واشتغال اهل هذا الفن بها اثناء الليل واطراف النهار لكان هذا العلم الى الان في حيز الاهال كعلم قدماء المصريين فانه بقي زمنا

طويلا لا يلتفت اليه وكان كثير من الناس يظنه مجرد نقش
 وصور ولا يخطر بباله انه من عظيم الاثر الى ان ظهر شامبليون
 الفرنسي فنامل في اصوله وقواعده وظهر الخبأ من فرائده حتى
 وقف على تاريخ المصريين وعلم كثيراً من حوادث الاقدمين
 فكذاك هذا العلم فان العالم الشهير المسمى كوفي الفرنسي ما
 تكلم على تكوين الارض والتقلبات التي استرتها من بدء الخلق الى
 زمنه والتي تعثر بها الى الان الا من تتبعه تلك الاثار وامتحانها
 ونسبتها الى ما يشبهها واما اشتعال المواد وانقادها في تخوم الارض
 فكان الاقدمون يقولون به فوافقهم على ذلك المتأخرون وبنوا ذلك
 على امور منها ازدياد الحرارة كلما تعمق الانسان وتغلغل في جوف
 الارض فانه كلما نزل ثلاثة وثلاثين متراً زادت الحرارة درجة كما
 تقدم ومنها البركان والمياه النابعة من جوف الارض ومنها البخار
 الذي يصعد من جوف الارض في بعض البقاع فهذا كله دليل
 على وجود الحرارة

وبناء على ما قلنا من زيادة الحرارة درجة في كل ثلاثة
 وثلاثين متراً تكون الحرارة في المركز ١٩٥٠٠٠ درجة وعند ذلك
 تكون جميع المواد التي في هذه الدرجة نامة السيلان ويؤخذ مما
 اسلفنا ان الطبقة الظاهرة التي تحدث بتأثير البرودة كانت قبل
 ذلك سائلة بتأثير المواد السائلة والابخرة المحبوسة تحت الارض
 فلما اثرت البرودة في القشرة الظاهرة جمدت المواد المتدفقة المماسية

لها وتنقص حجمها نحو العشرة كما هو شأن كل مائع تجمد
 وحينئذ تكون الطبقة الأرضية التي هي ظرف اوسع من
 مظهرها وربما كان بينه فضاء وقد يمتلأ وإذا حصل في الظرف
 انخفاض وارتفاع تكوّن من على ظاهره ما يسمونه سلاسل الجبال
 وقد يفتح الظرف فتحات فتخرج منها مواد سائلة فترتفع الى الجوّ ثم
 تسقط على سطح الأرض فيكون منها هذه الجبال الشاخنة الموجودة
 في جميع جهات الأرض هذا إذا كانت الفتحات واسعة فان كانت
 ضيقة عادت المواد المقذوفة منها اليها فكان ما يسمونه العروق
 المعدنية او المحرّية وقد يكون الخارج من تلك الفتحات مواد
 معدنية او حجرية فيتخلل منها مواد ملحية او جيرية او غير ذلك فاذا
 اخلطت بالبجارج كان من املاحها ما يسمونه أرض الرسوب فاذا
 نقرر ما ذكرناه من احوال القشرة الأرضية وما يعرض لها علمنا انه
 مغير لصورتها ومبدل لهيئاتها وانه ناقل للبجارج عن مواضعها ولكن
 لا يكون ذلك الاّ بعد مضي ادوار من الزمن طويلة تسكن الأرض
 وتستقر في كل دور منها فتتنقل المواد السائلة منها الى مواضع
 قريبة او بعيدة عنها على اختلاف تأثير الماء قوة وضعفا فاذا استقرت
 كان ما يسمونه الأرض المقولة وما ذكرته لك في بيان اصل
 الجبال والصخور والبركان والعروق المعدنية وتموج الطبقات
 الأرضية وقذف المواد السائلة في باطنها الى ظاهرها وتخلل بعضها
 بين طبقاتها وبيان أرض الرسوب والأرض المقولة انما هو على سبيل

الاختصار والا فالكلام على ذلك بعيد القرار
وقد جعل علماء هذا الفن جميع المواد المذفوفة التي تكونت
منها كرة الارض ثلاث طبقات
الاولى الطبقة التي كانت سائلة ثم جمدت بالبرودة وسموها
الارض المتبلورة
الثانية المواد التي في قرار الجار كالرمال ونحوها وسموها
اراضي الرسوب

الثالثة الاراضي البركانية وتسمى المتبلورة ايضاً الا ان تلك لها
صفات تميزها عن غيرها كالاثار النباتية والحيوانية وهذه تحدث من
تأثير المواد الكامنة تحت الارض وهذه الطبقات الثلاث وان كان
بعضها فوق بعض الا انها ليست على نسبة واحدة والا كانت معرفة
علم تكوين الارض سهلة لا صعوبة فيها اذ يتوالي فعل البراكين
وقذفها بانواع مختلفة في مواضع وازمان متعددة تكون الطبقات
التي تحدث مما يقذف تارة متقطعة وتارة تستحيل الى نوع اراضي
الرسوب ويتبدل النوع بغيره فحينئذ لا بد لكل من اراد ان يقف
على حقيقة اي ارض ان يعرف اولاً ما قيل فيها ومن اي نوع هي
ثم بعد ذلك يحكم عليها

فقال ابن الشيخ بقي عليك امور ذكرتها ولم تات لها ببرهان
قلت ان هناك حرارة مركزية ولم تذكر سببها وهل هي سابقة على
التكوين ام حصلت بعده وذكرت ان البرودة تؤثر في الارض

ونسبت اليها تجمد الطبقة الارضية السطحية حتى حبست بجهدا
المواد الداخلة وانه يحصل في الطرف بواسطة البرودة ارتفاع في
بعض المواضع وانخفاض في بعض اخر فتحدث الوهاد وسلاسل
الجبال ولم تبين اسباب هذه البرودة وكذلك ذكرت المياه ولم
تذكر سبب جريانها هل هو تلك المواد المتذوفة ام غيرها وعلى كل
فاين كانت مواد التكوين قبل وجود الكون

فقال يعقوب لا تعجل عليّ فاني اعلم انك ستسألني عن ذلك
كله وانما اخرت بيانه لضرورة تميم الكلام على المقدمات التي سمعتها
فاذا ثبتت في ذهنك اتبعتها بذكر المقصود من هذا العلم وهو معرفة
مادة الارض وكيف كانت قبل ان تكون بهذه الكيفية واي شي
اثر فيها حتى صارت في هيئتها الحالية وجرت فيها المياه وعمرت
بالانسان والنبات وسائر انواع الحيوانات فاقول لا يخفى عليك مما
تقدم ان درجة حرارة مركز الارض كبيرة جدا لا يقاومها شي ولو
كان في غاية الصلابة فعلى هذا يلزم ان تكون جميع مواد الكون
في ذلك الحين بخارية وان يكون حجمها وقتئذ قدر حجمها جامدة
الفا وثمانائة مرة ولذلك قالوا ان حجمها كان قريبا من حجم
الشمس الذي هو قدر كرة الارض الغامرة ولكن بدوران المادة
الارضية في الفضاء البارد المحيط بها من جميع جهاتها كانت تبرد
بالدريج الى ان انتقلت من الحالة البخارية الى حالة الميوعة ثم الى

الصورة الكروية التي يقبلها كل مائع وتوضح ذلك يعلم من علم
يقال له علم تحريك الاجسام

وحيث كان للارض دورانها حول محورها حركة خاصة
بها يترتب عليها تعاقب الليل والنهار كما هو مذكور عند اهل
هذا العلم حصل لها وقت ان كانت سائلة من الانتفاخ والاستدارة
ما يحصل لاي مائع دار حول محوره بان علت وانتفخت من وسطها
وهو المنطقة المسماة بخط الاستواء وانبسطت وهبطت من طرفيها وهما
المحلان المعروفان بالقطبين فتغير شكلها وبعد ان كانت بخارية
صارت مائعة ولم تؤثر البرودة في جميع المواد بل منها ما بقي على
حالته الاصلية فكان منه جو عظيم السعة له اشعة متشرة في الفضاء
يتحلل منها البخرة الماء والمواد الارضية وانما لم تجدد لان حرارة الجو
في ذلك الزمن كانت شديدة حافظة لبقائها على حالتها البخارية
ولان ضغط الجو على الكرة في ذلك الزمن كان اقوى من ضغطه
عليها الان لنقله بما فيه من البخرة المائية والترابية والمعدنية فلم
تجمد وتندل لشدة الحرارة والضغط وقتئذ ولا شك في ان جميع
البخرة الجو كانت فوق بعضها على حسب ثقلها وخفتها فكان اثقلها
اسفلها وهي الطبقة التي تلي الارض كالابخرة الحديدية والنحاسية
والبلاتينية فكانت هذه الطبقة في غاية الثقل والكثافة وفوقها البخرة
المواد الاقل منها ثقلا وكثافة كالبخرة الاملاح المعدنية والكبريتية
والفسفور وفوق هذه الطبقة البخرة المواد الهوائية الخفيفة العاصفة

كبخار الماء والاكسجين والازوت والاسيد كربونيك وهذه الابخرة كلها وان كانت متفاوتة ثقلا وخفة الا انها كانت دائما في قلب واستحالة من حالة الى حالة فكان يفصل منها تيارات وعواصف فتمزق ما جاورها من الطبقات وتنفذ منها فيكون لها عند ذلك رعد وبرق اعظم مما تسمعه الان وكذلك كرة الارض تتأثر من المواد التي في جوفها فيحدث فيها كذلك تيارات شديدة تدفع تلك المواد الى جهات مختلفة فيتولد منها ما يقال له الكمبرائية فيكون لها عند ذلك من الرعد والبرق والاصوات المختلفة فوق ما تسمعه الان هذا ما كانت عليه الارض والجو في مبدأ امرها وكانت الارض وما يحيط بها سائرة في مدارها في فضاء متسع محيط بها من سائر جهاتها وسبب شدة برودة الفضاء التي كانت بحيث لا تنقص عن مائة درجة تحت الصفر كان كلما تقادم الزمن وقوي تأثيرها على الارض نقصت ميوعتها واخذ ظاهرها في الانجهااد شيئا فشيئا ولم يجهد دفعة واحدة بل في نقط متفرقة وازمنة مختلفة ثم تجمعت وانصلت ببعضها حتى سترت الكرة الملتهبة ويظهر ان تلك الطبقة في ذلك الزمن كانت رقيقة جدا وان كان سمكها الان ثمانية واربعين الف متر لان نسبتها لنصف القطر كواحد من مائة وثلاثين فلرقتها كانت لا تقاوم المواد السائلة داخلها بل تتشقق من بعض المواضع فيخرج من باطنها بعض مواد ترتفع الى الجو ثم تسقط وتجمد فتكون منها الجبال والعروق

التي توجد خلال الارض في كثير من المواضع كالنحاس والتوتيا والانتومان والرصاص وهذه العروق نارة تكون عمودية ونارة تكون مائلة وكثيراً ما تكون على غير انتظام وقد يتفرع من تلك العروق فروع ومن الفروع فروع اخرى الى ما لا نهاية له فمن ذلك يظهر ان السطح الظاهري للارض كان مختلفاً في الاتجاه والارتفاع والانخفاض والسعة والشكل والتضريس وبسبب استمرار التأثير الداخلي عليها كانت دائماً تتغير الى ان وصلت درجة برودة السطح حداً يمكن معه سقوط المواد البخارية من الجو على سطح الارض بصفة الميوعة انما لشدة حرارة الجو كان الماء الساقط منه وقتئذٍ شديد الحرارة ايضاً لان حرارته كانت مائة درجة فاذا نزل ووجد ظاهر الارض شديد الحرارة لم يستقر عليها بل يتصاعد ثانياً ويقطع طبقات الجو الى ان يصل الى الطبقة العليا ويحل في البرودة فيستحيل من الحالة البخارية الى الميوعة وينزل الى سطح الارض ثانياً في هيئة المطر فتحمله حرارة الارض الى بخار ويصعد في الجو ثانياً وهكذا كلما نزل ينقلب بخاراً وكلما صعد ينقلب مائعاً الى ان يبرد سطح الارض فيستقر عليها لان الماء كلما نزل ياخذ جزءاً من حرارتها فاذا برد سطحها استقر عليها ولم يستحل بخاراً ثم لم يزل يزداد حتى عم جميع الارض وتسلطن عليها وتمكن من حبس الحرارة في جوفها وان كانت في بعض الاوقات نتنفس بعض تنفسات فيتغير شكل ظاهرها ومن ذلك الوقت ابتدأت الارض في دور

جديد ومع تسلطن الماء على ظاهرها لم يزل الماء الذي في باطنها شديد الحرارة ولما كانت الطبقة العليا التي هي ظرف لظاهر الأرض مركبة من السليس والاتبوان والبوتاسي والصودا وكانت هذه المواد تتأثر بتأثير الماء والهواء والحرارة حصل لها في تلك المادة استحالآت اوجبت استقرارها في قرار البحار وصار ينفصل منها جواهر دقيقة كالرمل ومواد طينية ومن شدة جريان التيارات المائية كانت تأخذها معها الى مواضع فتتركها فيها فتترسب فتتكوّن منها الأرض التي تسمى بارض الرسوب ومن تأثر المواد الطينية بالحرارة ذابت وتجمعت فلما تعطلت الحرارة بردت فتكوّنت عنها الأرض التي تسمى بالأرض الشيستية اي ذات الصفائح التي منها الاردواز فمن ذلك يعلم ان الأرض الطينية الاردوازية فوق الأرض الطينية وان الأرض في ذلك الزمن كانت عبارة عن جزيرة صغيرة يحيط بها ماء حار من كل جهة وان البحار كان بها طين كثير فرسب بازدياد البرودة وعظم به سمك الطبقة السطحية وان المواد الداخلة كانت تخرج منها فتكوّن جبالاً وصخوراً صوانية وشستية وان البرودة كلما اثرت في الأرض نقص حجمها وتمزق سطحها وخرج منها مواد سائلة فتجهد وتستحيل الى صخور ومياه مزوجة بمواد وان هذه الحوادث تكررت مراراً كثيرة لا يعلم عددها الا خالقها ولهذا نجد في طبقات الأرض الاولى وهي التي تكونت في الدور الاول عروفاً صخرية متقاربة من بعضها وفي خلالها معادن مختلفة واما

الاثار الحيوانية والنباتية فلم يشاهد منها شي خلال الصخور التي امتحنت في الدور الاول ولذلك قالوا ان الارض كانت في تلك المدة مجردة عن النبات والحيوان وهذا هو الظاهر لان الحرارة كانت وقت ذاك شديدة والظلمة مطبقة لكثرة الابخرة المائعة من وصول حرارة الشمس الى الارض فلما نتاع نزول المطر وفتق طبقات الظلمة صفا الجو ودبت البرودة في الارض ووصلت اشعة الشمس اليها ومن ذلك الوقت اخذت في الظهور ولكون الحرارة لم تنعدم بالكلية لم يظهر في ابتداء الامر الا بعض نبات وحيوانات بحرية محارية فكان كلما ضعفت الحرارة كثر النبات والحيوان فكان يظهر منها في كل دور جنس فيمكث ما شاء الله ثم غيره فيمكث كذلك وهكذا الى ان وصلت الحرارة حدًا يمكن معه بقاء نوع الانسان فعند ذلك خلق الله النوع البشري واسكنه الارض ومتع به جميع ما خلق قبله فيها

وقد وجد في الطبقة الطينية آثار حيوان ونبات فاستدلوا بهما على وجود هذين النوعين حين تكوين هذه الطبقة واجمعوا على ان اول ظهور الاجسام الحساسة اي الحيوان والنبات كان في الماء لانه هو الذي اودع فيه سر الحياة ثم اخلفوا في السابق منها والظاهر انه النبات لان ما وجد من اثاره اكثر مما وجد من اثار الحيوان واني وان كنت اطلت عليك الكلام في هذا المقام فما تركته اكثر مما ذكرته ولعلك فهمت معتقد اهل هذا العلم في اصل تكوين

الكرة الارضية الى ان ظهر فيها اصناف المخلوقات واكتست بانواع
الحيوان والنبات

ومن جملة معتقدهم قولهم ان سمك الطبقة التي تجهدت وحجست
المواد السائلة ثمانية واربعون الف متراً وان تكوينها لم يكن دفعة
واحدة بل كان في اربعة ادوار

الدور الاول وجد فيه الصخر والصوان والساق والثاني
والثالث وجد فيها باقي الاحجار والرابع وجدت فيه الارض التي
كانت زمن الطوفان وهي التي نحن بها الان وطريقهم في ذلك كله
الاستكشاف وما عثروا به في خلال الارض من المعادن والاحجار
واثار النبات والحيوان

فقال ابن الشيخ لعل هذا كله مبني على ما فهموا وان كان
الواقع خلاف ما زعموا فان تدبير الكون وابعاده من عالم الخفاء الى
عالم الشهود امر لا يحيط به الا القادر المتفرد بوحدة الوجود والذي
يسعنا في مثل ذلك ان نجعله من جملة الممكن وتباعد عن القطع
فيه بشي مما امكن ولكن لا بأس بعلم ما قيل في هذا الفن سواء
المظنون منه والمتيقن لان معرفة مثل هذه الامور ربما تفيد العلم
بحقيقة الكون في سابق الدهور فالمرجو من فضلكم استيفاء الكلام
على ما قيل في هذه الادوار وكيف كان ثقلها الى ان وصلت الى
الدور الذي وجد فيه الليل والنهار وعلى الارض كيف كانت
ومتى كانت ومن اي شي تكونت وما الذي يتميز به كل دور

عن غيره ولا تؤاخذني فيما عودتني عليه من كثرة السؤال وطلبي
منك الاطنا ب اذا شرعت في اي مجال لان بضاعتي في هذا المعنى
قليلة ومدركتي لفهم مدركاتكم قليلة

فقال يعقوب لا مواخذه ولا لوم وهل نوسمت مني شيئاً من
ذلك في غير هذا اليوم وكيف يكون ذلك مني او يؤثر ما يشعر به
عني أأست بمحسوبكم ولا شغل لي غير خدمة جنابكم وغاية ما أقول
هبوني امرأ ان تحسنوا فهو شاكر

لذلك وان لم تحسنوا فهو صافح
ولكن ارى الوقت لا يسع الكلام في هذا المعنى فقم بنا الى
المجتمع لننظر ما فيه ولا بد ان نعود الى الكلام في هذا الشأن حتى
نستوفيه



المسامرة المحاذية والتسعون

نادرة

وكان المكان الذي جلسا فيه قريباً من الطريق ولكن لاستتاره بالشجر كانوا يرون الناس ولا يرونهم فلم يحصل لابن الشيخ ما كان يحصل له اذا مشى في طرق المدينة حيث كان لا يمر بطريق من طرقها الا رأى الناس قد احناطوا به من كل جهة كما هي عادتهم اذا رأوا غير ابناء جنسهم او احداً تزىي بغير زيمهم ثم قاما ومشيا حتى بلغا المحل الذي عيناه للعربة وكانت واقفة بمجوار فندق دخلاه وكلا فيه وشربا ثم خرجا وسارا الى الجهة التي قصداها فوجدا خلقاً كثيرين مجنبيين في فسحة خارج البلد بها حوانيت من خشب تنقلها اصحابها وتذهب بها اي مذهب ووجدا بالنساء المذكور زحاما كثيراً فنزلا عن العربة ومشيا بطوفان من

جهة الى جهة فلم يجد شيئاً يستغرب وتمنى ابن الشيخ ان لا يكون الى ذاك المحل ذهب خصوصاً لما رآه وسمعه مما يكدر خاطره وينفر طبعه وخشي ان طال المقام ان يحصل له ما يؤذيه او يغير قلب والده عليه فقال ليعتوب ارحل بنا من هذا المكان فاني ما رأيت احداً الاً وظننت انه شيطان فخرجنا مسرعين فرأيا في الطريق محلاً على بابه مكتوب ما معناه من اراد ان يرى اغلظ امرأة على وجه الارض واطول واقصر رجل كذلك فليدخل هذا المكان

فقال ابن الشيخ ليعتوب ادخل بنا هذا المكان لعلنا نجد فيه شيئاً نتروح به وينسينا ما كان فوافقه ودخلاه فوجداه في غاية ما يكون من الاتقان وفيه الكراسي كثيرة مصطفة فجلسا في ناحية منه فظنرا الى صدر المجلس فوجداه خالياً وبجانبه فرجة وعليها ستارة واذا برجل امرد مهول الخلقه مفرط الطول يظهر عليه سن الشباب قد خرج من خلف ستارة ومشى حتى توسط المحل ومعه رجل يقول للحاضرين هذا الرجل من الهند وطوله يزيد عن مترين فقام اليه اطول رجل من الحاضرين ووقف بجانبه فلم يبلغ ثدييه فوقف برهة كاد ان يغشى بها عليه فاخذ بيده الرجل الذي كان معه واجلسه لانه مع صغرسنه وطول قامته لم يكن فيه قوة للحركة اصلاً حتى لو دفعه اي انسان بيده لوقع على الارض ثم خرج رجل اخر متناسب الاعضا رخم الصوت طلق اللسان حسن العبارة خفيف الروح لا يبلغ طوله هنداسة وله لحية فصار يتقصف

ويرقص ويصنع حركات غريبة ويفعل أفعالا تدل على قوة عجيبة
ثم عمد الى فردة من جزمة الرجل الكبير الحجم فدخلها حتى غاب
عن اعين الناس ثم خرج منها وكان ذلك الرجل كلما خاطبه
احد فهم بادنى اشارة واجاب بافصح عبارة ثم جلس بجانب الرجل
الاول وخرجت امرأة لم يرَ اغلظ منها فاخذت تتحرك كأنها ترقص
وتترنم وتعاني خفة الحركة وغلظ الجسم يمنعا وتكلف السرعة وثقل
البنية يدفعها فلما انفص الثلاثة من لعبهم خرج ابن الشيخ ويعقوب
فوجدا بالباب ازدحاما لم يرياه حين دخولها وقد احاط بهما خلق
كثيرون ممن كانوا داخل المحل وخارجه فلم ينفذا من بينهم الا
بغاية المشقة ثم سارا الى ان وصلا العربية فركباها فقال ابن الشيخ
يا عجباً لهذه الامة ويا ليت شعري ما اوجب انكبابهم هذا الانكباب
وازدحامهم علينا حين خروجنا من الباب

فقال يعقوب هكذا دأب الافرنج خصوصاً الفرنسيون فان
لم عناية بكل ما يروونه مخالفاً لعوائدهم ولورأوه الف مرة
فقال ابن الشيخ ويا ليتهم اقتصروا على النظر من بعد ولم تمتد
الى ثيابي منهم يد بل كان بعضهم يقبض عليها ويتأمل فيها وبعضهم
يقبضها ظهراً لبطن كانه يشتريها فكنت اتغافل واغض بصري
واتجاهل خوفاً من النزاع والخصومة

فقال يعقوب ان غالب ما رأيت من اهل الريف وسكان
البادية فتجد عقولهم قاصرة وحماقتهم من غير سبب ظاهرة وقد

احسنت فيما فعلت فانك لو خاطبتهم لم تأمن شرهم وربما كان
يترب على ذلك اكثر ما رأيت

فقال ابن الشيخ حاش ان يكون اهل ريف مصر كذلك
فانك لا تراهم الا مشغولين بامرانفسهم ولورأوا غريباً ببلادهم ولو
كان زيه مخالفا لزيهم لا يمعنون النظر اليه وان نظروا اليه نظروا
نظر اخلاص بحيث لا يدركه الا قليل من الناس

فقال يعقوب هكذا اقتضت حكمة الملك الديان وانت تعلم
انه ليس في الامكان ابداع ما كان أنسيت نصيحة والدك وهو آخذ
بيدك ويقول لك يا بني ما نازعني احد في امر الا اخذت في امره
بثلاث ان كان فوقني عرفت له فضله وان كان دوني رفعت قدري
عن منازعته وان كان مثلي تفضلت عليه فلاحسن ان تصفح صفح
الكرام وان لا تضيع وقتنا في تتبع عثرات اولئك الاقوام فاخبرني
عن اي الثلاثة الذين رأيتهم كان عندك اغرب

فقال ابن الشيخ اما بالنسبة لمن خلق الذر وفصل له اعضاء
وجعل لبعض الدود اسنانا كالمقاريض بل امضى وخلق الانسان
من نطفة ثم من علة واخرج من جوف الصخرة السماء اضعف
حيوان ورزقه فلا غرابة ولا عجب

واما بالنسبة لعوائد الخلقه فالقصير احق بالاستغراب واولى
لان الرجل الطويل وان كان غريباً في خلقته وطول قامته وعدم
قوته لا يساوي الرجل القصير في ذلك فانه مع فصاحته وطلاقة

لسانه تراه قد بلغ من القصر الغاية ونخافة الجسم النهاية ولكن لا ادري هل هو من الفرنسيين ام من غيرهم وهل سنه على قدر جسمه ام لا

فقال يعقوب انك لو التقيت بالك الى كلامه حين خروجه لعرفت منبته واصل لسانه وقدر عمره وما كان من امره فانه ذكر عند خروجه انه رجل من جزيرة بالبحر المحيط الجنوبي وان عمره تسع وثلاثون سنة وانه اقام ببلاد الانكليز وفرنسا مدة وساح باكثر بلاد اوربا ولذلك كان يتكلم مع كل انسان بلغته فقال ابن الشيخ ما اظن خلقا بهذه الصفة الا ان يكون من ذرية ياجوج وماجوج فان منهم على ما قيل من طوله شبر ومن طوله شبران وغايته ثلاثة اشبار فقال يعقوب وما ياجوج وماجوج واين موضعهم من الارض فقال ابن الشيخ هم جيل من اولاد ادم وموضعهم خلف السد الذي بناه الاسكندر ذو القرنين وذلك انه لما وصل في سيرة الى مغرب الشمس عند جبل ارمينية واذربيجان وجد هناك قوماً فشكوا له منهم وجعلوا له جعلاً على ان يجعل بينهم وبين ياجوج وماجوج سداً فضربه على احدى وعشرين قبيلة وبقيت منهم داخل السد قبيلة واحدة فقال يعقوب لا مانع من ذلك ولكن الذي اعلمه واطلعت عليه في كتب التاريخ ان اللابونيين والسمويد كلهم قصار ولعلمها

خاصة في هواء قطرهم وطبيعة أرضهم وإن الملوك في الزمن
السابق كانت تتخذهم اضحوكة لهم ويغدقون على من اتى اليهم
بواحد منهم حتى قيل ان اهل المشرق لما علموا ان سبب الرغبة
فيهم حقارة جسمهم استعملوا طرقاً تمنع الطول فكثروا فكان
الرومانيون يجمعون منهم في اوقات سرورهم ويغرون بينهم حتى
يقتل بعضهم بعضاً ثم عزو وجودهم في القرون الوسطى وقد كانت
الامراء تستعملهم في البريد لتوصيل الاخبار وذكر المؤرخون انه
وجد في القرن السابع من الميلاد رجل لم يبلغ طوله ثلثي ذراع
معماري فعندي ان كل من كان من هذا القبيل فهو من ذاك
الجيل

المسامرة النائية والتسعون

الجمعية المشرقية

وبينا هما في الحديث لم يشعرا الا وهما داخل المدينة فسارا حتى وصلا محل الشيخ فنزلا عن العربية ودخلا عليه فوجدا عنده صاحبه الانكليزي فبدأ ابن الشيخ بتقيل يد والده ثم تحوّل للانكليزي فصاحه وقعد بجانبه وكان قد حان وقت ذهابهم الى منزل رئيس الجمعية فقال الانكليزي لابن الشيخ هي نفسك فانا منوجهون هذه الساعة فقال ابن الشيخ ان اذن الوالد فسمعا وطاعة ثم انهم قاموا جميعا وركبوا العربية وسارت بهم حتى وصلوا منزل رئيس الجمعية فقابلهم بغاية الاحترام وحياءهم تحية الكرام وكان بالمجلس جماعة من مشاهير العلماء ورجال الجمعية المشرقية ووجوه الامراء فاخذ رئيس الجمعية بيد الشيخ حتى اجلسه وقعد بجانبه

وأنسه وكان بالمجلس مع صاحبة المنزل نساء كثيرة فقعد الجميع
يتجاذبون اطراف الحديث الى ان حان وقت الطعام فقاموا جميعا
واخذ كل واحد منهم بيد امرأة وجاءت صاحبة المنزل الى الشيخ
واخذت بيده فتبعها ومشى معها حتي دخلت به محل الطعام
فجلست والشيخ عن يمينها وصاحبه الانكليزي عن يسارها وجلس
صاحب المنزل في الصف الثاني وابن الشيخ عن يمينه وجلس
الباقيون في مواضعهم التي رسمت لهم فاكلوا ثم رجعوا الى محل
الجلوس كل ذلك وهم محنفون بالشيخ اخفاف الهالة بالتمر ومحنفون
به اخفاهم بملك مطاع فيما امر وكان كل من خطر بباله شي يتعلق
بفن العربية تلتف في ابدائه فيجيبه الشيخ بجواب لا يحوم حوله من
عداه فيعجبون من بلاغة عبارته وعذوبة لفظه وجودة حفظه



المسامرة الثالثة والتسعون

الفرنسيس في مصر

وكان بالمجلس رجل فرنساوي ممن توجه مع نابليون الى مصر وشهد وقعته باهلها وانتشار رجاله في اعمالها واطلع على ما كان من امرائها قبل توجه الفرنسيين اليها فظهر للشيخ من اطراف كلام ذلك الرجل حبه للمصريين وميله للعائلة المحمدية فقال له اكنت بمصر ايام حوادثها مع الفرنسيين فقال وقبل ذلك ايضاً فقال الشيخ اني لا اتحقق ذلك لصغر سني اذ ذاك وغاية ما اتخيله اني كنت ارى والدي في تلك الايام كل ما دخل وخرج يقول لوالدي ماذا ترين في هذا الحرج العرب في البادية تنهب والماليك تفسد وتخرب والفرنج في الطرق تقتل وتسلب فمن فر من قوم وقع في يد اخرين ونحو ذلك من الكلام الذي يخيف

الابطال ويزعج النساء والاطفال مع اني اعلم طبع المرحوم في تجلده
وتجملده بين اهل بلده فما اضطره الى بث هذه الشكوى الافضاة
ما رآه من عموم البلوى

فقال له ذلك الرجل لو بحثت عن اصل ذلك كله لوجدته
من المالك الذين جعلوا مصر غنيمة لهم وقسموا ارضها وقراها بينهم
فانهم كانوا يجزبون الاهالي والعرب علينا ويجذرونهم منا بقولهم انه
لا غرض للفرنج من بلادكم الا سلب اموالكم وهتك اعراضكم وصرفكم
عن دينكم ونحو ذلك من المنفريات مع ان الفرنج كانوا بريئين من
ذلك كله لا غرض لهم الا اصلاح الحال وانتاذ الناس من ورطة
هولاء الجهال فلو قدر وبقينا بارض مصر الى الان لكان خيراً لم
ولكن من سوء حظ المصريين انه حدث بقطرنا بعض حوادث
ترتب عليها عود رئيسنا بونابرت الى البلاد فخرجنا منها بعد ان
غذيهاها بفلذ اكبادنا ورشحنهاها بدم اولادنا ومع ذلك فقد رسمنا لهم
بها قوانين جليلة واثاراً عامة النفع جميلة يرجى منها الخير ويتقى بها
الضير كالترعة المالحمة والحلوة والفتايط الخيرية والمطابع وتقسيم مصر
الى اخطاط لكل خط حاكم وعسس بطوف فيه ليلاً ونهاراً يمنعون
الشُرور واهل الفساد ويحشون على كس الطرق والشوارع
وتنظيفها ومن محاسن مبدعاتنا الامر بتعليق قناديل على ابواب
البيوت والوكايل والخانات فكان احكام الاخطاط يطوفون بالليل
فاذا وجدوا بيتا او خاناً ليس على بابه قنديل سمروه للمحافظة على

ما فيه فاذا طلع النهار اتوا بصاحبه فيجازونه على حسب ما يرون
ومنها انشاء استباليه لعلاج المرضى جمع لها من الاطبا والادوية
ما يلزم لكل داء وهي فيما بين القاهرة ومصر تسمونها بالقصر العيني
ومنها الكورنيتينات وتعين محلاتها في كل مدينة وغير ذلك من
الاعمال التي لو لم تشتغل بها افكارنا ما كانت خطرت لهم على بال
لان شان المصريين بل سائر المشرقين الاقتصار على حفظ القرآن
ومعرفة بعض امور دينية يقفون عندها ولا يتعدون حدودها ولا
يغوصون في معاني الكتب واسرارها وكذلك حكاهم وكان من
يلي امرهم من المالك ونحوهم لا همة لهم الا تحلية سروج الخيل
والاكباب على الملاهي طول الليل ولبس السراويل الواسعة الذيل
والاكنار من الخدم والغلمان واستتباع ذوي الوجوه الحسنان وهذا
كله ربما كان مانعا من تصرف العقل وزيادة الفكر خصوصا وهم
مقتصرون في التفكير في القرآن على ما يظهر من مبانيه ما بين
الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والحث على الزهد في الدنيا
ولذتها والتحذير من التوسيع فيها والاغترار بزهرتها ونحو ذلك مما
تحاف منه القلوب ويزهد من تأمله في كل شي محبوب في الدنيا
ومطلوب حتى يبيع الحاضر بالغائب ويعود نفسه على الرضى بكل
ما حل بها من المصائب ويذهل عما فيه صلاح معاشه ويهجر
اسباب ثروته وانتعاشه

فقال له الشيخ اما ما ذكرت من نسبة ما وقع بين المصريين

والفرنسيس للمالِك فمن المعلوم ان المدافعة عن الوطن في ذلك الوقت كانت واجبة على العموم لا فرق فيها بين مالِك ومملوك وشريف وصعلوك وعلى فرض ان الاهالي انما قاموا تبعاً لراي حكامهم الذين هم امراءهم فهل فعلوا غير ما يلزمهم

فقال الانكليزي ان ما يقول الشيخ حق فان ميل الانسان الى اهل ملته وديانته امر فطري ألا ترى ان اهل باريز لم يفتحوا ابواب المدينة للملك هنري الرابع الا بعد ان رجع عن المذهب البروتستاني الى مذهبهم مع انه من بيت الملك والجميع فرنساوي واصل الدين واحد

فقال الشيخ من هنا يعلم ان لا لوم على المصريين في امتناعهم من الخضوع للفرنساوية والدخول تحت طاعتهم بحسب الميل الطبيعي من عدم الرضى بحكم من خالفهم في الدين والجنس وترك من هم معهم على ملة واحدة وعوائدهم وقوانينهم في الاحكام متحدة فقال له ذلك الرجل الشيخ كل ذلك معقول ومقبول الا ان الفرنسيين لما دخلوا مصر لم يحدثوا بين المسلمين بدعة على غير رأي امراءهم وعلمائهم بل ما فعلوا فعلاً الا بمشورتهم واخذ رأيهم كما يعلم ذلك من المنشورات التي عليها امارات رضاهم واستحسانهم فكانوا معينين لذلك جملة من اكابرهم اهل الحل والعقد منهم الشيخ خليل البكري تقيب الاشراف والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد الامير

وغيرهم فيونابرت رئيس الجيوش مع علو همته وسعة باعه وإطلاعه
 وحسن إدارته وسياسته لم يستقل في مصر بارائه ولم يكل حكم
 البلاد الى امرائه بل انتخب جملة من كبار علماء المصريين واعيان
 تجارها المعتبرين وفتح لهم دواوين وضم اليهم مترجمين ورتب لهم
 مرتبات واغدى عليهم بالعلوفات وفوض الحكم اليهم وعول في
 حل كل مشكلة عليهم وبالجملية لم يفعل ما يخل بشرفكم ولا ما
 يضر بقطركم وانظر الى ما حصل منه لما تغلب على جزيرة مالطة
 ووجد بها اسرى كثيرين من اهل الاسلام فانه اطلقهم وجهزم
 وارسلهم محفوظين الى بلادهم واعلن ان لا يؤخذ احد من اهل
 الاسلام من بعدهم اسيراً وقبل وصول جيشه الى مصر ارسل
 يحذرهم عن الفساد والتعرض لشي مما بايدي اهل تلك البلاد
 ويقول لهم ما معناه انكم ستدخلون مصر آمنين مظفرين منصورين
 وتهزمون حكامها المتحدين مع الانكليز فقد قطعوا على تجارنا السبيل
 وبالغوا في ظلم اهل وادي النيل واعلموا ان الامة التي تقصدونها
 امة محمدية وكلمتهم التي ينبي عليها امر دينهم لا اله الا الله محمد
 رسول الله فايكم ان تغيروها عليهم او تصرفوهم عن قوازينهم وعليكم
 ان تكرموا ائمتهم وقضاةهم ولا تحدثوا شيئاً في مساجدهم وجوامعهم
 واعلموا ان عوائد بلادهم ليست كعوائد بلادكم فينبغي ان تستأنسوا
 باهلها وتطبعوا بطباعهم واياكم ان يدخل احد منكم دار احد او
 يتعرض لامرأة فان ذلك عندهم منكر فمن فعل ذلك منكم حل به

البأس وعد من ارادل الناس واول بلدة تنزلون بها الاسكندرية
 وسجدون بها من اثار من اسسها ما يروق بالكم به ويقطع عن
 التعلق ببلادكم امالككم وما كفاه هذا التشديد وما انذرهم به من
 الوعيد بل صدر منه منشور يقتل من قطع السبيل من العسكر
 او فعل شيئاً من المنكر او غصب من احد شيئاً ولو درهما ثم جمع
 ضباط العساكر والالايات وضمنهم ذلك كله وهكذا كانت افعاله
 واقواله كلها فلم يكن مراده مجرد التغلب واشهار نفسه بالحرب بل
 كان جل غرضه وغاية امله ان يكون الناس كلهم في امان
 ورفاهية حال وان لا يتعرض احد لاحد في عرض ولا مال

وكان وصول بونابرت بجيوشه الى ثغر اسكندرية لخمسة عشر
 يوماً من المحرم سنة الف ومائتين وثلاثة عشر هجرية الموافق لشهر
 حزيران سنة الف وسبعائة وثمانية وتسعين ميلادية فلما دخل
 اسكندرية جمع علمائها واعيانها وانتخب منهم سبعة فقدم زمام
 الاحكام وما تحتاج اليه البلدة من النظام منهم الشيخ محمد المسيري
 والسيد محمد كريم وقال لهم على مقتضى الحرية لا يلي الحكم الا
 عقلاء الرعية لان جميع المخلوق سواء في العدل والحكم بالحق وقبل
 خروجه من اسكندرية الى مصر عمل دستوراً يتضمن جميع ما مر
 وزيادة كما هو مبين في تاريخهم وكان قد احضر معه من
 الروسية مطابع تطبع باللغة الفرنسية والعربية فطبع عدة فرمانات
 وفرقها بالديار المصرية ثم شرع في ترتيب ديوان فجمع له ستين

شخصاً منهم أربعة عشر يقال لهم المجلس الخصوصي والباقيون يقال لهم الديوان العمومي كل ذلك اظهراً للعدل ورفقاً بالرعية

فقال الشيخ جميع هذا صحيح مسلم غير انه لا يخفى ان زمن الحروب عادة يكون زمن شدة على الناس وما يقع فيه من المصائب يكون غالباً على غير رضى الروساء وقد تقع امور فظيعة توجب تنفير الطباع مثلاً تخريب المساجد وانتهاك حرمانها وقهر العلماء وتحريم التجار كل ذلك قد وقع بمصر مدة هذه الحرب مع نهي بونابرت عنه فكان داعياً لنفرة الاهالي

واما كتابة المشايخ الى الاقاليم بالمسالمة فذلك امر واجب عليهم لحقن دماء الناس لما راوا من قيام العربان واهل الفساد وكثرة القتل والسلب والنهب وضرورة ان الاحكام كانت قد تغيرت والناس كانوا مضطربين لم يعودوا على الحكم الجديد والتبس الفساد بالمصلح فقصده العلماء نسكين الفتن وحفظ الانفس والاموال وبالجمله فلم يكن للمصريين داع الى النفرة عن احكام الفرنسيين غير المحبة الدينية مع ما حصل من الشدائد التي جرت العادة بحصولها في زمن الحروب وتجديد الاحكام

ثم ان الرجل الفرنسي انصرف من بينهم وقام كل في محل استراحته فقال ان الشيخ لا يبه قد استفدت من ذلك المجلس ان الفرنسيين سبق لهم انهم استولوا على مصر وما كنت اظن ذلك ولا خطر بيالي فقال يا بني قد استولوا عليها وحكموا فيها وامروا ونهوا

وفعلوا فيها الافاعيل لولا ان الله خلاصها منهم فقال وما كانت احكامهم فيها وقوانينهم وكيف كانت وقائعهم في فتح البلاد وقهر العباد

فقال الشيخ يا بني اني كنت وقت حلول الجيش الفرنسي بمصر صغيراً لا اعني ما يقال ولا ما يفعل ولكني منذ هاجرت من بلدي الى مصر لطلب العلم كنت اسمع بما كان من الفرنسيين فكنت كلما سمعت عنهم شيئاً قيدته حتى جمعت من ذلك كتاباً وجلدته

فن احكامهم انهم ضربوا على الاملاك والعقار ضرائب فجعلوا على الاعلى ثمانية ريات فرانسا والوسط ستة والادنى ثلاثة وضربوا على المعاصر والسيارج والوكائل والخانات فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين ومنها ما جعلوا عليه اربعين كل على حسبه وكتبوا بذلك مناشير على عاداتهم ولصقوها في مفارق الطرق وارسلوا منها نسخاً للاعبان وعينوا المهندسين لتمييز الاعلى من الادنى وبالغوا في الضبط والاحصاء وتقييد الاسماء فضاق بالخلق الفضاء ومنهم من استسلم للقضاء ولم تدبر العوام في العواقب فانتبذ منهم جماعة وتناجوا فيما بينهم ووافقهم من المتعمدين من لم ينظر في عواقب الامور ولم يتفكر انه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم فقاموا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وبرزوا السلاح والاف الحرب والكفاح وهدموا مصاطب

المحاونيت وجعلوا احجارها متاريس في عدة جهات وثرسوا بها فلما رأى الفرنسيس منهم ذلك تحيزوا الى القلاع وكان كبيرهم ارسل الى المشائخ فلم يجيبوه فامر بضرب المدافع والبونيات على البيوت والحارات وتعمدوا على الخصوص الجامع الازهر وحرروا عليه المدافع والقنبر فلما سقط عليهم ذلك نادوا ياخفي الالطاف نجنا ما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع الرمي من القلعة والكبان حتى تزعزعت الاركان وهدمت الدور وسقطت بعض القصور وخرب كثير من البيوت والوكائل وعظم الخطب واشتد الكرب فركب المشائخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل فعاتبهم في التاخير واتهمم بالتقصير فاعندروا له فقبل منهم ثم بعد هجعة من الليل دخل الفرنسيس المدينة ومروا في الازقة والشوارع من غير معارض ولا ممانع وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخلوا الجامع الازهر بالنعال والسلاح وربطوا خيولهم بصحنه ومقصورته وكسروا قناديله وسهارته وهشموا خزائن الخدمة والمجاورين واخذوا ما وجدوه به من الكتب والمتاع بل طرحوا نفائس الكتب في ميسأته واتلفوا الوفا من مجلدات مؤلفاته ثم قرروا على الناس فردة اخرى قدرها مائة وستة وثمانون الف ريال فرانس مع ان الناس ما أدوا الفردة الاولى حتى قاسوا فيها من الشدة ما لا يوصف ومات اكثرهم في الحبوس وتحت العقوبة ومنهم من هرب وخرج

على وجهه فجعلوا على العقار والدور مائة ألف ريال فرانسا وعلى ارباب
الحرف المستورين ستين ألفا وقسموا البلد ثمانية اخطاط وجعلوا
على كل خط خمسة وعشرين ألفا ووكلوا ذلك الى مشايخ الحارات
ومن كان ساكنا بتلك الاخطاط من الامراء مثل المحتسب بجهة
الحنفي وعمر شاه وسويقة السباعين وضرب الحجر ومثل زين الفقار
جهة المشهد الحسيني وخان الخليلي والغورية والصنادقية والاشرفية
ومثل حسن كاشف جهة الصليبية والخليفة وما في ضمن تلك
الجهات من العطف فجعلوها على ثلاث ثمر فعلى النمرة الاولى ستون
ريالا وعلى الثانية اربعون وعلى الثالثة عشرون والزموا المستأجر
بدفع مقدار ما يدفع المالك والدار التي لا يجدون لها صاحباً
يأخذون ما عليها من جيرانها ثم نادوا ان كل من لا يدفع ما
عليه بعد اثنين وثلاثين يوماً من المناداة تنهب داره ويحاط بموجوده
وتنبعوا نهب الدور بادنى شبهة ولم يوجد لهم شفيع تقبل شفاعته ولا
متكلم تسمع كلمته واحتجب كبير الفرنسيين عن الناس وامتنع من
مقابلة المسلمين وكذلك قلده عظماءهم وزاد ان عينوا لجمع تلك
الاموال رجلا قبطيا يسمى شكر الله فنزل بالناس منه بلاء شديد
فكان يمشي وصحبته عسكر من الفرنسيين وجماعة من الفعلة بايديهم
آلة للهدم فاذا دخل داراً ولم يدفع له صاحبها ما عليه امرهم بهدمها
واقبح شي ما فعله باهل بولاق فانه كان يجبس الرجال مع النساء
ويدخن عليهم بالثطن والكتان ثم فعل باهل مصر كذلك كل

ذلك في شهر واحد وفي آخره قاموا دفعة واحدة على جميع الخانات والوكائل فحسبوا عليها ثم صاروا يفتحونها واحداً واحداً وياخذون ما فيها فيقومونه بالبخس الاثمان فان بقي لهم شي من الغرامة اخذوه من جاره وان زاد شي احوالوا صاحبه على جاره وهكذا حتى اخلوا جميع الخانات والوكائل من البضائع واخذوها واربابها ينظرون وكانوا اذا فتحوا خاناً او دكاناً ووجدوا به اشياء ثمينة او صرة فيها دراهم او دنانير اخذها امناءهم ووكلاؤهم بحضرة صاحبها وفي ذلك الشهر بعينه حرروا دفاتر العشور فاحصوا جميع الاشياء جليلها وحقيرها ورتبوها بدفاتر وجعلوها اقلاما يتقلد من يتعهد بدفع ما وضع عليها وجعلوا جامع الازك الذي بالازبكية سوقاً للمزايدة في تلك الاقلام فكان يجتمع الاثنان فاكثر في قلم واحد وربما تعهد الشخص الواحد باقلام متعددة ثم شرعوا في هدم الحسينية وما خرج عن باب الفتوح وباب النصر من الدروب والحارات والمساجد والحمامات والحوانيت والاضرحة فكانوا اذا دهموا داراً لهدمها لا يميكون اهلها من نقل ما بها ولا اخذ شي من انتقاضها فينبونها ويهدمونها وينقلون الانتقاض النافعة من البلاط والخشب الى عماراتهم وانبتهم وما بقي من كسارات الخشب تجعله الفعلة حزماً ويبعونه على الناس باغلى ثمن لعزة حطب الوقود وقت ذاك فتلف للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره كل ذلك مع مطالبتهم بما تقرر على املاكهم ودورهم من الفرضة فكان يجتمع على

الشخص الواحد في الوقت الواحد النهب والهدم والمطالبة بالفرضة
وكان لهم في المطالبة بالفرضة امور قيحية ولما قسموا الاخطاط على
الامراء ومشائخ الحارات ضموا اليها اعوانا والزموا كل امير ومشائخ
حارات خطه بما خصه من الغرامة فكانوا اول ما يجتمعون
بديوانهم تبتدى الكتبة بكتابة التنبيهات وهي اوراق صغيرة باسم
الشخص والقدر الذي عليه وعلى عقاره وعلى هامش الورقة حق
طريق الحامل لها ثم يدفعون الى كل واحد من اولئك الاعوان
جملة من تلك الاوراق فلا يفتح الاسان عينه الا والمعين واقف
على بابه ويبدى ذلك التنبيه فيعده بالوفاء فاذا قبل عذره لا يفارقه
حتى ياخذ منه حق الطريق وما يفارقه الا وقد اتاه معين اخر
بتنبيه اخر فيفعل معه كما فعل الاول فاذا سعى الانسان جهده
حتى ادى ما عليه وظن انه تخلص من ذلك فحالا يجد خلفه معينا
اخر ومعه تنبيه جديد فيقول له ما هذا فيقول ان الفرضة لم تكمل
وقد جعلنا على كل عشرة خمسة او ثلاثة او ما سولت لهم انفسهم
وهكذا من الغرامات التي هي اشد من الدواهي

ومنها انهم قرروا على مشائخ البلاد مقررات يقومون بدفعها
في كل سنة زيادة على الخراج وجعلوا البلاد اعلى وهي ما كان طينها
الف فدان فاكثر واوسط وهي ما كان طينها من ٥٠٠ فدان
الى ما دون الالف وادنى وهي ما كان طينها دون الخمسمائة
فجعلوا على الاعلى خمسمائة ريال وعلى الاوسط ثلثمائة وعلى

الدون مائة وخمسين واستملوا اسماء البلاد والكفور من القبط
فاملوها عليهم حتى الكفور التي خربت من مدة سنين فرموا
اسماء من غير مسميات ثم امروا بتوزيع مليون على ارباب الصنائع
والحرف وهو مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا وان يدفعوها
على ثلاثة اقساط كل اربعة اشهر ثلثها

هذا أنموذج ما كان منهم بمصر

فقال ابنه وما منعك البارحة في مجلس المحاورة ان تذكر لهم
هذه الافاعيل التي صدرت منهم

فقال الشيخ يابني اي فائدة في ذكر ذلك الا المنافسة والمنافسة
خصوصا ونحن بين اظهرهم وقد قالوا

ودارهم ما دمت في دارهم * وحيهم ما دمت في حيهم
وقيل ايضا

ودارهم في دارهم وحيهم * في حيهم وأرضهم في أرضهم
لا سيما وهم عارفون بجميع ذلك فلا فائدة في حكايته الا
تغير النفوس ومن يتأمل فيما كان يصدر منهم مما ظاهره العدل
والاصلاح يجد انه لا يخلو من دسيسة ومكيدة لتحصيل اغراضهم
مثلا اطلاقهم الاسارى المسلمين الذين وجدوهم بالاطة فلما هي
مكيدة من مكائد الحرب وذلك انهم حين وصولهم الى ثغر الاسكندرية
كتبوا كتباً وارسلوها الى البلاد التي هم قادمون عليها تطيئنا لهم
لئلا يتهربوا ويحاربوهم فاهومهم انهم قادمون من قبل السلطان

وارسلوا هذه الكتب مع هؤلاء الاسارى وارسلوا بصحبهم جواسيس من مالطة يعرفون اللغة العربية ويتكلمون بلغة المغاربة فلم يمتازوا عن اسارى المسلمين فلما وصلوا الى مصر صار الجواسيس الذين ارسلوهم يوسوسون للناس ويشبطونهم ويحلقون عزائمهم عن القتال فكانت هذه ايضا مكيدة من مكائد الحرب فلما قامت الحرب بين المسلمين والفرنسيس خفي اكثر الاسرى ولم يدر اين ذهبوا وما ذهبوا في الحقيقة الا الى جيش الفرنسيس ليخبروهم بما سمعوه وما شاهدوه من المسلمين

ومن افاعيلهم انهم حسبوا بعض العلماء فما اطلقوهم حتى بلغهم مجيئ الوزير الاعظم بجيوشه فخرجوا من غير منازعة ولا معارضة وعمل بينهم وبين الجيش العثماني والانكليزي شروط مفصلة هي وجميع وقائعهم بمصر في بطون التواريخ وقد انتقضت تلك السنون واهلها وتلك الايام نداولها بين الناس هكذا عادة الله في خلقه لا معتب لحكمه ولم يطلعنا على حكمه فكم سلط اقواما على اخرين كما دلت عليه كتب الاول وقد يسلط الفجار على الابرار وله في ذلك حكم واسرار وكان خروج الفرنسيس من ديار مصر في شهر الله المحرم سنة ١٢١٦

المسامرة الرابعة والتسعون

العقائد

وفي اليوم الثاني بعد طلوع الشمس دخل الانكليزي عند الشيخ وجلس بعد ان ادى واجبات التحية ثم قال ايها الشيخ قد عنّ لي من مجلس البارحة ان اسألك عن مسألة خطرت ببالي فقال الشيخ ما هي فقال يؤخذ من الكلام السابق ان بين المسلمين والنصارى عداوة مع انا نسمع في كتابكم آية تدل على خلاف ذلك قال الشيخ اي آية قال لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مؤدّة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى (الاية)

فقال الشيخ صدق الله العظيم في كلامه القديم فقد قال المفسرون كالنخعي الرازي وغيره في تفسير هذه الاية ان مذهب

اليهود انه يجب عليهم ايصال الشر الى من يخالفهم في الدين باي طريق كان فان قدروا على القتل فذاك والا فبغصب المال او السرقة او بنوع من المكر والكيد والحيلة وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال ما خلا يهوديان بمسلم الا هما يقتله

واما النصارى فليس مذهبهم ذلك بل الايذاء في دينهم حرام كما في دين الاسلام وايضاً فان اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا كما هو مشاهد فيهم والحرص معدن الاخلاق الذميمة فان كل من كان حريصاً على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا واقدم على ارتكاب كل محذور لطلب الدنيا فلا جرم ان تشتد عداوته لكل من نال مالا او جاها بخلاف النصارى فانهم في اكثر احوالهم معرضون عن الدنيا زاهدون فيها مقبلون على العبادة تاركون حب الرئاسة والتكبر وكل من كان كذلك فلا يحسد الناس ولا يؤذيهم ولا يخاصهم بل يكون لين العريكة سهل الانقياد للحق قريباً الى قبوله كما قال تعالى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون الى اخر الآيات فهذا هو معنى مودتهم للمسلمين واما الديانة فالتقدير مشترك بينهم وبين اليهود في مخالفة المسلمين بل اليهود يخالفون في الالهيات فقط والنصارى يخالفون في الالهيات والنبوات

فقال الانكليزي ان ما نقول ايها الشيخ حق فان النصارى كانت صفاتهم حميدة كما ذكرت لكن الان دخلت فيهم اصداد

تلك الصفات وتشعبت مذاهبهم واعتقاداتهم وجرت بينهم العداوة
والبغضاء ولم فلسفة قيحة ومقالات شنيعة في الدبانات والرسل
والكتب السماوية

فقال الشيخ نعم يظهر بعض ذلك على وجه الرجل الفرنسي
الذي كان معنا البارحة

فقال الانكليزي هذا الرجل من ضمن الفلاسفة المتعمقين وله
كتاب عمله في الاعتقادات وقد قرأت منه جملة وافرة فوجدته
يذكر فيها يتعلق بالادبان ان جميع الملل مستمدة من منبع واحد
وان بينها اشتراكا في القضايا الاساسية كالتوحيد فدين الاسلام
مستمد من دين اليهود من حيث الاصول فقط بخلاف دين
النصارى فمستمد من دين اليهود من حيث الاصول والفروع
معاً فدين النصارى مبني على دين اليهودية كما تبنى الدور والقصور
على قواعدهم فينهدم دين النصرانية بعدم تمسكهم بكتب اليهود ومع
ذلك فهو لا يعترف بوجود موسى بن عمران ويستدل على نفيه
بعدم ذكره في كتب بني اسرائيل ويقول ان نبي الله داود وابنه
سليمان وارميا واسعيا جميعا سكنوا عن ذكره واحكام بعضهم مناقض
لاحكامه مثلاً قول موسى ان الله يعاقب الابناء بظلم الاباء الى
الجبل الرابع يخالفه قول حزقيال ان الابناء لا يعاقبون بظلم ابائهم
ويقول ان ما يعزى الى موسى من الاحكام هو ما يعزوه الهنود الى
نبي يسمى بنجوس وجميع ما اثبت لموسى ثابت لبنجوس فانه ولد بمصر

والتي في النيل وترى في جبل ببلاد العرب واوحى اليه بالرسالة الى امة متبررة وعبر البحر الاحمر بانفلاق البحر له ولم يتل قدمه واخاآت من جبينه اشعة الانوار الا ان بخوس لما ضرب بعصاه الارض لم تنبع عين ماء كما حصل لموسى في ضربه الحجر بل نبعت عين نبذ وكانت عصاه ذات حربة مزينة باغصان العنب

وقد زعم علماء اوروبا ان بخوس سابق على تاريخ موسى فيمكن ان كلمة موسى جعلت علامة على امر كان في تلك الازمان كما استعملوا كلمة اوميروس الشاعر اليوناني في الجاهلية للدلالة على بعض الحوادث العظيمة

ويقول ان التوراة كتاب مؤلف وليس من الكتب السماوية متكئا في ذلك على قول ماري اغسطس انه لا يصح بقاء الاصحاحات الثلاثة الاولى على ما هي عليه وعلى قول اوريجين بان ما في التوراة مما يتعلق بخلق العالم امور خرافية بدليل ان كلمة براه العبرانية وهي يفتح الباء وشد الراء وسكون الهاء معناه رتب ونظم ولا يرتب احد شيئا وينظمه الا اذا كان موجودا من قبل فاستعمال هذه الكلمة في خلق العالم تقتضي ان مادة العالم كانت موجودة من قبل فتكون ازلية ويكون ملازمها وهو الزمان والمكان ازميين وحيث انهم قالوا ان المادة ذات حياة فتكون الروح ايضا ازلية لانها هي التي بها الحياة وبما ان المادة هي النور والحرارة والقوة والحركة والمجذب والتوازن فتكون الحياة والمادة كالشي

الواحد لا يمكن انفصالهما وجميع ذلك يخالف ما في التوراة
ويقول أيضاً ان الستة الايام التي ذكرها موسى لخلق العالم هي
الازمان الستة التي ذكرتها الهنود والمجتهبارات الستة التي ذكرها
زروطشت للبحوس وان الفردوس الذي كان فيه ادم انما هو بستان
اليسبريو الذي كان يخفّره الثنين وان ادم هو اديمو المذكور في
ايزورويدام وان نوحا واهله هو الملك دوقاليون وزوجنه بير
وهكذا

ويبالغ في القدح في التوراة ويقول انها مبتدأة بقتل الاخ
اخاه واغتصاب الفروج وتزوج ذوي الارحام بل البهائم وذكر
النهب والسلب والقتل والزنا ونحو ذلك من الامور التي لا يليق
ان تنسب لمن اصطفاه الله تعالى وجعله امياً على اسراره الالهية
فانظر الى اجترأ هذا الرجل على نبي الله موسى عليه السلام وعلى
كتاب الله التوراة مع ان التوراة هي اساس الانجيل فما يقال فيها
يقال في الانجيل ولذلك يقولون ان رسالة عيسى قد نهبت عليها
اليهود من قبل بقولهم انه سيجي اليهم مسيح وكلمة مسيح ككلمة مسائيس
ومسائيس لقب شريف باللغة العبرانية وقد لقب به اشعيا النبي
كبروس ملك الفرس كما في الاصحاح الخامس والخمسين ولقب
به ايضاً حزقيال النبي ملك مدينة صور ومع ذلك فلم يلتفت هذا
الرجل الى شي من ذلك فقال ما قال ومن اعتقادات النصارى
ايضاً ان الله تجسد في صورة عيسى، وانه هو الاله وليسوا اول قائل

بهذا التجسد بل قيل قبلهم في جزاكا وبرهنة بقدر الهند وقيل في
 ويشنوانه تجسد خمسمائة مرة وقال سكان البيرو من امريكا ان
 الاله الحق تجسد في الهم منكر قباق بن الشمس وكذا سكان
 الاسكندرية قالوا ان الله تجسد في الهم اودين وان ولادة عيسى
 من بكر بتول بفتح روح القدس يشبه قول اهل الصين ان الهم
 فؤيه ولدته بنت بكر حملت به من اشعة الشمس وكان المصريون
 يعتقدون ان اوزيريس ولد من غير مباشرة احد لاهمه

وقول النصارى ان عيسى مات ودفن ثم بعث ورفع الى السماء
 حياً قال بمنله قبلهم المصريون في اوزيريس المصري وفي اورونيس
 من اهالي فنيكية وفي اوتيس من اهالي فريجية الا انهم لم يقولوا
 يرفعه الى السماء وكما قيل ان اودين كان قد بذل نفسه وقتلها
 باختياره بان رمى نفسه في نار عظيمة حتى احترق وفعل ذلك
 لاجل نجاة عباده واحزابه فكذلك النصارى يعتقدون ان حلول
 الاله في عيسى وارساله وموته انما كان لاجل فداء الجنس البشري
 وتخليصه من ذنب الخطيئة الاولى خطيئة ادم وحواء واما ادريس
 النبي فقد رفع الى السماء بدون ان تكفر عنه الخطيئة ولا شك
 ان هذا خرافة ولهم كلام كثير من هذا القبيل يطول شرحه ولا
 فائدة في ذكره

فقال الشيخ نعوذ بالله من هذا الضلال الذي لا ينشأ مثله

عن عاقل ولكن من يضل الله فلا هادي له ومن يهدي الله فخا
له من مفضل

قال الانكليزي بل منهم من ينكر جميع الكتب السماوية
ويقول انها من تأليف البشر جمع فيها مؤلفوها حوادث القرون
المخالفة

فقال الشيخ مثل هؤلاء القوم لا يجوز مجالستهم ولا معاملتهم
ولا مخالطتهم فانهم ينكرون الرسل والكتب وينقصون الاله الحق
سبحانه فالحمد لله الذي فصلنا عن ذلك الرجل بسلامة

ثم ان العربية وصلت بهم الى المحل فنزل الشيخ ودخل
عند الخواجا وقال اريد ان اقف على ما يقول النصارى في نبي
الله عيسى بن مريم وفي الاداب النصرانية فقال الخواجا ان اغلب
النصارى يقولون ان العلماء الاولين مجمعون على ان شريعة
عيسى ليست الا متممة لشريعة موسى وموضحة لما اشكل من احكامها
حتى قال بعضهم ان عيسى والحواريين كانوا يهودا واستدلوا على
ذلك بما نقل عن الحواري بولص انه ختن تلميذه تيموته في مدينة
ليسترة وحث الرومانيين على الختان وانه قال لهم ان اليهودي الحق
من كان يهوديا باطنا وظاهرا ويقول الحواري جاك (يعقوب)
للحواري بولص كما في الباب التاسع عشر من كتاب اعمال الحواريين
فلتعرف جميع الناس انك على شريعة موسى ويقول بولص
لغوسطس في الباب الخامس والعشرين من ذلك الكتاب اني لم

يُحصل مني ما يخالف شريعة موسى ولا قوانين النصرانية فهذا أصل دينهم واعتقاد حواريم ومتقدمي علمائهم فلم يقل أحد منهم بألوهية عيسى ويدل على ذلك ما نقله بعضهم عن ماري بولص أنه قال في الباب الخامس من رسالته إلى الرومانيين إن نعمة الله قد نشرت علينا من الإحسان الموهوب لإنسان واحد وهو عيسى المسيح وقال في الباب الثامن من هذه الرسالة نحن شركاء المسيح في وراثته أحكام الله

وقال في رسالته للتقليبيين تخلقوا باخلاق عيسى فإنه كان على صورة الرحمن ولم يطع قط في مساوئته وقال أيضاً لأهل أفسوس في الباب الأول من هذه الرسالة اللهم ربنا ورب المسيح عيسى جد علينا بعقل الحكمة وللعبريين في الباب الثاني أنكم قد صيرتم عيسى أقل من الملك بيسير وكذلك بما قاله أوريبوس أسقف مدينة قيصرية في الباب الأول من تاريخ أمناء دين النصرانية أنه لا يعقل أن الوجود يعني وجود الله يحل في صورة بشرية ونحو ذلك من العبارات المنسوبة إلى الحواريين واتباعهم المومنين فلم يقل أحد منهم بألوهية عيسى ولا خطرت له على بال فقال الشيخ هذا هو كلام العقلا ولعل هؤلاء هم الذين مدحهم الله في كتابه وشبه بهم بيننا بعض أصحابه

وأما تهودهم في الدين فلعلمهم أرادوا الرجوع إلى الحق واليقين وهذا شيء لا محذور فيه إذا عرفوا معناها وعملوا بمقتضاها

فقال الانكليزي ألا انهم بعد موته بثلاثة وخمس وعشرين سنة شمسية دبّ فيهم القول بالوهيته وذلك ان قسطنطين الاول جمع روساء الديانة في مدينة نيقة وحملهم على القول بها فاتبعوه الا ثمانية عشر استغفوا فلم يتحولوا عن اعتقادهم ثم بعد ذلك باربع وثلاثين سنة اجتمع روساء الديانة ثانياً بمدينة ريميني وتكلموا في هذا المعنى فانفق منهم اربعمائة اسقف على عدم الوهيته واتبعهم الباقون ومكثوا على ذلك نحو اثنتين وعشرين سنة ثم اجتمعوا مرة ثالثة بمدينة القسطنطينية سنة ٢٢١ ميلادية فاستقر رأي الجمعية على الوهيته وبقي الحال على ذلك الى اليوم

فقال الشيخ هذه امور لا نستطيع الموافقة عليها ولا شك انه كان وقتئذٍ لرؤساء النصارى آراء ومقاصد في تقريرها ولو تأملوا اوفى تأمل لرأوا الادلة ناطقة بان الله تعالى واحد احد يستحيل عليه التحلول والاتحاد والتعدد ومشابهة خلقه في امر من الامور وهو حي لا يموت وقادر لا يعجز لا تدركه الابصار وهو بدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وانما عيسى عبد من عبيده خلقه بقدرته التامة من غير اب كما خلق آدم من تراب من غير اب ولا ام وافاض عليه النبوة والرسالة وقد انطقه الله بالحق وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ويوم القيامة يتبرأ منهم ومن مقاتلهم هذه فيقول سبحانه ما يكون لي ان

اقول ما ليس لي بحق ثم يقول ما قلت لهم الا ما امرتي به ان
اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم
وبالجملة فبطلان هذا المذهب واضح للعيان ومستغن عن
البيان وما احسن ما قاله البوصيري في همزيته تبكيها لم وتنكيها
عليهم فمن ذلك قوله

أله مركب ما سمعنا * باله لذاته اجزاء

الى ان قال

أهو الراكب الحمار فياؤ يح الهيمسه الاعياء
فقال الانكليزي وما الذي تروونه يا معشر المسلمين في امر

عيسى

فقال الشيخ ان الذي يلزم اعتقاده في امر عيسى على ما أخبر
به نبينا الصادق المصدوق في القرآن والسنة انه ابن مريم بنت
عمران واسم امها حنة فكانت حنة لا تلد فنذرت ان رزقها الله
ولدا جعلته من سدنة بيت المقدس اي خدمته فحملت حنة ومات
زوجها عمران وهي حامل فولدت بتا وسمتها مريم ومعناها بلغتهم
العابدة ثم حملتها واثت بها الى بيت المقدس ووضعتها عند الاحبار
وقالت لم دونكم هذه المنذورة فتنافسوا في تربيتها لان ابائها وهو
عمران كان من ائمتهم فقال زكريا انا احق بها لان خالتها زوجتي
فاخذها وضمها الى ايساع خالتها فلما كبرت مريم افرد لها زكريا
غرفة فلما بلغت من العمر ثلاثة عشر سنة ارسل الله تعالى جبريل

فنفخ في جيبها فجلبت بعيسى وولدت به بيت لحم وهي قرية قريبة من القدس سنة ٢٠٤ من تاريخ الاسكندر فلما جاءت مريم الى قومها بعيسى تحمله قالوا لها لقد جئت شيئاً فرياً واخذوا ليرجموها فتكلم عيسى وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركا اينما كنت فلما سمعوا كلامه تركوها ثم ان مريم اخذت عيسى وسارت به الى مصر فاقامت به اثنتي عشرة سنة ثم عادت به الى الشام ونزلا الناصرة وبها سميت النصارى فاقام بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله تعالى اليه فسار الى الاردن وهو النهر المسمى بنهر الشريعة فاغسل فيه وابتدأ بالدعوة وهو ابن ثلاثين سنة لسته ايام خلت من كانون الثاني لمضي ثلاث وثلاثين وثلاثمائة للاسكندر

واظهر عيسى عليه السلام المعجزات فاحيي ميتا يقال له عازر بعد ثلاثة ايام من موته وجعل من الطين طائراً قيل هو الخفاش وابراً الاكمه والابرص وكان يمشي على الماء ويلبس الصوف والشعر وياكل من نبات الارض وانزل الله عليه المائدة وسبب نزولها ان الحوار بين الذين اتبعوه وكانوا اثني عشر رجلاً قالوا له هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء فسأل عيسى ربه عز وجل فانزل عليه سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتهما فنزلت وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ثم قال لهم

يقيم احسنكم عملاً يكشف عنها فقال شمعون رأس الحواريين انت اولى بذلك فقام عيسى وتوضأ وصلى وكان عليها مندبل فرفعه وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية تسيل دماً وعند راسها ملح وعند ذنبها خل وحوها اللون البقول ما خلا الكراث ومعها خمسة أرغفة على واحد زيتون وعلى الثاني غسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون يا روح الله أ من طعام الدنيا ام من طعام الآخرة فقال ليس منها ولكنه شي خلقه الله بقدرته فقال الحواريون يا روح الله لو اريتنا من هذه الآية آية اخرى فقال يا سمكة احبي باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم رفعت المائدة وقيل مكثت تنزل يوماً وتغيب يوماً الى اربعين ليلة

فقال الانكليزي ان اليهود يزعمون انهم قتلوه وبعد قتله

صلبوه

فقال الشيخ كذبوا والله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ليزيده شرفاً لديه وذلك انه لما اعلمه الله انه سيرفعه اليه دعا الحواريين وصنع لهم طعاماً وقال لهم احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة فلما اجتمعوا عشاءهم وقام بخدمتهم فلما فرغوا من الطعام اخذ يغسل ايديهم ويمسحها بشيابه فتعاضلوا ذلك فقال من رد علي شيئاً ما اصنعه فليس مني فتركوه

حتى فرغ ثم قال لم انما فعلت هذا بكم ليكون لكم اسوة بي في خدمة
 بعضكم بعضا واما حاجتي اليكم فتدعون الله لي ان يؤخر اجلي فلما
 نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم فجعل عيسى يوقظهم ويقول ما
 تصبرون لي ليلة فقالوا ما ندري ما لنا لقد كنا نسمرفنطيل السمر
 وما نقدر عليه الليلة فقال يذهب بالراعي وتفترق الغنم وليكفرن
 بي احدكم قبل ان يصبح الديك وليبيعني احدكم بدرهم يسيرة ولياكلن
 ثمني

وكانت اليهود قد جدت في طلبه فذهب رجل من
 الحواريين اسمه تظليانوس الى فيلاطوس الملقب هيرودوس وكان
 رئيسا على اليهود اذ ذاك وقال ما تجعلون لي اذا ادلتكم على المسيح
 فجعلوا له ثلثين درهما فاخذها وذهب بهم ليدلم عليه فرفع الله عيسى
 اليه واتى شبهه على الذي دلم عليه فاخذوه وربطوه وجعلوا
 يقودونه مجبل ويقولون له انت تزعم انك تحيي الموتى أفلا تخاص
 نفسك ثم قتلوه وصلبوه

وبين رفع عيسى ومولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة
 وخمس واربعون سنة وعاشت مريم امه نحو ثلاث وخمسين سنة
 لانها حملت به وهي بنت ثلاث عشرة سنة وعاشت معه ثلثا وثلثين
 سنة وبقيت بعد رفعه ست سنين أفمن كانت العبودية من صفاته
 والاكل والشرب من ضروراته يعقل انه اله او يتصور انه ابن الله
 مع اجماع جميع العقلاء على عدم الوهيته واتفاق جمهور الفلاسفة

والحكماء على عبوديته واطن ان ضرر الخلق على العموم انما يأتي لهم من قبل من تصدى من غير استعداد لنشر العلوم ممن قال منهم بحلول الوجود المطلق فيما عداه وبنى على هذا القول الخطاء ما بناه فقال ان الانسان اشرف انواع الحيوان فهو اولى بالحلول واستتبع من ذلك ان الاله اتحد بالصورة البشرية وهو اعتقاد فاسد ورأي عن الصواب حائد لا قبله عقل ولا يساعده نقل وايضاً لا يلزم على القول بالحلول الذي زعموه بالنسبة لعيسى ان يقال الانسان اله او الاله انسان هذه نتيجة هذا الزعم الغريب الظاهر الفساد لعقلاء العباد

ومن الغريب تقدم الاوروباويين في كثير من الفنون والصنائع مع بقائهم على هذا الاعتقاد الفاسد فلعل المانع لهم من رفضه ما يسمونه بالبوليتيكة فلولاها لم يبق له عندهم اثر بالكلية واغرب من هذا كله قدحهم في الاسلام واهله مع عدم معرفتهم بشي منه من اصله اذ لو تأملوا الاشارات القرآنية وما ورد من الاثار النبوية لعثروا بالتمدن الذي يطلبونه وقد حرموه واهتدوا الى ميزان العدل الذي يحاولونه وما اقاموه ولعل الحامل لعلمائهم على استمرار هذا الرأي بينهم رغبتهم في بقاء الباباوية التي معناها السلطنة على جميع اهل الارض لانهم يزعمون ان البابا نائب عن الاله الذي يدعونه فاين هذا من دين الاسلام المبني على ان الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي افعاله واحد لا من قلة وموجود لا من علة لا يحيط به

مكان ولا يشتمل عليه زمان ليس منفصلا عن شي ولا ينفصل عنه شي ولا يحل في شي وليس مثله شي وهو الخالق لكل شي الغني عن كل شي ارسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون فعم بدعوته المشارق والمغارب ولم يفرق في امره ونهيه بين الاجانب والاقارب لتقوم الحجة وتصح المحجة وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة فمنهم من اهتدى واجاب ومنهم من ضرب بينه وبين الهداية حجاب ليميز الخبيث من الطيب واهل الجنة من اهل جهنم وكل ذلك لحكم واسرار هو بها اعلم وهكذا كان في كل امة خلت رسول يدعوهم الى الله واعتقاد ان لا اله سواه كما ارشدنا الى ذلك القرآن العظيم المنزل على عبده ورسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم

فقال الانكليزي هل عندكم علم بعدد الانبياء والرسول
فقال الشيخ نعم الا ان ما يجب علينا معرفته على التفصيل
خمس وعشرون رسولا وهم المذكورون في التنزيل وجمعهم بعضهم
في قوله

حتم على كل ذي التكليف معرفة

بانبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجبنا منهم ثمانية

من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

ادريس هود شعيب صالح وكذا
 ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا
 ومنهم اولو العزم خمسة جمعهم بعضهم في قوله
 محمد ابراهيم موسى كلبه

وادم عيسى هم اولو العزم فاعلم
 فعيسى عليه السلام من اولي العزم لصبره على اذى قومه
 ورئيسهم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه مبين ومصدق
 لما قبله من كتب الله تعالى
 وقد اخترع النصارى اشياء لم يخبرنا عنها كتابنا وذلك
 كال تعميد الذي تنسبه النصارى الى عيسى بن مريم فما هو وما
 سببه وما وجه نسبه اليه

فقال الانكليزي التعميد هو الغسل وذلك انهم يغسلون
 اولادهم في ماء المعمودية يعتقدون تطهيرهم به كالحنان لغيرهم ويأمرون
 كل من اراد ان يدخل في دينهم بالاغتسال فيه
 واما نسبه الى عيسى فلم يثبت انه عمد احدا في حياته ولا
 امر احدا به وهذا التعميد وان اشتهرت نسبه اليهم لم يكن خاصا
 بهم بل كانت الهنود من قبلهم يغتسلون في نهر الكنك وكذلك
 قدماء المصريين كان كل من اراد منهم ان يتلقى اسرار (ماري
 متراس) يعمد الى نهر او بئر فيغتسل فيه وليس ذلك اول شي
 اخلقوه اذ منه قولهم فمين اذنب انه لا تقبل توبته حتى يعترف

للقسيس بخطيئته إذ لم يثبت أن عيسى الزم أحدًا بالاقرار له بذنبه بل هذه عادة جارية من عهد ايزيس أحد الهة المصريين وغيره من الهة اليونانيين وكذلك اليهود كانت معتادة على الاعتراف بذنوبهم لأخبارهم

وأما الاعتراف بالثضاء والقدر والجنة والنار فاول من تكلم في ذلك سقراط وتبعه افلاطون فقسم الارواح الى طاهرة وغير طاهرة وقسم غير الطاهرة الى ما يمكن تطهيرها بالنار وما لا يمكن تطهيرها اصلا

وأما التثليث الذي يقولون به فانه ما اتاهم الا من كلام افلاطون التابع فيه لثيمة أحد علماء لوتريس ثم سرى منه الى من بعده حتى وصل الى اليهود وهم الذين لقنوه للنصارى وكذلك زي اهل التدين والجثي على الركب ووضع القسيسين ايديهم على رؤس الناس وقرأتهم بعض كلمات للتبرك بها كل ذلك كان موجودا عند قدماء المصريين

ومن جملة دعوى النصارى قولهم ان الحكمة لم يتكلم بها أحد قبلهم مع انه قد سبقهم الى الكلام عليها سقراط وكنفوشيوس وانطونين وارسطو ويوسيد وغيرهم وكذلك الفلاسفة الاسطوانيون اي الذين كانوا بالاسطوانة وهي مدرسة زينون الفيلسوف فكل هؤلاء كانوا قبلهم وقد تكلموا بها وحملوا الخلق عليها حتى صناعة تركيب الالفاظ وتاليف الكلام وكان الرومانيون قبلهم يعاقبون على

الزناء وكذلك كان للسياسيين قوانين في عقاب كل من ارتكب ذنباً او خطيئة او تكلم بما لا ينبغي فكل هؤلاء كانوا جميعاً في زمن لا يدرون فيه ما النصرانية ولا اهلها وكذلك قولهم بالعفو عن المسيء فانه قد سبهم اليه ايضاً فيتاغورس وكان قبل المسيح بنحو ستمائة سنة حيث قال ما معناه لا تجتهدوا في الانتقام من اعدائكم بل اجتهدوا في ان تصيروهم من احبابكم وكذلك قولهم لا تفعلوا مع غيركم ما لا تحبون ان يفعل بكم فان زروطشت قال مثل ذلك وقد كان قبل حرب تروادة بدهر طويل حيث قال افعل مع غيرك ما تحب ان يفعل معك واذا شككت في قبح شي او حسنه فامسك عنه وكذلك قال كنفوشيوس مثل ذلك وكان قبل المسيح بخمسمائة وخمسين سنة وكله ماخوذ من كلام هونغ حيث قال ما معناه انس المسيء واسأته ولا تفكر الا في الطيبات وفعل الخيرات

وقال سينبق اذا اردت ان يكون الله راضيا عنك فكن عادلا وكفى بالمرء تعظيماً لله ان يتبع اوامره
وقال سليمان عليه السلام اول الحكمة مخافة الله فاذا علمنا ذلك ظهر لنا ان النصرانية لم تأت بشي كان معدوماً عند من قبلها الا ان عندهم امرين لا افهم سرهما ولم اجد احداً من قدماء المؤرخين قالها

فقال الشيخ وماها فقال انهم ياكلون فطيراً يسمونه قربانا

ويعتقدون انه لحم المسيح ويشربون شراباً يسمونه اذكراً يعتقدون
انه دمه

فقال الشيخ ان دين النصرانية ليس مذموماً في الاصل بل هو
شريعة من شرائع الله تعالى وكذلك دين اليهودية ولما جاء الاسلام
نسخ جميع الشرائع ثم ان اكابر النصارى في القديم غيروا في دينهم
وبدلوا وحرفوا فقد عرض له البطالان من جهتين من جهة نسخه
بالشريعة المحمدية ومن جهة التغير والتبديل الذي وقع فيه من
علماء الديانة

فقال الانكليزي نعم جرت العادة بان صلاح الام وفسادها
انما يكونان بصلاح الرساء وفسادهم وعندنا رساء الديانة كثيرون
ولكل منهم اغراض يريد تحصيلها وترى لهم حثاً شديداً على التبرك
بالصليب وتقريب القرابين ونحو ذلك لكن لا يخلو ذلك عن
الاغراض

فقال الشيخ اني اراك تتعقبهم في امور كثيرة وذلك من
انصافك وشدة نظرك وكان ابن الشيخ مصغياً فقال ما معنى الصليب
وما معنى القران وما الفرق بين الكنيسة والدير ونحو ذلك
فقال الشيخ لقد رأيت في بعض الكتب كثيراً من عوائدهم
وعقائدهم وعرفت معابدهم ومراتب روسائهم فمن ذلك ان اصل
تبرك النصارى بالصليب وهوشي ذو خطوط اربعة يجمع اصلها
المحور انهم اعتقدوا ان الذي اخذته اليهود وصلبته هو المسيح وان

صلبه كان على شي بهذه الصفة وانهم سقوه الخمر في حنك الخنزير فلما قام حرض على حمل الصليب وان القربان رغب مستدير عليه صلبان كثيرة يخبز في كل بيت كل يوم احد من الصوم الكبير ويحمل الى الكنيسة فاذا فرغت الصلاة اخذ القسيس بعضه وفرق بعضه فتصرف به النصارى فيفطرون عليه كل يوم الى الجمعة وهكذا وان من اسماء روسائهم الجاثليق وهو الرئيس بالنسبة الى السلطنة الظاهرة ومنها المطران وهو القيقب الوريح المستصحب للبس الصوف الاسود واصل هذا الترتيب عندهم ان القاري للانجيل من اول وهلة يقال له شماس فان اتقن حفظه وفهمه صار قسيساً ويدوم على ذلك ما دام عنده زوجة فان ماتت زوجته ولم يتزوج غيرها صار مطرانا وان تزوج غيرها سي سالخ القسوسية وخرج عن مراتب العلم فان تنزه المطران عن الذفر وما يخرج من الارواح صار بتركا على مذهب الارمن واما الروم واليعاقبة والنسطورية فلا يكون عندهم بتركا الا من تنزه عن النساء وعن اكل الارواح وما يخرج منها من اول عمره الا العسل والسبك لانه خليفة المسيح وطاعة هؤلاء فرض واما الاسقف والراهب وغيرها فاسماء للمتعبدين خاصة

واما المعابد فالبيعة هي المعبد الصغير غير المرتفع والدير المعبد الكبير الكثير المرافق والمحاريب والكنيسة ما اشتملت على عواميد الاناجيل ولم يرفع بناؤها والصومعة مكان رفيع دقيق الاعلى واسع

الاسفل والثقله مثلها الا انها لا تسع اكثر من واحد والزوار منطقة
تشد في المحصر وقت الصلاة مشتملة على صليب اذا شدت كان
على السرة ولولا ان كلامنا في ذلك يشبه الفضول مع وجود اهل
ملتهم لزدتكم كثيراً من امور ديانتهم

فقال الانكليزي وهل كتب المسلمين اكثر من كتب الفرنج
اني لا اظن ذلك فان للفرنج تأليف عديدة في فنون شتى وقد
اطلعوا على كثير من كتب المسلمين ومارسوها حتى تفسير القرآن
وصحيح البخاري ومتمن خليل وغير ذلك

فقال الشيخ اسرار الكتب لا تؤخذ الا عن اهلها الذين تلقوها
مسلسلة واحداً بعد واحد الى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك
ليس حاصلاً الا في علماء الاسلام الذين استنارت بصائرهم فادركوا
معاني الكتب واسرارها نعم قد فرط علماء المسلمين في هذه الازمان
في فنون شتى حتى جهلوا واثقنوا غيرهم كفن التاريخ والرياضيات
ونحو ذلك فلوانهم التفتوا لذلك واثقنوا لانتقادات لم جميع الامم
ومعلوم ان العلم على اقسام علم للآخرة وعلم للدنيا وعلم لها معا فلو
اثقنوا جميع العلوم لكان خيراً لهم ومع ذلك فعلماء الدين هم المدوحوون
المثني عليهم في كتب الله تعالى وعلى لسان رسله وكفى العلم واهله
شرفاً قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله تعالى هل
يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى فاسئلوا اهل
الذكر ان كنتم لا تعلمون وقول النبي صلى الله عليه وسلم مثل

العلماء في الارض كمثل النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر
وقوله فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم وقوله ان الملائكة
لتضع اجنتها لطالب العلم رضى بما يصنع وقوله ما اكتسب
مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردى
ولكن للعلم حقوق واداب لو ذكرت لك بعضها لوقعت في العجب
العجاب منها قوله صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل ما لم
يخالطوا السلطان او يداخلوا الدنيا وبالحيلة فمن اطلع على اخبار
المتقدمين وما كتب فيها من حين ظهور هذا الدين وجد ان لا
نور لعلم الا والقرآن مصباحه ولا مطلب لمعرفة الا وهو مفتاحه
فهو الذي نشر راية العز على جميع العلوم والمعارف واستظلت بظل
لوائه غرائب الفنون واللطائف اذ بظهوره زالت من القلوب الاحسن
وانقطعت من بين الناس اسباب الفتن لجريانه على قانون مقبول
قد تلقته القلوب السليمة بالقبول ومن تبع احكام الملل وتامل في
قوانين الاول وجد ان لا موجب للنزاع على الاطلاق الا ما فرق
بين اليهود والنصارى من الاختلاف والشقاق فان فرق النصارى
متشعبة جدا مع شدة بغض بعضهم لبعض فضلا عن بغض اليهود
لجميع فرق النصارى وبالعكس حتى قالت اليهود ليست النصارى
على شي وقالت النصارى ليست اليهود على شي وقد جاء القرآن
فيه تبيان كل شي وهدى ورحمة وليس في احكامه اختلاف ولا
تناقض

فقال الانكليزي أليس عندكم مذاهب مختلفة كذهب مالك
والشافعي والحنفي والحنبلي والليث والثوري وغير ذلك فضلا عن
اختلاف اهل كل مذهب في مسائل مذهبهم

فقال الشيخ كلهم من رسول الله ملتبس ليس بينهم تباين
كلي بل احكامهم كفروع الشجرة التي اصلها واحد
فقال الانكليزي فما بال مساجدكم لا تحلوها ولا تزينونها
كما تحلى كنائس النصارى وبيع اليهود

فقال الشيخ قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن زخرفة
المساجد لئلا تنهى المصلي عن الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى
ومع ذلك فهي في غاية الاحترام فلا يدخل فيها احد بالنجاسة ولا
القاذورات ولا يتكلم فيها بلبغو الحديث ولا يدخلها جنب ولا
حائض ولا نفساً ولا يشهر فيها السلاح ولا ترفع فيها الاصوات
ولو بالعلم فهي مع احترامها وتعظيمها لا تليق زخرفتها ولا تشييدها
لان المقصود فيها التذلل والخشوع ولذلك ورد ابنوا مساجدكم جما
يعني بلا شرايف وابنوا مدائنكم مشرفة وكان موضع مسجد رسول
الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قبوراً للمشركين وخراباً ونحلا فامر
بالقبور فنبشت وبالحرب فسويت وبالنخل فقطع فصفوا النخل
قبلة المسجد وجعلوا عضائده الحجارة وقال اجعلوه كعريش موسى
وكانت تصل الايدي الى سقفه ولما ولي عمر ابن الخطاب الخلافة
وامر بتجديده قال للقيم على العمارة اكنن الناس من الشمس والمطر

واياك ان تحمّر او تصفر فتفتن اللاس فاذا فرغت من العماره
 فاجعل فيه القناديل الا انه صلى الله عليه وسلم كان يامر بتطيب
 المساجد وتنظيفها وتجهيزها وصيانتها من الروائح الكريهه ويقول
 ان المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي المجلدة في النار ويقول
 جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وصناعكم وبيعكم وشرائكم
 وخصوماتكم ورفع اصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم ولا تتخذوها
 سوقا ولا طريقا ولا تمروا فيها بلحم نبي

فقال الانكليزي اني ارى لجميع كلامك حلاوة وطلاوة
 ولا يمل من سماعه ولا يسأم من استرجاعه وقد ذكرت جملة من
 احكام الاسلام كالصلاة والزكاة فهل لك ان تفيدني عنها شيئا

فقال اما الصلاة فهي قرينة ذات احرام وسلام او سلام فقط
 وهي افضل الاعمال بعد الشهادتين وهي عروس العبادات اي تشبه
 العرس في اشتغالها على القرآن والدعاء والذكر والتسبيح والتحميد
 والركوع والسجود والخشوع والوقوف بين يدي الله تعالى وغير
 ذلك من العبادات الكثيرة في عبادة واحدة كما ان العرس يشتمل
 على اصناف الماكل والالعب والفرح والزينة والنزاهة ولها شروط
 صحة وشروط وجوب واركان وسنن وفضائل

واما الزكاة فهي مال مخصوص يؤخذ من مال مخصوص اذا
 بلغ قدرا مخصوصا في زمن مخصوص ويصرف في جهات مخصوصة
 فقال الانكليزي وما ذلك قال اما المال المخصوص المأخوذ

فهو ربع العشر في العين الذهب والفضة والعشر كاملاً في الحبوب
 اذا سقيت بالسج ونصف العشر ان سقيت بالآلات وشاة واحدة
 في اربعين شاة الى اخرها هو مفصل في محله واما المال المخصوص
 الماخوذ منه فهو العين والحراث والماشية واما التدر المخصوص فهو
 النصاب وهو عشرون ديناراً في الذهب ومائتا درهم في الفضة
 وخمسة اوسق في الحبوب الى اخرها هو مفصل واما الزمن المخصوص
 فهو الحول او مجيئ الساعي في الماشية او طيب الحبوب واما الجهات
 المخصوصة فهي الاصناف الثمانية المذكورة في الآية انما الصدقات
 للفقراء الخ وشرعة الزكاة لتطهير الاموال والانفس ولها شروط
 واركان واداب يطول شرحها منها انها تخرج من جنس المال
 المزمى فلا يجزيء جنس عن غيره ولا رديء عن جيد ولا سقيم عن
 سليم قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وقال تعالى
 يا ايها الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وما اخرجنا لكم من
 الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون

واما الصوم فهو الامساك عما يصل الى الجوف او الرأس من
 قبيل الفجر الى غروب الشمس وله شروط واركان واداب ومن
 فضائله انه يضعف الشهوة ويهذب الخلق ويصفي الباطن ولذلك
 قال صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة
 فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اي قاطع ولم
 يجب منه في كل سنة الا شهر واحد وهو شهر رمضان ولا يقوم

صوم غيره مقامه ومحرم عندنا صوم خمسة ايام من كل سنة وهي يوم
عيد الفطر ويوم عيد الاضحى والثلاثة التي بعده وتسمى ايام التشريق
ومن حكمه مشروعية التشبه بالملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام
فينبغي فيه العزلة عن الناس والاشتغال بالقرآن والصلاة والاذكار
ومن ادا به تعجيل الفطر وتأخير السحور ومنها الافطار على وتر من
الرطب او التمر وما احسن ما قيل في ذلك

فطور التمر سنه

رسول الله سنه

ينال الاجر عبد

يجلي منه سنه

ولا ينبغي ان يجعل شهر فكاكه ولعب

واما الحج فهو قصد بيت الله الحرام لاداء فريضة الاسلام ولا
يجب الا مرة واحدة في العمر ومحل وجوبه ما لم يمنع من ذلك
مانع كفقرا او انقطاع طريق او مرض او عدم رفيق قال تعالى والله
على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرة الشيخ ان الله لا مكان

له فلم خصت هذه العبادة بهذا المكان دون غيره

فقال الشيخ هكذا اقتضت الحكمة الازلية والارادة الربانية

قال بعضهم

اني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وقد روي ان الله تعالى لما اهبط ادم من الجنة قال له اني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى حول عرشي فلما كان زمن الطوفان رفع فكان الانبياء يحجون ولا يعلمون مكانه فلما بوأه الله لابراهيم بناء من خمسة اجبل حراء وثبير ولبنان وجبل الطير وجبل الخير وكما تفاضل المنازل الروحانية كذلك تفاضل المنازل الجسمانية وهيات ان يساوي الخلق بين دار بناؤها لبن التراب والتبين ودار بناؤها لبن العسجد والحجين ففرق بين مدينة اكثر عمارتها الشهوات ومدينة عمارتها الآيات البينات فقد يجد الانسان قلبه في مكان اكثر مما يجده في غيره وذلك ليس للاجر والتراب بل للاجر والثواب او مجالسة الاتراب كما قال

اقبل ارضا سار فيها جمالها * فكيف بدار دار فيها جمالها
وقد طاف بهذا البيت مائة واربعة وعشرون الفا من
الانبياء سوى ما لا يعلمه الا الله من الملائكة والاولياء فهو البيت
الذي اصطفاه الله على سائر البيوت وله سر الاولية وقد اثنى عليه
ذوالعزة والمجبروت قال تعالى ان اول بيت وضع للناس للذي
بيكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن
دخله كان امنا وقال صلى الله عليه وسلم خير بلدة على وجه الارض

واحبا الى الله مكة الى غير ذلك من الآثار الدالة على فضلها
فوالله لولا العوائق الشاغلة لبسطت لك متون اياتها ونشرت
عليك فنون دلائلها وكان قد حان وقت القيام فاستأذن الشيخ
وقام وهو يكرر هذا الكلام

يا رحمة الله للعباد * اودعك الله في الجهاد
يا بيت ربي يا نور قلبي * يا قرة العين يا مرادي
يا كعبة الله يا حيائي * يا منجى السعد يا رشادي



المسامرة الخامسة والتسعون

نوادير

ثم دخل مخدعه ونام حتى الصباح فافاق فدخل عليه ابنه فقال له اين كانت غيبتك وفيما انقضت ليلتك قال له كنت مع يعقوب والخوaja الطلياني في غرفة بجواركم فوجدنا بها كثيراً من رجال ونساء وفيهم صاحبة المنزل وهي التي اخذتني واجلسني بجوارها والذي اخبرني الى هذا الوقت اني رأيت بعضهم يحاجي بعضا بمسائل معمة منها ما كنت افهمه ومنها ما لم اتعقل معناه فقال له والده هل بقي منها في ذهنك شي قال نعم من ذلك ان احدهم قال لثلاثة ممن كان هناك لياخذ كل واحد منكم ورقة اي من الاوراق المعدة للهو واللعب بشرط ان لا تزيد نقطها المرسومة عليها عن تسع فاخذ كل واحد ورقة ثم قال لمن اخذ اولاً ضعف عيد

نقط ورقتك ثم اسقط من المجموع واحدا واضرب الباقي في خمسة
ثم زد على المجموع خمسة ثم اضع الى الجميع رقم ورقة الشخص
الثاني ثم ضعف الحاصل واسقط منه واحدا واضرب الباقي في
خمس ثم اضع الى الجميع رقم ورقة الشخص الثالث ففعل كما
قال ثم قال له فمقدر المجموع فقال كذا فقال حيثذ يكون
لكل واحد من الثلاثة بقدر عدد النقط الذي كان على ورقته
فعجينا من ذلك فلما رأى الطلياني تعجبي قال لا عجب لان ورقة
الاول كان عليها ثلاث نقط وورقة الثاني اربع والثالث سبع
فباستطاط واحد من ستة التي هي ضعف الثلاثة صار الباقي خمسة
وبضربه في خمسة صار الحاصل خمسة وعشرين وبزيادة خمسة
يكون الحاصل ثلاثين وبإضافة رقم الثاني عليه وهو اربعة يكون
الحاصل اربعة وثلاثين فاذا ضعفته صار ثمانية وستين فاذا اسقطت
واحدا بقي سبعة وستون فاذا ضربته في خمسة كان المجموع ثلاثمائة
وخمس وثلاثين وبزيادة خمسة يكون المجموع ثلثمائة واربعين فاذا
ضم عليه رقم ورقة الثالث وهو سبعة بلغ ثلثمائة وسبعة واربعين
فلو تأملت ذلك لوجدته مركبا من الارقام التي على الاوراق
الثلاثة

ومنها ان احدهم مد يده الى الطاولة واخذ ثلاثة اوراق وقال
لي اخبرني في شرك واحدة منها ففعلت ثم وضع الثلاث على الطاولة
بعضها فوق بعض واخذ ثلاثا اخرى وعرضها على النساء اللاتي

كن معنا فاخترت احدهن واحدة منها ثم وضع الاوراق الثلاث
 بعضها فوق بعض ايضاً بجزاء الثلاث الاول ثم اخذ ثلاثا اخرى
 وفعل فيها كما فعل فيما قبلها ثم سألتني عن ورقتي في اي صف
 هي فاشرت اليه فاخبرني بها ثم سألت كل ست عن ورقتها في
 اي صف فاشارت اليه فاخبرها بها من غير ان يخطئ ثم فرق
 الثلاث الاولى بعضها بجزاء بعض ثم فرق الثلاث الثانية يجعل
 كل ورقة منها على كل ورقة من الثلاث الاولى وكذلك فعل
 بالثلاث الثالثة فعميت لذلك فقال يعقوب لا تعجب فان الورقة
 الاولى تكون في الصف الاسفل والورقة الثانية تكون في الصف
 الاوسط والورقة الثالثة تكون في الصف الاعلى ثم قال لي يعقوب
 واغرب من ذلك اننا لو فرضنا جميع الورق ستاً وثلاثين وقسمناها
 ثلاثة اقسام كل واحد منها اثنتا عشرة ورقة وجعلنا ورق كل
 قسم متخادياً ثم قلنا لانسان اختر في نفسك ورقة من اي قسم
 اردت وارادنا معرفة هذه الورقة من غير ان نسأل عنها لامكن
 ذلك من غير صعوبة ثم قام واخذ الورق الذي كان موجودا
 وقسمه كما قال ثم قال لي اختر في شرك ورقة فاخترت من الصف
 الوسط فجمع ورقه ووضع بين اوراق الصفيين الآخرين بعد جمع
 كل منها كذلك ثم اخذ الورقة العليا وجعلها مبدأ صف ثم
 الثانية وجعلها مبدأ صف اخر ثم الثالثة كذلك ثم اخذ الرابعة
 فوضعها فوق الاولى والخامسة فوق الثانية ثم السادسة فوق الثالثة

وهكذا حتى جعل الورق ثلاثة اقسام ثم سأني عن الصف الذي فيه الورقة التي اخترتها فاشرت له اليه فجمع ورقه ووضعه بين الصفيين ثم وزعه كما فعل في الاول ثم سأني عن الصف الذي هي فيه فاخبرته به فقال حيثئذ هي في النصف من هذا الصف فكان كما قال

فلما فهم من كان هناك ان ليعقوب دراية بمثل هذه الاحاجي سألوه ان يبيدي لهم شيئاً مما عنده منها فابدى لغزاً على دسته الورق التي عددها اثنان وخمسون ورقة وقال لاحدى النساء خذي اي ورقة شئت فاخذت ورقة على غير مرأى منه ثم ضم اليه الباقي وبعد برهة بين لها العدد الموجود في ورقتها ثم عرض الورق ثانياً عليهن فاخذت احدهن ورقتين حيث اتفق كما امر ثم قال لها خذي لكل ورقة اوراقاً حتى تكمل ارقامها خمساً وعشرين نقطة يعني ان كانت نقط احدى الورقتين ستا تاخذتسع عشر ورقة وان كانت تسعاً تاخذت عشر فاخذت كما قال ثم جمع ما بقي من الورق فكان سبعة عشر فقال لها نقط الورقتين سبعة عشر فكان كما قال فدهشوا من حذقه وشدة فطنته خصوصاً الشاب الذي كان يلعب اولاً حتى انه طلب منه ان يعلمه ما اشكل عليه من احاجيه فاجابه الى ما طلب ثم لما علمنا قيامكم فمنا فدخلت محلنا ومعى يعقوب فاراني من ذلك اموراً كثيرة ووعدني بغيرها فسألته عن الشكل الاول وكيف عرف الرقم

الذي على الورقة التي كانت اخذتها المرأة من غير ان يسألها عنه فقال لي طريقة معرفة ذلك ان تجمع جميع ارقام الورق وتحمل الخادم مثلاً منها مقدراً باحد عشر والبنت باثنى عشر والباباز بثلاثة عشر ثم تجمع رقم الورقة الاولى على الثانية والحاصل على الثالثة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه واضف الباقي الى رقم الورقة الرابعة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه كما تقدم ولا يلزم ان تعد رقم الباباز لانه ثلاثة عشر وهكذا الى ان تنتهي الى عدد منه تعلم الورق الناقصة ورقها مثلاً اذا كان الباقي الاخير احد عشر دل على الخادم وان كان اثني عشر دل على البنت وان كان صفراً دل على الباباز فلو فرض ان عدد الورق كان اثنين وثلثين فطريق معرفتها هي طريق الاثنين وخمسين بعينها لكن الاسقاط يكون عشرة عشرة لا ثلاثة عشر فاذا وصلت الى الورقة الاخيرة تضم على الحاصل اربعة فان كان اقل من عشرة فاطرحه منها فان الباقي يكون عدد رقم الورقة الماخوذة وان كان الباقي اكثر من عشرة فاطرحه من عشرين فيكون الباقي عدد تلك الورقة فان كان الباقي اثنين دل على الخادم وان كان ثلاثة دل على البنت وان كان اربعة دل على الباباز ثم قال لي واذا فرضنا ان احد الحاضرين اخذ ثلاث اوراق وارادنا معرفة حاصل اعدادها فطريقة ذلك ان نأخذ دسته ورق من اوراق اللعب يكون عدد ورقها يقبل القسمة اثلاثاً

بان تكون ستا وثلاثين مثلاً ثم نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث
خذ لكل ورقة قدرًا من الورق يبلغ بالرقم الذي على الورقة احد
عشر فاذا فرض ان رقم احدى الورقات التي اخذها تسعة ياخذ
لها ورقتين وان الثانية سبعة ياخذ لها اربعاً وان الثالثة ستة ياخذ
لها خمسا فيكون مجموع الورق المأخوذ في هذا المثال اربعة عشر
والباقي اثنين وعشرين وهو جملة ارقام الورقات الثلاث المأخوذة
اولاً

ولنا في حلها طريقة اخرى وهي ان نقول للذي اخذ الاوراق
الثلاث اسقط في شرك رقم كل ورقة من اثني عشر واجمع البواقي
الثلاث ثم نستعلم منه عن الحاصل ونسقطه من عدد ورق اللعب
وهو ستة وثلاثون فيكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب مثلاً
اذا كان رقم ورقة تسعة وورقة سبعة وورقة ستة كان باقي الاولى
ثلاثة وباقي الثانية خمسة وباقي الثالثة ستة ومجموع هذه البواقي
اربعة عشر فاذا اسقطناه من عدد الورق وهو ستة وثلاثون كان
الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب ولو كان عدد الورق اكثر من
سنة وثلاثين بان كان اثنين وخمسين مثلاً واردنا معرفة ارقام
الاوراق الثلاث استعملنا عدداً اكثر من عشرة واقل من سبعة عشر
الذي هو ثلث الاثنين وخمسين بعد الكسر كخمسة عشر ثم نقول
للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة ورقاً من اوراق
اللعب حتى يتم رقم الورقة بالورق المأخوذ خمسة عشر كان يأخذ

في المثال ستة للورقة التي رقبها تسعة وثمانية للتي رقبها سبعة وتسعة
 للتي رقبها ستة فمجموع الاوراق الماخوذة وهو ستة وثمانية وتسعة
 ثلاثة وعشرون تضم الى الثلاث الماخوذة اولا فيكون الحاصل
 ستة وعشرون والباقي ستة وعشرين نطرح منه اربعة فرق ما بين
 اصل عدد الورق وهو اثنان وخمسون وبين ثلاثة امثال العدد
 المستعمل وهو خمسة عشر مضافا عليه ثلاثة اي ثمانية واربعون
 يكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب وهناك طريقة عامة اي
 سواء كان ورق اللعب اثنين وخمسين او ستة وثلاثين وسواء
 كان في كل من الحالتين كاملا او ناقصا وسواء كان العدد
 المستعمل خمسة عشر او ثلاثة عشر او اربعة عشر او ستة عشر وسواء
 كان عدد الورق الماخوذ ثلاثة او اربعة او غير ذلك

وهي ان تضرب العدد الذي استعملته في عدد الورق
 الماخوذ وتضيف الى الحاصل عدد الورقات الماخوذة ثم تسقط
 الحاصل من عدد ورق اللعب المستعمل اي من اثنين وخمسين
 ان كان عدده مركبا من اثنين وخمسين ومن ستة وثلثين ان كان
 مركبا من ستة وثلثين فيكون الباقي هو العدد اللازم اسقاطه من
 الورق الذي يكون باقيا من ورق اللعب وباقي الطرح هو المطلوب
 مثلاً اذا فرض ان الماخوذ اربع ورقات وان رقم احداها ثلاثة
 والثانية خمسة والثالثة سبعة والرابعة عشرة وفرض ان العدد المختار
 احد عشر يضرب احد عشر في اربعة يكون الحاصل اربعة واربعين

يضم عليه أربعة فيصير ثمانية وأربعين تطرحه من اثنين وخمسين
 يكون الباقي أربعة تطرحها من تسعة وعشرين فيكون الباقي خمسة
 وعشرين وهو مجموع ارقام الأوراق الأربع المأخوذة ورقم تسعة
 وعشرين السابق هو الورق الذي بقي من ورق اللعب بعد تكميل
 كل ورقة من الورق المأخوذ احد عشر كما مر لانا ناخذ للاولى
 ثمانية وللثانية ستة وللثالثة أربعة وللرابعة واحدا ومجموع ذلك تسعة
 عشر فاذا اضفنا له الاربعة التي اخذت كان الحاصل ثلاثة
 وعشرين اذا طرحناها من اثنين وخمسين كان الباقي تسعة وعشرين
 كما ذكرنا

وهناك دقيقتان ينبغي التنبيه لهما الاولى ما اذا فرض ان ارقام
 الأوراق الأربع مثلا كانت واحدا وثلاثة واربعة وسبعة وفرض
 ان العدد المختار اثني عشر فيلزم على قياس ما مر ان نضرب اثني
 عشر في أربعة يكون الحاصل ثمانية وأربعين ونضم عليه أربعة
 عدد الأوراق يحصل اثنين وخمسين وهو قدر عدد ورق اللعب
 فحينئذ يكون الفرق بينهما صفرا ففي هذه الحالة وما مائلها يكون
 الورق الباقي بعد المأخوذ هو مجموع ارقام الأوراق الأربع المأخوذة
 وبيانه انه اذا اخذ للورقة الاولى احدى عشر ورقة لتكميل العدد
 اثني عشر واخذ للثانية تسعة وللثالثة ثمانية وللرابعة خمسة ومجموع
 ذلك ثلاثة وثلاثون فاذا اضيف له أربعة وهو عدد الورق المأخوذ
 يكون سبعة وثلاثين فاذا طرحه من عدد الورق الذي هو اثنان

وخمسون فان الباقي يكون خمسة عشر وهو ارقام الورقات الاربع
المأخوذة

والثانية ما لو فرضنا ان المأخوذ ثلاث ورقات من ورق
عدده ستة وثلاثون وكانت ارقام الثلاث المأخوذة اربعة وسبعة
ونسعة والعدد المختار خمسة عشر فعلى قياس ما مر نضرب خمسة
عشر في ثلاثة يكون الحاصل خمسة واربعين نضم له ثلاثة يكون
ثمانية واربعين وهو اكثر من عدد ورق اللعب ففي هذه الحالة
سقط الاصغر وهو ستة وثلاثون من الاكبر وهو ثمانية واربعون
فيكون الباقي اثني عشر نضيفه الى الورق الباقي بعد المأخوذ فيكون
حاصل الجمع هو ارقام الورقات الثلاث المأخوذة ففي هذا المثال
لاجل تكميل ارقام كل ورقة خمسة عشر نأخذ للاولى احد عشر
وللثانية ثمانية وللثالثة ستة وحاصل الثلاث خمسة وعشرون
وبإضافة الورقات الثلاث يكون الحاصل ثمانية وعشرين نسقطه
من عدد ستة وثلاثين الذي هو ورق اللعب يكون الباقي ثمانية
نضيف له اثني عشر وهو الفضل بين الستة والثلاثين والثمانية
والاربعين فيكون الحاصل عشرين وهو ارقام الاوراق الثلاث

وقد تطرأ دقيقة ثالثة وهي ما لو فرض ان ارقام الورقات
الثلاث اثنان وثلاثة واربعة وكار العدد المختار خمسة عشر وعدد
الورق ستة وثلاثين ففي هذه الحالة يلزم لاجل تكميل رقم الورقة
الاولى ان نأخذ لها ثلاثة عشر وللثانية اثني عشر وللثالثة احد

عشر ومجموع ذلك ستة وثلاثون يضم له عدد الورقات الثلاث
فيكون تسعة وثلاثين وهو أكثر من عدد ورق اللعب بقدر
ثلاثة ففي مثل هذه الحالة تستط ثلاثة من اثني عشر التي هي
الفرق ما بين ثمانية وأربعين وستة وثلاثين فيكون الباقي تسعة
وهو أرقام الورقات الثلاث وهكذا

فقال الشيخ لا بأس بهذه المعايير لما فيها من توسيع العقل
والإعانة على معرفة الحساب ويقرب من ذلك ما سمعته في صغري
وهو ما لو فرضنا أن إنساناً معه ثلاثة أوعية أحدها يسع ثمانية
أرطال والثاني خمسة والثالث ثلاثة وكان الكبير مملواً والاثان
الباقيان فارغين وأردنا أن نضع نصف ما فيه في الأناء الوسط
فيلزم

أولاً أن نملأ من الكبير فتكون فيه خمسة وفي الكبير ثلاثة
ثانياً نملأ الصغير من الوسط فيكون حينئذٍ في الصغير ثلاثة
وفي الوسط اثنان وفي الكبير ثلاثة

ثالثاً نضع ما في الأصغر على ما في الأكبر فيكون في الوسط
اثنان وفي الكبير ستة والصغير فارغاً

رابعاً نضع ما في الوسط في الأصغر فيكون فيه اثنان وفي
الكبير ستة والوسط فارغاً

خامساً نملأ الوسط من الكبير فيبقى فيه واحد والأصغر اثنان
والوسط خمسة

سادسا حيث وصلنا لهذا الحد نكمل الاناء الصغير ما في
الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط اربعة وفي الكبير واحد فحيث
قد انقسم الزيت كما هو المطلوب

فقال ابن الشيخ لو اردنا بقاء نصف الزيت في الاناء الكبير
كيف نفعل

فقال الشيخ نملأ الصغير اولا فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير
خمسة

ثانياً ننقل ما في الصغير في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي
الكبير خمسة

ثالثاً نملأ الصغير من الكبير فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط
ثلاثة وفي الكبير اثنان

رابعاً نكمل الوسط من الصغير فيكون فيه واحد وفي الوسط
خمسة وفي الكبير اثنان

خامساً نضع ما في الوسط في الكبير فيكون في الصغير واحد
وفي الكبير سبعة

سادساً نضع ما في الصغير في الوسط فيكون فيه واحد وفي
الكبير سبعة والصغير فارغاً

سابعاً نملأ الصغير من الكبير فيكون في الصغير ثلاثة وفي
الوسط واحد وفي الكبير اربعة وهو المراد

ثم قال لو فرضنا ان الاناء الكبير يسع اثني عشر رطلاً و اردنا

انفصال النصف ليعطيه لبعض الناس ولم يكن معنا الا انا
 اخران احدها يسع سبعة اربال والاخر خمسة فطريق العمل هكذا
 نملاً الصغير اولا فيكون فيه خمسة ويبقى في الكبير سبعة
 ثانياً ننقل ما في الصغير الى الوسط فيكون فيه خمسة وفي
 الكبير سبعة

ثالثاً نملاً الوسط من الكبير فيكون في الصغير خمسة وفي
 الوسط خمسة وفي الكبير اثنان
 رابعاً نكمل الوسط من الصغير فيكون في الصغير ثلاثة وفي
 الوسط سبعة وفي الكبير اثنان

خامساً نضع ما في الوسط في الكبير وما في الصغير في الوسط
 فيكون في الوسط ثلاثة وفي الكبير تسعة

سادساً نملاً الصغير من الكبير والوسط من الصغير فيحسب
 يكون في الصغير واحد وفي الوسط سبعة وفي الكبير اربعة

سابعاً ننقل ما في الوسط للكبير وما في الصغير للوسط فيكون
 في الوسط واحد وفي الكبير احد عشر

ثامناً نكمل الوسط من الكبير فيكون في الوسط ستة وفي
 الكبير ستة وهو المطلوب

وبيناها على هذا الحال واذا يعقوب قد دخل فقال له
 الشيخ اني اتبعت طريقتك ونهجت مجحك وان لم ابلغ في ذلك
 درجتك وقد التفت على ولدي بعض امثال تنرب ما كتبا فيه

هذه الليلة وحكى له مسألة تقسيم الزيت في الاواني الثلاثة
فقال يعقوب هذه المسألة مثل ما اذا كان المراد تقسيم واحد
وعشرين برميلا ثلثها مملو من المائع وثلثها فارغ والثلث الثالث
على النصف على ثلاثة كل واحد ثلثها وثلث المائع
فقال ابن الشيخ ياخذ كل واحد سبعة فقال يعقوب هذا
ظاهر اذا كانت البراميل كلها فارغة او مملوءة او متساوية المقادير
وفرض المسألة ليس شيئاً من ذلك ولو تأملت لعرفت حلها لان
عدد سبعة يمكن تحليله الى ثلاثة اعداد وهي اثنان واثنتان وثلاثة
وكل من هذه الاعداد تحل به المسئلة فنعطى مثلاً للاول اثنتين
مملوئتين واثنتين فارغين وثلاثة على النصف

وللثاني اثنتين مملوئتين واثنتين فارغين وثلاثة على النصف
وللثالث ثلاثة مملوءة وثلاثة فارغة وواحداً منصفاً وبهذه
الكيفية يكون مع كل واحد من الثلاثة قدر ما مع الآخر من
البراميل والمائع

ويمكن حلها بطريق اخر وهو ان يعطى للاول ثلاثة ملائنة
وثلاثة فارغة وواحد على النصف وللثاني ثلاثة ملائنة وثلاثة فارغة
وواحد على النصف

وللثالث واحد مملو وواحد فارغ وخمسة على النصف ففي
هذه الطريقة ايضاً اخذ كل منهم الثلث في كل من الظروف
والظروف

ثم لاجل حل كل ما يشبه هذه المسألة يلزم ان يكون خارج قسمة عدد البراميل على عدد الاشخاص عدداً صحيحاً فلو لم يكن كذلك لم تنبأ القسمة كما لو طلب تقسيم واحد وعشرين برميلا على اربعة فهذا لا يمكن بخلاف تقسيم اربعة وعشرين برميلا على اربعة فلا شك في امكانه فان خارج القسمة ستة فالذي يلزم هو تحليل خارج القسمة الى اجزاء صحيحة بقدر عدد الاشخاص ففي هذا المثال الاجزاء التي يتحلل اليها ستة هي ٢، ٢، واحد وواحد ولا يكون غير ذلك فعلى هذا يعطى للاول اثنان مملوآن واثنان فارغان وواحد على النصف وواحد على النصف

وللثالث واحد مملوء وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف

وللرابع واحد مملوء وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف فلو فرضناها سبعة وعشرين برميلا ثلثها مملوء وثلثها على النصف وثلثها فارغ واريد تقسيمها على ثلاثة فالقسمة ممكنة لان خارج القسمة تسعة ولها ثلاث كفيات

الاولى يعطى لكل منهم تسعة براميل كل ثلاثة من نوع الثانية يعطى للاول واحد مملوء وواحد فارغ وسبعة على النصف

وللثاني اربعة مملوءة واربعة فارغة وواحد على النصف

وللثالث اربعة مملوءة واربعة فارغة وواحد على النصف
 فياخذ بهذه الطريقة كل واحد تسعة
 والكيفية الثالثة ان يعطى للاول اثنان مملوآن واثنان فارغان
 وخمسة على النصف

وللثاني ثلاثة مملوءة وثلاثة فارغة وثلاثة على النصف
 وللثالث ٤ مملوءة واربعة فارغة وواحد على النصف
 وفي هذه المسائل وما يشبهها كتب طويلة وجدت منها كتاباً
 مع احد اصحابي المراكبية الذين كنت اجتمع بهم عند الفراغ من
 الشغل فكان يغنيني عن مفاكمة الانيس ومحادثة المجلس وقد
 حفظت منها اشياء كثيرة وان شاء الله في وقت غير هذا نتكلم فيما
 يحضر في منها فاني جئت الان مرسولاً من قبل الخواجا لاعلمكم انه
 ينتظر حضرته حيث تكون الساعة ١٠ افرنجية وها انا متوجه نحو
 المدينة لقضاء بعض اشغال امر في بها

المسامرة السادسة والتسعون

التدوين

ثم استأذن الشيخ وتوجه فجلس الشيخ مع ولده برهة ثم نظر في الساعة فوجد الوقت قد أزف فقام متوجها اليه ومعه ولده فلما دخلا عليه قام لهما واجلسهما وأنسهما ثم قال للشيخ ان رئيس الجمعية ارسل لي تذكرة يسلم فيها على حضرتكم ويخبرني انه في انتظارنا جميعا في الساعة المعينة بيننا وبينه ويقول ان من شأن الكرام اذا وعدوا وفوا بوعدهم وقد بقي من الوقت ثلاث ساعات فلما علم ابن الشيخ امتداد الوقت استأذن والده في الذهاب مع يعقوب فاذن له فقال ابن الشيخ ليعقوب الى اين تريد فقال ان حضرة الخواجا اشترى بالامس نظارة معظمة من احد المخازن وكان بها بعض نقص فامر صاحبها باتمامه وقد اعطاني ثمنها لاحضرها له

فقال ابن الشيخ اذكر حين كنا بالمركب وحضرة الخواجا
نذكر لنا بعض كلمات تتعلق بالنظارات وكان قد وعد ان يشرحها
لنا اذا وصلنا الى باريس فعسى ان يكون مشترها لانجاز ما وعد
فقال يعقوب ربنا كان كذلك ولكنه لم يخبرني عن شي

وبيناها سائران اذا باناس كثيرين يدخلون كنيسة وعلى
بابها عربات كثيرة وخدم وكلهم في زي غير معتاد وعلى ابواب الكنيسة
عساكر بملابس رسمية وجميع آلات الموسيقى تضرب فسأل ابن الشيخ
يعقوب فقال له هذا معبد النصارى الذي تعبدون فيه فقال
وما المناسبة بين محل العبادة الدينية والملاهي الدنيوية

فقال يعقوب الباريزيون دائماً المحظوظ النفسية فلا يفارقونها
سواء كانوا في المعابد او التيارات او غيرها فتجد في كل منها ما
في الثاني من المحظوظ ولا فرق بينهما الا بكثرة ما بوقد في الكنيسة
من الشموع وما يحرق فيها من البخور وكثرة النساء والشبان
وميلهم الى الاصوات الحسان لا يكون للتقسيس شهرة بينهم الا بحسن
الملابس ونضارة الزي وكثرة الوشي وما اشبه ذلك

فقال ابن الشيخ لو دخلنا لعلمنا حقيقة الحال

فقال يعقوب لا باس في دخولنا فدخلنا فوجدنا رجلاً عظيماً
من رجال ونساء ولكل هيئة مخصوصة به وقت عبادته فترى
الرجال وقوفاً رؤسهم مكشوفة والنساء جاثيات على ركبتين
وبايديهن كتب صغيرة منقوشة وعلى جلودها رسوم بماء الذهب

واللجين وعلى النساء والرجال افخر الملابس واما القسيسون فلا يراهم الداخل الا على بعد وكانت ملابسهم اذ ذاك مكللة بالذهب ومزركشة بالقصب ومزينة برسوم يقضى لها بالعجب وكان كبيرهم يتكلم بصوت عال رخم كانه خطيب على مرتفع عظيم الا ان ابن الشيخ لم يعرف كيفية هذه العبادة لانه لم يسبق له في هذا الامر عادة فعجب كل العجب وطرب ما رآه غاية الطرب سيما واصوات الآلات والاحان كانت تختلط باصوات القسيسين فسأل يعقوب عما يقوله القسيس وعن اللسان الذي يتكلم به فقال يعقوب اما قوله ففي الامور الدنية مثل الصلوات والادعية واما لسانه فاللاتيني

فقال ابن الشيخ اذا لا علم للحاضرين بما يقول فقال نعم ولكنها رسوم يؤدونها واوصيك ان تكفي الان بالظر والمشاهدة وكان ابن الشيخ وقت دخوله لم ينزع عمامته فراه احد الخدم فامر به بان يكشف راسه ففعل ولم يتوقف ولكنه عجب من اعتنائهم بكشف الرؤس مع عدم خلعم النعال ورأى كلاباً كثيرة مع اربابها داخل المعبد ولا انكار على احد من احد فزاد عجبه من ذلك ورأى جميع حائط الكنيسة من الداخل مكسوا بالجوخ الاسود والشموع موقودة في جميع اماكنها ثم الفت ابن الشيخ فرأى ميتاً قد حضروا به وقدامه عدد كثير من القسيسين والرهبان لابسين الملابس الرسمية فوضعوه وجعلوا يطوفون حوله

ثم اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا من الكنيسة وقد رأى يعقوب ان ابن الشيخ تأثر من تلك المناظر فسأله عن السبب فقال يسوئي ان ارى المعابد على غير ما وضعت له فانظر الى مساجدنا وقارن بيننا فيها وبين الافرنج في كنائسهم تجد فرقا عظيماً فان اجتماع المسلمين في المساجد عدنا ان كان للصلاة على الجحيزة لم يفعلوا الا ما يعود نفعه على الميت من الصلاة عليه والاستغفار له سواء كان الميت غنياً او فقيراً صغيراً او كبيراً وان كان لاداء فريضة كانوا على غاية من الخضوع والخشوع ولذلك يطلب من الانسان قبل شروعه في الصلاة طهارة بدنه وثوبه والتوجه الى ربه بقلبه وقلبه والتخلي عن الاخلاق الرديئة والتخلي بالاخلاق المرضية

فقال يعقوب قد كان امر الدين قبل الان بعدة قرون عند جميع الامم من اهم الامور وكانت اماكن العبادة اكثر احتراماً واعتباراً من جميع الاماكن وبعض من يجهل سر ذلك يزعم ان الاديان انما كانت معظمة في الزمن السابق لجهل الامم اذ ذاك بحال امر الديانة ويقول ان رقاب الخلق كانت بايدي القسيسين يتصرفون فيها تصرف السادات في عبيدهم واما الان فقد استغنى الناس عن ذلك لعلمهم بثمرات التمدن وصار كل انسان في غنية عنهم ويمكنه الاهتداء بنفسه الى ما فيه صلاح له وليس احد ملزماً باتباع دين دون اخر فله اختيار اي دين شاء وله ان لا يتدين بدين

اصلا فمن هذا وامثاله تغيرت عقيدة الناس فصار حال اغلب بقاع
اوروبا كما ترى من قلة الدين

وحال الكنيسة في المونى يخلف باختلاف الناس فانغني
تعقد له محافل مثل ما رأيت وذلك على حسب ما يصرف من
التقود

واما الفقير فربما لا يفعل له شي من ذلك اصلا ومع ذلك
فلو تأملت جميع هؤلاء الناس بعد خروجهم من الكنيسة وتفتدت
احوالهم لوجدتها مخالفة لامور الديانة بالكلية فان البنت تقول
لامها مثلاً فلانة كانت في زي كذا وفلانة في زي كذا او فلانة
اجادت الغناء اكثر من فلانة وكسوة سيدي القسيس كانت كذا
وكذا ورأيت سيدي القسيس فلانا يتكلم مع فلانة سرا او علانية
وهلم جراً ولا تكاد تسمع في ذلك اليوم الا الكلام في قدر ما احرق
من الشموع والبخور وكسوة الكنيسة وما اعطي للقسس وما زخرفت
به خشبة الميث ومن مشى خلفه او امامه من الاعيان والامراء ونحو
ذلك وقل ان تسمع احداً يذكر اسم من قبضت روحه او من قبضها
واذا سمع ذلك لا يكون الا من امرأة عجوز منهم

ولما وصلوا الى الحانوت الذي قصده يعقوب تلقاها صاحب
الحانوت وامر لها بكرسيين واجلسها ثم قال ان الصندوق قد تم
من مدة وكنت عازما على ارساله لحضرة الخواجا لظني انك لا تتاخر
عن الميعاد الا لعذر

فقال يعقوب انه بعني في الوقت الذي عينته له وانما تأخرت لان ابن الشيخ رأى في طريقنا جنازة فاحب ان يدخل الكنيسة ليعرف العوائد الجارية هنا في الجنازات فمكثنا بها حتى علم عوائدهم في موتاهم فهذا هو الذي اخبرني عن المحصور في الوقت المعين

فقال صاحب الخانات اظن ان القسيسين احتفلوا بهذه الجنازة فاني سمعت انه صرف للكنيسة نحو ثلاثين الف فرنك وانه اجتمع في الجنازة جم غفير وكت تهيأت للذهاب لانظر ما هناك فتعني مانع وهواني كت في جهة سراي الملك ثم قال وماذا قال صاحبك المصري فيما رأى وهل تشيع الجنازات في بلده كما رآه في بلادنا ففهم ابن الشيخ كلامه ولكنه هاب ان يكلمه باللغة الفرنسية خوفاً من العثرة فيها

فقال ليعقوب بالعربية قل له ان عوائد المسلمين في ذلك ليست كهوائدكم فان المسلمين اذا مات منهم احد وكان مشهوراً بشيء من مناقب الصالحين لا يلتفت لما له بل يجتمع لجنازته كل من سمع بموته وان لم يكن من اهله ولا من ذوي قرابته فاعتبار الميت عندنا وعدم اعتباره بعد ماته تابع لما كان يعمل من خير او شر في حياته فان كان كثير الاحسان سليم القلب طاهر اللسان متعوداً على فعل الخير دائماً السعي في نفع الغير محباً للمساكين والفقراء مؤدياً ما اوجبه الله عليه في السراء والضراء حزين لموته

الاجانب ورثوه اكثر من اقاربه الذين ورثوه وان كان بخلاف ذلك في حياته لاقى ما يسوءه ويسوء اقاربه بعد وفاته فقد يكون الشخص عندنا فقير الحال لا وارث له ولا مال ويجمع في جنازته من الرجال والنساء ما يضيق عنه الفضا ويصلون عليه ويمشون خلفه وبين يديه يستغفرون له ويعددون محاسنه الى ان يدفنوه فاذا فرغوا من دفنه عزوا اقاربه ان كان له اقارب والا عزى بعضهم بعضاً ثم يرجعون الى منزل الميت ان كان له منزل يليق بالعزاء والا فالى محل يليق به ويبذل اهل الثروة والمرؤة ما في وسعهم من الخدمة ورفع الكلف عن اقارب الميت ويعملون له الختمات والسج ونحو ذلك من العوائد التي يعود نفعها على الميت كاطعام الطعام وغير ذلك الى ثلاثة ايام او اكثر على حسب فضائل الميت قلة وكثرة كل ذلك واقارب الميت لا شغل لهم الا مقابلة الواردين وتشجيع الصادرين واما اذا كان الميت بخلاف ذلك فلا يعبأ احد بجنازته ولا يعلم كيف ولا متى صار الى حفرة ولو كان غنيا متمولا ذا ثروة وعلى كل حال لا يجب في تركه الميت ولا على ورثته سوى غسله وتكفينه والصلاة عليه ومواراته في تربته الا ان كان اوصى في حياته ببعض خيرات تعمل له بعد مماته ومن الاحكام الدينية انه اذا مات الميت منا وخلف ولداً قاصراً او حملاً في بطن امه حرم علينا استعمال شيء من ممتلكاته ولو فشا له آنية حتى شرب الماء الى ان نقسم التركة وتبين الانصاء

وهنا وقف ابن الشيخ عن الكلام فترجم يعقوب مقاله
ثم قال لصاحب الخان ان الخواجا في انتظارنا فهات الصندوق
فناولوه اياه فانصرفا به يجدان في السير الى ان وصلا فوجدا الشيخ
وصاحبه في انتظارهما فقال الخواجا ليعقوب ما اخرجك الى هذا الوقت
واخذ يلومه ويعنفه واره خلقا لم يكن من قبل فيه يعرفه وكان من
عادة يعقوب ان لا يكلم عنهم شيئا من خبره فذكر لهم ما كان من
امر الكنيسة ورغبة ابن الشيخ في دخولها فكف عن لومه ثم التفت
الى ابن الشيخ فرأى على وجهه علامات الحجل فقال لا بأس عليكما
حيث كان في تاخركما فائدة



(انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الثالث

من كتاب

علم الدين

صفحة	المسامرة	في
٢٨٥	الثامنة والستون	عود الى حكاية يعقوب
٢٩٠	التاسعة والستون	السابع (من حكاية يعقوب)
٢٩٤	الستون	اس آوي (من حكاية يعقوب)
٢٩٦	الحادية والسبعون	النر (من حكاية يعقوب)
٢٩٩	الثانية والسبعون	الفرقة (من حكاية يعقوب)
٨٠٥	الثالثة والسبعون	سنور الزناد (من حكاية يعقوب)
٨٠٨	الرابعة والسبعون	الوصول الى باريس
٨١٦	الخامسة والسبعون	لحة في باريس
٨٢٤	السادسة والسبعون	الحيوان العجيب
٨٢٤	السابعة والسبعون	حية البحر والهائشة (من حكاية يعقوب)
٨٥٠	الثامنة والسبعون	كاشالو او العنبر (من حكاية يعقوب)
٨٥٢	التاسعة والسبعون	• نثمة قصة يعقوب

صفحة	المسامرة	في
٨٥٧	الثمانون	سوق في باريس
٨٦٥	الحادية والثمانون	باريس
٩٠٧	الثانية والثمانون	البالو
٩١٢	الثالثة والثمانون	اهرام مصر والمقاييس
٩٤١	الرابعة والثمانون	نبذة تاريخية
٩٦٠	الخامسة والثمانون	وصف بعض انحاء باريس
٩٧٢	السادسة والثمانون	تعدد الزوجات
٩٨٢	السابعة والثمانون	التعداد او الاحصاء
١٠٠٨	الثامنة والثمانون	الفلاحة والزراعة
١٠٤٢	التاسعة والثمانون	فرساي
١٠٥٤	التسعون	الجيولوجيا او علم طبقات الارض
١٠٧١	الحادية والتسعون	نادرة
١٠٧٧	الثانية والتسعون	الجمعية المشرقية
١٠٧٩	الثالثة والتسعون	الفرنسيين في مصر
١٠٩٢	الرابعة والتسعون	العقائد
١١٢١	الخامسة والتسعون	نوادير
١١٢٦	السادسة والتسعون	التدين



